سلسلة الاعلام

أحمد عرابى

مصر للمصريين

تأليف

د. حسين فوزى النجار



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٢

الاخراج الفنى : عمر حماد على

الإهـــداء

الى حفيدة البطل أحمد عرابى

السيدة الأستاذة

سميرة عرابى

فهى صاحبة الفضل الأول فى اقدامى على كتابة سيرته لتكون ختاما لسلسلة كتبى عن تاريخ مصر فى سير أعلامه ٠

المؤلف

الدكتور حسين فوزى النجار

مقدمـــة

ن بدأت تدوين تاريخ مصر ، بسيرة اعلامه ، وبدأتهـــا
. أحمد لطفى السيد ـ أستاذ الجيل » على غير ما يمضى
هج التاريخى من التسلسل فى سياق الأحداث ، فلأن لذلك
لعله الصلة الاسرية التى تربط بين العصبيات الريفية فى
احد ، أو لعله ، وهو الأقرب الى العاملين العقلى والنفسى
ان رسالتى للدكتوراه كانت عن « الجريدة وحزب الأمة »
ة هى الصحيفة التى رأس تحريرها أحمد لطفى السيد ، حتى
يت فى تناول اعلام مصر الآخرين ، تناولتها وفق ترتيبهـــا
ى ، فبدأت برفاعه الطهطاوى ، ثم على مبارك ، فسعد زغلول
الدكتور هيكل ، وبعده الرئيس محمد نجيب ، وذيلت كل منها
الكبير الذى خلده على مدى التاريخ ، فرفاعة الطهطاوى
ى وامام نهضة ، وعلى مبارك أبو التعليم ـ وسعـد زغلول
والزعيم ، والدكتور هيكل وتاريخ جيل ٠ اذ أنه صورة بارزة
جيله ، الادبية والفكرية والتاريخية والسياسية ، فاذا جئت
يس محمد نجيب ، كان العنوان الذى اختاره الناشر«صفحة
خ مصر المعاصر » ـ على غير ما اخترت ـ البطل والبطولة٠

ولم أفكر فى الكتابة عن ـ أحمد عرابى ـ رغم ما كان من صلته الوثيقة بجدى ، ولعل ذلك لكثرة ماكتب عنه ، واخترت لـه عنوان « الزعيم أحمد عرابى » الا أننى اكتشفت أن المؤرخ العظيم عبد الرحمن الرافعى قد سبقنى اليه ، واخترت له عنوانا « أحمد عرابى : مصر للمصريين » فقد كانت دعوته وكان جهاده أن تكون مصر لأبنائها دون الترك والجركس الغـالبين ، واخترت له هذا العنوان صورة لكفاحه الغالب فى سبيل مصر ، والوجود المصرى ٠

والزعيم أحمد عرابى ، فى الواقع ، ثمرة لما قام به الوالى محمد سعيد باشا من متغيرات على الادارة المصرية لعل ابرزهـا اصداره ـ (اللائحة السعيدية فى ٥ أغسطس سنة ١٥٥٨ م ٢٤ ذى الحجة سنة ١٢٧٤) ، وهى من أعظم اصلاحاته كمـا يقول الرافعى (لأنها أساس التشريع الخاص بملكية الأطيـان فى القطر المصرى ، وهى من أثاره الخالدة التى تذكر له بالخير ، لأن الملكية هى من الدعائم الأساسية للهيئة الاجتماعية ، وكان الفلاح محروما من حق التملك فى عهد محمد على)(١) وهو مايشير اليه ـ عرابى ـ بقوله :

(تولى المرحوم سعد باشا ولاية مصر فى ١٤ شوال سنـة ١٢٧٠ هجرية ، حيث أصدر أمرهبانتظام أولاد عمد البلاد ومشايخها فى سلك العسكرية حيث كان طلبى والحاقى بالعسكرية فى ١٥ ربيع أول سنة ١٢٧١ هـ) ٠

(فى التاريخ المذكور آنفا دخلت العسكرية وكان ذلك فى عهد محمد سعيد باشا الذى كان محبا لتقـدم المصـريين ، فترقيـت بالامتحانات امام رجال العسكرية الى رتبة ملازم ثانى فى ١٥ ربيع

---

(١) عبد الرحمن الرافعى بك : عصر اسماعيل الجزء الاول ص ٢٥

الثانى سنة ١٢٧٥ ، والى رتبة ملازم أول فى ١٧ جماد الثانى سنة ١٢٧٥ هـ والى رتبة يوزباشى فى ١٣ شعبان من السنة المذكورة ، والى رتبة صاغتول أغاسى فى ٢٢ ربيع آخر سـنة ١٢٧٦ ، والى رتبة بكباشى فى ١٥ شعبان من السنة المذكورة ، والى رتبة قائمقام بك فى ٢٤ صفر سنة ١٢٧٧ ، وهى الرتبة التى لم يصل اليها أحد قبلى من العنصر المصرى ، ثم ترقيت بعد ذلك فى عهد محمد **توفيق باشا** الى رتبة أميرالاى فى رجب سنة ١٢٩٦ والى رتبة اللواء فى ربيع آخر سنة ١٢٩٩) .

ولم يلق محمد **سعيد باشا** من حفاوة التاريخ ما لقيه غيره من ولاة مصر وخديويها ، ولم يكن لذلك من سبب ـ كما نرى ـ الا لأنه لم يمض على سنة غيره من الولاة والخديوين ، ممن نهجو نهج محمد على ، فى حكمه مصر ، فان لم تعد ولاية عثمانية فقد أصبحت ولاية علوية ، وهو ما احتذاه الخديو اسماعيل فيما بعد فنال من حظوة المؤرخين مالم ينله الوالى محمد سعيد ، وكانت **ولاية اسماعيل** ، ومن بعده توفيق القشة التى قصمت ظهر البعير ، وكان انفجار الثورة العرابية لتكون ـ مصـــر للمصريين ـ وكانت مصداقا لما يؤكده الدكتور هيكل فى « مذكرات فى السياسة المصرية » بقوله :

« كثيرا مانسى المؤرخون نصيب الشعب المصرى فى توجيه الحوادث التى مرت به ، واكتفوا بذكر الوقائع الحربية التى شهدتها موانىء مصر وأراضيها ، ولو أنهم ذكروا مواقف الشعب من هذه الحوادث ، لحكموا بأنه كان صاحب الأثر الحاسم فى النتائج التى انتهت اليها ، فدخول الفرنسيين ـ مصر بامرة بونابرت ، وجلاؤهم عنها ، ومحاولة الانجليز دخول مصر ، وقيـام محمد على الكبير ، وتبـوئه عرش مصر ـ كل ذلك كـــان

للمصريين فى توجيهه ونهايته الأثر الحاسم ، لكننا لانجد فى المؤلفات القديمة ، خلا يوميات ابن اياس ويوميات الجبرتى ، ما نستشف من خلاله هذا الأثر ، ولهذا يظن بعضهم أن الشعب المصرى عاش بعيدا عما كان يجرى حوله من الأحداث ، مسلما أمره ، للغالب ، مكتفيا بفلاحة الأرض لينال الغالب من ثمرات كده مايشاء ، وليدع منها لهذا الشعب المستسلم الكفاف ٠

ونسيان ما كان للشعب المصرى من أثر فى توجيه الحوادث ، هو الذى أدى فى تاريخ مصر الحديث الى مآس دونت صور بعضها فى هذه المذكرات ، على اننى لا أزعم أننى فصلت كل ماحدث خلال الحقبة التى تناولتها فمن الحوادث مأوقفت عنده لماما اذ لم اشارك العاملين فيه بنصيب يذكر ، ومنها ما أغفلته اذ لم يكن لى فيه اثر ولم أقف على الحقيقة من أمره »(٢) ٠

ومصداق ما يقرره الدكتور هيكل ، ما كان من الثورةالعرابية وزعامة أحمد عرابى ، فقد كانت نبض ما جاشت به مصر من انفعال، وكان أن تحولت من حركة عسكرية تدور حول موقف الضباط المصريين من سياسة التسلط العسكرى التى قادها عثمان رفقى ، الى حركة وطنية شعارها (مصر للمصريين) ٠

« فالثورة العرابية كانت دفاعا عن الحق ودفاعا عنالحياة٠٠ ولا جدال فى أن ظهور أحمد عرابى كان فى مقدمة الأسباب المباشرة للثورة ، فهو الذى بث فى نفوس الضباط روح التضامن والاتحاد للمطالبة بحقوقهم المهضومة ، وتقدم الصفوف لعرض مطالبهم

---

(٢) الجزء الأول : دار المعارف ص ٩ ٠

جهارا على ولاة الأمور ، وكانت هذه المطالب فاتحة الثورة ، ولو لم يظهر عرابى ، ولم تكن له تلك الشـــخصية التى اجتذبت اليه صفوف الضباط وبثت فيهم روح التضامن والاقدام ، لكان محتملا أن لا تظهر الثورة العرابية ، أو لظهرت فى زمن آخر ، وفى ظروف وملابسات أخرى غير التى ظهرت فيها »(٣) ٠

وكان عرابى البطل المنشود للتعبير عن ارادة مصر ٠

دكتور حسين فوزى النجار

الزمالك فى ٢٩ رمضان ١٤١١

الموافق ١٤ ابريل ١٩٩١

---

(٣) عبد الرحمن الرافعى بك : الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى ص ٦٤ ٠

١/١ ـ من عهد الى عهد

قامت الثورة العرابية لتؤكد حق المصريين من ضباط الجيش فى المساواة بأندادهم من الترك والجركس ، ثم اتسع مداها لتؤكد حق المصريين فى المساواة المطلقة بالترك وتنكر استئثار الخديو وبطانته ورجال دولته من الترك والاجانب بالسطلة دون أصحابها من المصريين ٠

الا أننا يجب أن نعود الى سنوات خلت قبل ذلك حتى نتبين أصالة الروح المصرية وصدقها فى التعبير عن ذاتها وسط هذا الخضم من السيطرة التركية ، اذ لم يجدوا أنفسهم أكفاء لتولى الحكم فى بلادهم ، وقد واتتهم الفرصة حين تصدوا لمقاومة الحملة الفرنسية بعد أن استخذى المماليك دونها ، وعجزت الدولة العثمانية عن مقاومة الاحتلال الفرنسى وقهره ، ففى هذا النضال الذى خاضه المصريون ضد الفرنسيين ظهرت زعامات شعبية كانت جديرة بأن تتولى حكم البلاد ، على رأسها عمر مكرم ، ولكنها تنحت عنه وأسلمته الى محمد على متحدية فى ذلك ارادة السلطان العثمانى ، مما ينفى عن المصريين عاطفة الولاء السياسى للدولة العثمانية ، والا لرضوا بمن اختاره السلطان واليا أيا كان شأنه ، ولم يرض الخليفة

الا كارها بولاية محمد على على حين وقف الشعب يسنده ويؤازره، ووقفت الزعامة المصرية تتمسك بولايته وتتحدى فى ايثاره بالولاية ارادة خليفة المسلمين ٠

ولعلهم كانوا يدركون أن تحدى ارادة الخليفة لايعنى الثورة عليه ، وأن اختيارهم للولاية مصريا هو ثورة على نظام الدولة الذى جرت عليه وأخذت به منذ قيامها ، وهو ما يتنافى مع الولاء الذى يكنونه لدولة الاسلام ولخليفة المسلمين ، فاذا كان عليهم أن يختاروا فان اختيارهم يجب الا يخرج على نظام الدولة فى اختيارها للولاة ، وقد جرت الدولة على اختيار الولاة من الأتراك فى مصر وفى غير مصر من البلاد التى تتبعها ، ومن ثم فأن اختيارهم هو اختيار لوال تركى من بين اتراك آخرين ، وقد رأوا ان اختيار شخص معين من بين من ترشحهم أرومتهم التركية للولاية هو حق من حقوقهمالأصيلة تفرضه الشريعة السمحاء التى تدين بها الدولة فى حكمهـا لأمـة المسلمين ، فاذا كان الخليفة يرى قيام تركى بالولاية فان هذا لايخالف الشريعة التى سوت بين المسلمين ، وقد ظن المصريون أن محمد على راع صالح ، وأنه أحق من الآخرين بالولاية ، فكان اختيارهم لـــه وتحديهم للدولة فى هذا الاختيار قائما على هذا الأساس ٠

فلم يكن عزوف الزعامة المصرية عن تولى الحكم بنفسها بعد أن اضطلعت دون غيرها بعبء الكفاح القومـــى ايمانا منها بعدم القدرة عليه أو انها ليست كفئا له ، بل لأنها ترى أن حقها هو دون الولاية وان عداه الى الاختيار ، وظل هذا الرأى قابعا فى اذهان المصريين حتى الثورة العرابية ، فحين فكر عرابى فى خلع الخديو توفيق ، لم يعلن هذا الرأى أو يجهر به الا بعد أن ثبت استعداء الخديو توفيق للاجانب على الثورة ٠

وفى اجتماع قادة الثورة العرابية بأعضاء مجلس النواب فى دار محمد سلطان باشا مساء ٢٧ مايو سنة ١٨٨٢ ، رفض النواب موافقة عرابى على خلع الخديو ، وبالرغم من حملة عرابى على توفيق وأسرته ، فانه حين احتكم الى الناس فى ذلك كانت العرائض التى استكتبهم اياها تنص على استبدال الخديو توفيق بالأمير حليم باشا ، ولم يشر الى ضرورة التخلص من الأسرة الخديوية ، ولعله لم يشأ أن يخالف النواب رأيهم ، ولعل النواب أنفسهم كانوا ينفسون على عرابى أن يخلف الخديو على العرش ، أو يرأس الجمهورية اذا ما أريد للبلاد أن تكون جمهورية ·

ولعل محمد على قد أدرك بمكره وبصيرته النفاذة أن الخطر الذى يمكن أن يتهدده ويتهدد أسرته لن يأتيها الا من ناحية الشعب · فأنكر على المصريين ـ كما يقول الجبرتى ـ كل حق فى تولى وظائف الدولة العليا ، أو ذات الخطر ، فقصرها على بنى أرومته ، وعلى بعض الاجانب · وكان يختار مستشاريه ورجال دولته من هاتين الطائفتين ·

ويبرر مؤرخوه ومن انساقوا فى تملق أسرته واللواذ بها ، انصرافه عن تجنيد المصريين فى البداية بخشيته على الزراعة أن تبور ، اذا انصرف المصريون عنها الى الجندية ـ ولكن مما يهدم هذا التبرير انه حين اضطر الى تجنيد المصريين ، وحقق على أيديهم أعظم انتصاراته ، حال بينهم وبين الترقى الى الرتب العليا ·

وكان هذا ما وقر فى عقول رجال الأسرة العلوية ، فنرى الأمير عمر طوسون يقول فى ذلك : « ولكن المصريين من هؤلاء الجنود الذين أظهرت الحرب علو كعبهم ، واستحقاقهم لكل مديح يفقدون هذه الصفات الباهرة عندما يرتقون الى مراتب القيادة

العليا ، فهم عندئذ لايحسنون القيام بواجبهم ، ولايعتزون بكرامة مراكزهم ، بل يبقون على ما ألفوه من عوائدهم القديمة ، فهم من هذه الوجهة يخالفون العثمانيين والمماليك الذين يفوقونهم جدارة واستئهالا لمراكز القيادة العليا »(١) ٠

ولا نملك أن نحكم على عواطف محمد على تجاه المصريين الا بما بدر منه نحوهم فقد اعتز عليهم بأخدانه من الترك والجركس والاناؤود وميز عليهم الأجانب فارتفع عددهم من ـ ١٥٠ر١٦ ـ فى سنة ١٨٤٠ الى خمسين ألفا سنة ١٨٣٦ وأصبحوا مائة وخمسين ألفا سنة ١٨٧٠ على عهد الخديو اسماعيل ٠

وكانت الضريبة التى يفرضها على التجار المصريين عشرة فى المائة ، والضريبة التى يفرضها على أقرانهم من الأجانب اثنين ونصف فى المائة ، وفى هؤلاء الأجانب يقول الجبرتى :

(انهم ترأسوا وعلت أسافلهم ولبسوا الملابس الفاخرة وركبوا البغال والرهوانات ، وأخذوا بيوت الأعيان التى بمصر القديمة وعمروها ، وزخرفوها ، وعملوا فيها بساتين وجناين ، وذلك خلاف البيوت التى لهم بداخل المدينة ، ويركب ـ الكلب ـ منهم وحوله وأمامه عدة من الخدم والقواسة يطردون الناس من أمامه وخلفه) ٠

وقصر وظائف السلطة على أبنائه وعشيرته من الترك والجركس فكان منهم حكام الأقاليم وكبار الضباط فى الجيش

---

(١) الأمير عمر طوسون : صفحة من تاريخ مصر فى عهد محمد على ـ الجيش المصرى البرى والبحرى ـ ص ٤٥ ٠

والشرطة وجباة الضرائب، أما وظائف الخدمة العامة التى لا جاه لها ولا سلطان كوظائف التعليم والهندسة والطب فقد كان للمصريين والأجانب نصيب فيها ، فلم يكن ممن أصطفاهم من يصلح لها ٠ أو يقدر عليها ، وليس فيها مايخشاه أو يخشى منه على عرشه ، مادام يسيطر بمواليه على عناصر القوة فى الدولة ، وحين انقضت حاجته منها فى أواخر أيامه وفى أيام حلفائه أغلقها ٠

وكان أخطر ما قام به محمد على ، انه قضى على العصبيات والأسر المصرية القوية ، وهو ما أشار اليه الشيخ محمد عبده ، بقوله :

(حتى اذا سحقت الأحزاب القوية ، وجه همه الى رؤساء البيوت الرفيعة ، فلم يدع فيها راسا يستتر فيه ضمير – أنا –)(٢) ٠

وباعدت تلك المظالم بين الشعب وبين الأسرة الحاكمة ، وكانت سببا قويا فى قيام الثورة العرابية ، والتفاف الناس حولها ، وتأييدهم لها ، وظل أثرها قائما لا يبرح أذهان المصريين بعد فشل الثورة العرابية يباعد بينهم وبين الأسرة الحاكمة ، بعدا يصوره الدكتور هيكل فى مذكراته السياسية تصويرا دقيقا ، فيقول(٣) :

وقد بقيت فى أذهاننا نحن أبناء الريف المصرى صورة قاتمة من حكم الترك ومن حكم الخديويين أنفسهم

---

(٢) من مقال للشيخ محمد عبده حمل فيه على محمد على بمناسبة الذكرى المئوية لوفاته سنة ١٩٠٥ – تاريخ الأستاذ الأمام جـ٢ ص ٣٨٢ – لمحمد رشيد رضا ٠ ثلاثة أجزاء مطبعة المنار ٠

(٣) الجزء الأول : ص ٢١ ٠ دار المعارف رقم الايداع ٣٦٧١ بتاريخ ١٩٧٧ ٠

حين كان لهم وللترك السلطان المطلق الذى ا
ثورة عرابى ، فكثيرا ماحدثنا اباؤنـــا وأجـــ
وحدثتنا امهاتنا وجداتنا عن حكم أولئك النا
كانوا يزدرون المصريين ويحقرونهـم اشـــد الا
ويضربونهم بالسياط لسبب وبغير سبب ·· و
ما يعبر عنه المثل العامى ـ آخر خـــدمة الغز
والغز هم الغزاة الأتراك والجراكسة ومن اليه
الخديو ممثل هذا الماضى الذى زال بتـــولى
السلطة ، والغائهم السخرة والكرباج فقد كان
من أهل الريف ، وكان ابناؤهم من أمثالنا يفز
قيل لهم أن السلطان سيعود كما كان لصاحب
الشرعية ، وأن الغز سيتولون الأمر من جديد

ولم يكن الوفاق بين أبناء الأسرة العلوية على خير
مصدره هو الآخر التنافس على السلطة ، أو الظفر بالولاية
اغتيال عباس الأول صورة لما كان بينهم من تنافس ، يا
التناحر ، ويورى بالأحن ، وقد نرى صورة أخرى لهذا الت
فى العصر الحديث ، وفى بواكير ثورة ١٩١٩ ، وقد سا
الطبقة التركية منذ البداية الى تزعم الحركة الوطنية ، وقد
فكان سعى الأمير عمر طوسون ، لتكوين وفد يسعى لدى
الصلح مطالبا بحقوق مصر ، وبدأ خطوته الأولى فى هذا ا
وكان سعد ممن اتصل بهم الأمير وحدثه فى هذا الأمر وكتب
عنها فى ـ مفكرته ـ وقد قيل عنها فيما بعد أنها (مذكر
انها فكرة جميلة قامت فى بعض الرءوس من قبل ·

ولعل عمر طوسون فى سعيه ، لم يكن يفكر فى الاعتم
سواد الشعب وتأييدهم ، وكان ينظر الى المسألة من جانبها ا
فحسب ، فأن عمر طوسون مع ما كان منه من اهتمام بمد

مصر ، وما عرف عنه من اهتمام بالفلاحين فى املاكه الواسعة ، كان تركيا صميما فى قلبه وقالبه ، وكان من أمره ماسبقت الاشارة اليه فى رأيه عن تجنيد المصريين ـ ولم تكن نظرته الى المصريين لتختلف عن نظرة جده الكبير مؤسس الاسرة الحاكمة ، ولم يكن سعيه الا كسعى رشدى وعدلى وثروت والسلطان فـؤاد نفسـه لاستكمال ما يرونه حقا للاسرة المالكة فى الحكم والاعتبار ، فنرى السلطان فؤاد يوافق على سفر رشدى وعدلى لمفاوضة الحكومـة البريطانية فى وضع مصر بعد الحرب ، ويأخذ ممثلو بريطانيا فى القاهرة عليه موافقته مسبقا على سفر وزيريه قبل ان يتشاور فى هذا مع دار المندوب السامى .

وكان سعى الأمير عمر طوسون لتغيير الوضع الذى فرضته الحماية البريطانية على البلاد من هذا القبيل ، وكانت محاولتـه لتأليف وفد من زعماء المصريين وسعيه الى سعد زغلول فى داره ـ للمذاكرة فى حالة مصر ، ومايجب أن يقدم اليها من الخدمة الآن ـ كسعى رشدى وعدلى اليه بتلك الفكرة ، ينشدان من غير الرسميين التأييد بعد أن واجهتها الحكومة البريطانية برفض سفرهما لهذه المطالب ، فهو سعى يتفقون فيه جميعا على الهدف والغاية ، بل أن السلطان حسين قبيل وفاته كان قد أمر رشدى باشا بكتابة مذكـرة الى الحكومة البريطانية يطلب فيها حل القضية المصرية على وجه كفيل بالاستقرار ، والرضى من الأمة ، ثم مرض السلطان حسين وأدركته الوفاة قبل تبليغ هذه المذكرة ، فالذى يغلب على الظن أن السلطان فؤاد قد أرجأها الى الوقت المناسب ، واختار تحريكها قبل الهدنة ، فأوعز الى عدلى ورشدى باتباع الخطة التى تلائم الحوادث الأخيرة(٤) .

---

(٤) العقاد ـ عباس محمود : سعد زغلول : سيرة وتحية : ص ١٩٣ ـ ١٩٤ .

وحين رأى السطان فؤاد سعى الأمير عمر طوسون ، لم يرض عنه ، فلا يريد أن يشاركه فيه آخر . وكان عمر طوسون قد اتخذ خطوة ايجابية فى هذا الصدد بالعمل على استقطاب سعد زغلول الى جانبه ، وجاءه معترضا على انفرادهم بهذا العمل وطلب اليهم — (أن يقام اجتماع عام يشترك فيه جميع ذوى الرأى ، وهم الذين يقررون تأليف الوفد الذى يريدونه ، وخير الأمور أن تدعو الناس الى اجتماع يعقد بمنزلى بجزيرة بدران يوم ١٦ نوفمبر ، وان أقوم أنا بعمل الدعوة لهذا الغرض) .

وكان سعد — كما يقول العقاد(٥) — (يميل الىتقديمهفى هذا العمل ، لما له من المنزلة الرفيعة ، وما يحتاج اليه العمل من المـال الكثير .... الا أن المعارضة في رئاسة الأمير للوفد المطلوب كانت تقوى وتشتد فى جهات كثيرة ومنها القصر الملكى والوزارة ومنها أصحاب سعد جميعا بغير استثناء ... وكان أصحاب سعد يريدونها — كما قالوا — حركة شعب لا امارة وحركة استقلال لاخلافة) .

ولا نرى الا أن سعدا قد اخذ الامير على هواه — وهو على ماعرف عنه من فطنة وذكاء ، حتى يتبين التيارات العديدة التى تنوش الموقف ، ومالبث أن تبينه حتى سار فى تكوين الوفد المصرى ، كما يجب أن يكون ، وما قوى اليه تفكير ، منذ البداية ، وحسم السلطان فؤاد الموقف بأن طلب الى الأمير عمر طوسون أن يلزم داره فأطاع ، ولم يعـــد له دور ما فى الحركة الوطنية ، وما كان السلطـــان فؤاد ليرضى أن يشاركه من أمراء البيت العلوى مايعلو عليـــه أو يحجب سيادته للأسرة بين المصريين وبين أمراء البيت المالك نفسه . وان خلف لنا من الكتب والمخطوطات ماينم عن نزعته فى امتهــان المصريين كما كان جده الأعلى من قبل .

---

(٥) المصدر السابق ص ١٩٣ .

٢/١ ــ البدايــة

حين تولى المرحوم سعيد باشا ولاية مصر فى ١٤ شوال سنة ١٤٧٠ هجرية أصدر أمره بانتظام أولاد عمد البلاد ومشايخها فى سلك العسكرية حيث كان طلبى والحاقى بالعسكرية فى ١٥ ربيــع أول سنة ١٢٧١ هـ .

كانت تلك هى البداية ، ولعلها ضربة من ضربات القدر ، فلا أعتقد أنه فكر فى اقتحام هذا الميدان ، وما كان فى نشأته مايوحى باختياره هذا السبيل ، فقد بدأ تعليمه ــ ككل أبناء جيله ومن هم فى طبقته ، (فى المكتب الذى أنشأه والدى ، وفى الجامع الأزهر ... وقد تعلم فى ذلك المكتب كثير من أبناء بلدتنا حتى بلغ عدد المتعلمين فيها نحو نصفها)(١) .

ومضى عرابى فى مذكراته هذه يعدد أسماء المتعلمين الذين بدأوا تعليمهم فى هذا المكتب ، ونالوا شهرة واسعة فى الحياة وبرزوا فى أعمالهم التى اختاروها ومنهم ، كما يقول :

---

(١) مذكرات عرابى : الجزء الأول كتاب الهلال ص ١١ .

« العالم الأزهرى واللغوى الشهير الشيخ محمد حسين الراوى والطبيب الغطاسى عبد الرحمن بك الهراوى ، والكيمياوى الشهير عبد العزيز باشا الهراوى ، وكان والدى قد أمر بترتيب درس فقه فى المسجد الذى جدده للعامة ، بعد عصر كل يوم ، وبعد صلاة العشاء فتفقه عامة أهل البلد فى دينهم وصحت عبادتهم وحسن حالهم بفضل قيام المرحوم والدى على تعليم قومه وأهل بلده »(٢) ٠

ولم تكن مصر حينذاك ، ولا حتى قبيل ذلك ، قفرا من النابهين ممن ولجوا العديد من آفاق الفكر والأدب بل والتطلع الى مستقبل مرموق في ميدان ميسر لخدمة المجتمع الذى نشأوا فى رحابه ، أو الدولة التى تدير أمور بلدهم الكبير ، وان كان العمل فى الدولة أو بمعنى أدق فى الحكومة التى تديرها قد يكون أيسر سبيلا اذا مالمس العون ، أو لقى التشجيع ممن يحكمون ومن بأيديهم الأمور ، كما كان على مبارك حين يتولى أمرا فيسوقه الى مايرى من منفعة وطنه ومواطنيه ، أو رفاعة الطهطاوى حين ينهض بأمر معين فيصوغه الصياغة التى تجدى فى ميدان يحيط بأطرافه ، كما كان شأنه فى مدرسة الألسن وفى ميدان الترجمة والتأليف ٠

ولا ننسى فى هذا المضمار ، عبد الله النديم(٣) ، فهو نمط متميز فى جيله وفى عصره ــ (فاذا كان يستحق الاعجاب من نبغ ــ والظروف له مواتية ــ من أسرة عريقة فى المجد أو الغنى أو الجاه، ونحو ذلك مما ييسر للأبناء أن يتعلموا ، ثم يشقوا لهم طريق الحياة وطريق المجد ، فأولى بالاعجاب من ينبغ والظروف له معاكسة لا حسب ولا نسب ولا غنى ولاجاه ، بل ولا القوت الضرورى الذى يمكن الغنى من أن يجد له وقت فراغ يثقف فيه نفسه ٠

---

(٢) المرجع السابق ٠

(٣) **أحمد امين** : زعماء الاصلاح فى العصر الحديث : عبد الله النديم (١٢٦١ ــ ١٣١٣ هـ = ١٨٤٥ ــ ١٨٩٦م) ٠

صر اذن قفرا من النابهين ، ولكنها فى الواقع كانت
الصالح الذى يزن مصالح الشعب ، كما يزن مراميه
ت تلك آفة مصر منذ وليت أمورها الأسرة العلوية
نغنى بخيرها وتحرمه ابناءها ، وكان هذا ما أدركه
ابى ، وكان وراء برمه بها ، وأن تعود مصر لأبنائها ٠
كم محمد سعيد باشا ، وحكم اسماعيل ، وقد ظفر
- مابين حكم سعيد وحكم اسماعيل : فى رعاية مصر
اكان من محمد على فى نظرته لمصر والمصريين ٠٠
سماعيل من بعد ، بل كان حكم اسماعيل اشد مرارة
حكم محمد على ، بل واكثر فسادا ٠

، صور هذا الفساد الذى اســتشرى خــلال حكم
روى عن اسماعيل باشا صديق (المفتش) أيام كان
يو اسماعيل وصاحب النفوذ الأكبر فى دولته ، انه
ة سعرا يؤديه من يرغب فيها ، فكان على من يرغب
ين أن يؤدى الى جيبه الخاص من ١٠٠٠ الى ١٥٠٠
ائف نظار الأقسام فكان رشوتها من ٥٠٠ الى ٧٥٠
بدها الثراة من المصريين ما داموا يؤدون الجعل ـ
من الأميين الذين يجهلون القراءة والكتابة ـ فرصة
تلك الوظائف التى كانت حرما عليهم حتى كان بين
هل القراءة والكتابة(٥) ٠

! ما يعلل ازدياد نسبة المصريين فى وظائف المديرين
، سنة ١٨٦٩ ، وقت أن كان اسماعيل صديق فى أوج

---

٠ أمين باشا سامى : تقويم النيل وعصر اسماعيل باشــا
الجزء الثالث ص ١٤٥٢ ٠

سلطانه ، عنها فى أية سنة أخرى ، وخاصة بعد سنة ١٨٧٦ ، حين لقى مصرعه ، فقد كان اسماعيل صديق فى الأصل مصريا وفلاحا · فآثر بنى جلدته ـ كما قيل ـ بالمناصب وان اقتضاهم الثمن ، فليس فى قرارة نفسه ما يحمله على جفوة أبناء جلدته أو التعصب للترك ، أو حتى لصاحب السلطان ، وكان عاملا قويا فى نمو تلك الطبقة من المصريين الذين برزوا فى عصر اسماعيل ·

ولعل هذا ـ كما نعتقد ـ مما حمل الخديو اسـماعيل على الغدر به بعد ذلك ، ومايروى فى هذا الصدد :

(انه بعد انصراف كبار الموظفين من تشريفة عيد من الأعياد قال سمو الخديو : انى مسرور لمشاهدتى معظم المديرين من ذوى اللون الأسمر المصرى البحت) ·

ومما يؤيد ذلك أن تلك الظاهرة قد اختفت فى السنوات الأخيرة من حكم اسماعيل ، وما كان أسماعيل صديق (المفتش) ليصل الى ما وصل اليه من جاه ونفوذ ، وهو الفلاح المصرى ، لولا صـلة الطفولة التى ربطت بينه وبين الخديو اسماعيل ، فقد كان أخا له فى الرضاع · ونشأ فى حاشيته ، وما كان الخديو ليفطن انه سيخرج على الكيان الذى نشأ فى أحضانه ، وغاب عن الخديو أنه فى جشعه وفساده لم يخرج على ما كان عليه الخديو اسماعيل نفسه ، وحمل اسماعيل المفتش من آثام خديويه ، ما حمل ، فلم يرحمه المؤرخون ، وان مضوا فى القسوة به ما مضوا فى اعلاء ذكر اسماعيل والتنويه بمآثره من مؤرخى الأسرة العلوية ، خشية منها أو تقربا اليها ·

وفى هذا الصدد ما كتبه أمين باشا سامى فى اسماعيل صديق ما نصه :

« وبذلك صار اسماعيل صديق باشا المعين فى الحقيقة بكل مدير ووكيل مديرية ومحافظ ووكيل محافظة ومأمور وناظر قسم ، وبذلك صار الكل محاسيبه يفعمون جيوبه بالمال الذى يعصرونه من جسم الفلاح ليستبقوا لأنفسهم رضاه عنهم » ·

ويمضى أمين باشا سامى فى تعداد ما كان من ثروة اسماعيل باشا المفتش ـ أو اسماعيل صديق ـ كما عرف ، بما يفوق الخيال ، ويفوق (ما كان منها لدى أى أمير مصرى ·· ولقد نفد صبر الجميع من استمرار ابتسام الدنيا كل ذلك الابتسام لمن كان ابن فلاح وصعلوك الأصل ··)

فاذا جاء الى ذكر جواريه يقول :

« وأما الجوارى فكن يزدن على سبعمائة جارية شركسية بيضاء ذات ثمن يفوق كل تقدير ، وخمرية مسكرة ، وسمراء غاتبة ، وحبشية شقرية ذات أعين بقرية ، وبرنزية موشومة ذات نهود سفرجلية وسودانية فحماء متقدة الدم الهائج » ·

وقد لا نرى فى هذا الوصف الا صورة للتخريف التاريخى ، فلا أرى منه الا أكذوبة كبرى ، حتى ليعن لى أحيانا أن أدعوه ـ أكذوبة عصره ، أو أكذوبة كل العصور ، فلا تحكم على الحدث التاريخى الا بنتائجه وما يترتب عليه ، فاذا عدا ذلك أصبح مسلاة أو ملهاة تفتقد جوهر الارتقاء والتقدم فى تاريخ الحضارة والتطور الانسانى ·

ولم يكن الغدر باسماعيل باشا صديق ، أو اسماعيل المفتش ـ كما كان يدعى لما نسب اليه من سفه وتبذير ـ كما يدعى ـ أمين

باشا سامى ، فقد كان الخديو اسماعيل اكثر منه سفها وتبذيرا ، ولكنه خرج على سياسة اسماعيل الخديو حين نبذ سياسة سعيد ، وعاد الى سياسة جده الأعلى محمد على فى ايثاره الترك والجركس على المصريين ، واذا كان قد استعان ببعض المصريين فى المناصب الادارية ـ كما كان شأن محمد على ، فانه قد حال دون ترقياتهم فى السلك العسكرى بما لايدع لهم ثمة سلطان عليه ، كما حال بينهم وبين ملكية الأراضى وكانت اكثر (انعـــاميات) الأراضى للعناصر التركية فى الحاشية الخديوية وفى صفوف الجيش ، وكان هو نفسه شرها الى الأرض فعمل على زيادة املاكه منها حتى بلغت بعد سبعة عشر عاما من حكمه ٩٥٠ الف فدان مقسمة الى ٥١ دائرة، ولم يكن يملك فى بداية حكمه غير ١٥ الف فدان شانه فى ذلك شأن بقية الأمراء الآخرين وأباح حق التملك للأجانب ولم يكن للمصريين قبل بمنافسة الأجانب على حيازة الأرض وتملكها ، لولا أن الأجانب كانوا اميل الى استثمار اموالهم فى غير الزراعة ، وحين سمح بحق التمليك الكامل لبعض أنواع الأراضى كالعشور والأواسى ـ جمع وسية ـ كان ذلك تحت ضغط الحاجة الى المال ، فأصـــدر قانون المقابلة عام ١٨٧١ ، ويقضى بتحصيل ضرائب الأطيان لمدة ســت سنوات مقدما وحتى يشجع الأهالى على الأداء أباح لهم الملكية الكاملة لهذه الأنواع من الأراضى ٠

ولعل سعيدا كان يصدر عن نية طيبة ـ كما يرى عرابى ـ عندما سمح بترقية الضباط والجنود من المصريين الى مراكز القيادة فى الجيش ، ففى ست سنوات (ما بين سنة ١٨٥٤ وسنة ١٨٦٠) تدرج عرابى فى السلك العسكرى من نفر مجند الى رتبة القائمقام (عقيد) ومثله فى هذا بطلا الثورة العرابية ، ورفيقاه فيها ، على باشا فهمى الديب ، وعبد العال باشا حلمى فقد تدرجا بدورهما من تحت السلاح الى أرقى المناصب العسكرية ٠٠

ولم يشجع اسماعيل هذه السنة التى استنها سعيد بترقية المصريين فى السلك العسكرى ، فبقى أحمد عرابى فى رتبة القائمقام (عقيد) تسعة عشر عاما ، ولم يرق الى الرتبة التالية الا فى عهد توفيق ، وكان شـــفيعه فى هذه الترقية ، أن زوجه كانت أختا فى الرضاع للأميرة أمينة الهامى زوجة توفيق وبقيت عناصر الجركس هى الغالبة فى القيادات العليا مما كان سببا فى تحرك المصريين ضد التفرقة بينهم وبين زملائهم من الجركس والأرناؤود ، وكانت شرارة الثورة العسكرية التى تحولت الىثورة قومية شعارها(مصر للمصريين) بزعامة أحمد عرابى الفلاح المصـــرى ، وكان حرص قادة الثورة من الضباط على الحاق صفة مصرى بأسمائهم للدلالة على هذا الاتجاه وتأكيده ٠

فاذا كان سعيد قد شذ عن تلك السياسة المقررة فى أسرة محمد على ، فقد اتهمه أفراد الأسرة بالغفلة والبله وما كان فيهم من يحبه أو يؤثره بمحمدة كالتى آثره عرابى بها ٠

ولم يكن غدر الخديو اسماعيل بأخيه فى الرضاع وصـــفيه وموضع تقديره وثقته اسماعيل باشا المفتش الا لأنه رآه قد حشد المناصب الهامة فى الدولة بمن يدفع الثمن من المصريين ، وتختفى تلك الظاهرة باختفائه فى مأساة أشبه بالملاحم المروعة ، فلا نرى بين المديرين عام ١٨٧٩ مصريا واحدا ، أو من يلى منصبا أثيرا الا من لاذ بكنف الحاكم ٠٠

(ولامراء فى أن اسماعيل ـ كما يقول الرافعى(٦) ـ كان يميز الضباط والرؤساء الشراكسة والترك على الوطنيين فى المعاملة

---

(٦) عبد الرحمن الرافعى بك : الزعيم احمد عرابى ـ كتاب الهلال العدد ١٠ مارس ١٩٥٢ ـ جماد آخر ١٣٧١ ص ١٦ ويلاحظ أن كتابه هذا قد صدر فى أواخر عهد الملكية ، وقبل قيام الجيش بحركته فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ٠

برغم مابدا منهم من العجز والجهل وعدم الكفاية ، مما ظهر اثره جليا فى الهزائم التى حاقت بالجيش سنة ١٨٧٥ ـ ١٨٧٦ فى حرب الحبشة ، وعلى ماكان لهذه الهزائم من أسوأ الأثر ، فان اسماعيل لم يحاسب أولئك القواد والضباط على ما وقع منهم من الاهمال والتقصير ، وقيل انه اعتزم محاكمة راتب باشا قائد هذه الحملة ، ولكنه مالبث أن رجع عن ذلك .. فقربه اليه وجعله من خاصة بطانته .. وهذا يدلك على شديد ميله الى تلك الفئة ، فكانت لها الحظوة لديه ، ثم لدى الخديو توفيق ، ولو ظلت روح المساواةالتى بثها سعيد فى الجيش سائدة فى عهد اسماعيل وتوفيق ، لما قامت الثورة العرابية ، لأن عرابى وصحبه لم يثوروا الا حين طفح الكيل من محاباة ، أمثال عثمان باشا رفقى للترك والشراكسة ، واضطهادهم للضباط الوطنيين . فعرابى وصحبه كانوا على حق فى المرحلة الأولى من الثورة ، لأن الطبيعة البشرية مفطورة على كراهية الظلم والاضطهاد ، ومن صفات النفس الانسانية الثورة على المظالم ، ولم تكن المظالم التى يشكو منها الضباط الوطنيون مقصورة على حرمانهم حقوقهم فى الترقى ، بل كانوا كذلك هدفا لأشد ضروب العنف والارهاق ، اذ كان يكفى أن تلصق بأحد منهم تهمة ما ، ولولم تكن صحيحة ، ليكون جزاؤه أن تنزع منه درجته أو يقصى عن منصبه ، أو ينفى الى اقاصى السودان وتصبح حياته عرضة للخطر لأوهى الأسباب) .

(فالثورة العرابية كانت ثورة دفاع عن الحق ، ودفاع عن الحياة ، وليس من ينكر ما كان عليه معظم الرؤساء الشراكسة والترك والأرناؤود من الغلظة والغطرسة ، والزهو والخيلاء والزراية بالوطنيين ، فان هذه النزعات كانت فاشية فيهم لا فى مصر وحدها بل فى سائر بلاد السلطنة العثمانية القديمة ، اذ كان العرب يعانون سوء معاملة الترك لهم واضطهادهم أياهم ، وكانت هذه المعاملة من

أسباب قيام الفتن والثورات فى السلطنة العثمانية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى) ..

(ومادمنا فى صدد الأسباب المباشرة للثورة فلا جدال فى أن ظهور أحمد عرابى ، كان فى مقدمة هاتيك الأسباب ، فهو الذى بث فى نفوس الضباط روح التضامن والاتحاد للمطالبة بحقوقهم المهضومة ، وتقدم الصفوف لعرض مطالبهم جهارا على ولاة الأمور، وكانت هذه المطالب فاتحة الثورة ، فهذه الجرأة كان لها أثر كبير فى ظهور الثورة ، ولو لم يظهر عرابى ، ولو لم تكن له تلك الشخصية التى اجتذبت اليه صفوف الضباط ، وبثت فيهم روح التضامن والاقدام ، لكان محتملا ألا تظهر الثورة العرابية ، أو لظهرت فى زمن آخر ، وفى ظروف وملابسات أخرى غير التى ظهرت فيها) .

وكانت الساحة فى مصر وفى غيرها من بلدان الدولة العثمانية قد أخذت تموج بشتى التيارات لعل أولاها بالتنويه والاعتبار ما كان من جولة جمال الدين الأفغانى ، وما حفل به العالم الاسلامى حينذاك من دعوات الاصلاح والتجديد كحركة محمد بن عبد الوهاب فى نجد ، والشوكانى فى اليمن ، والسنوسية ، وقد اختار السيد محمد بن على السنوسى برقة لتكون مقرا لدعوته وامارته ، وأقام زواياها بحيث يسهل الدفاع عنها ..

وكانت حركة الاحياء الدينى فى القرن الثامن عشر خير تمهيد لليقظة الاسلامية فى القرن التاسع عشر ، وتمثلت اليقظة الاسلامية فى ناحيتين نهضة دينية ونهضة دنيوية ، وقد تمثل الناحيتين حكيم الاسلام وفيلسوفه الكبير السيد جمال الدين الأفغانى ، وحين نزح

---

(٧) **عبد الرحمن الرافعى بك :** عصر أسماعيل الجزء الثانى ص ١٦١ بعنوان . جمال الدين والثورة العرابية .

الى مصر واتخذها مقرا لدعوته كان نبته فيها أزلى نبت فى بلد من بلاد الاسلام وكان من مريديه وتلاميذه محمد عبده ، وسعد زغلول ، وعبد الكريم سلمان ، واللقانى وابراهيم الهلباوى ، وكان لهؤلاء جميعا أثر مبارك فى النهضة المصرية الحديثة الدينية والدنيوية ٠

وبقدر ما كان من حفاوة توفيق بالأفغانى قبل أن يلى الحكم خلفا لاسماعيل ، بقدر ما كان من غدره به ، وابعاده عن مصر فى أسوأ صورة ـ أو على حد قول الرافعى(٧) : (كان نفيه غاية فى القسوة والغدر ، اذ قبض عليه ليلة الأحد سادس رمضان سنة ١٢٩٦ ـ ٢٤ أغسطس سنة ١٨٧٩ ـ وهو ذاهب الى بيته هو وخادمه ـ أبو تراب ـ وحجز فى الضبطية ، ولم يمكن حتى من أخذ ثيابه ، وحمل فى الصباح فى عربة مقفلة الى محطة السكة الحديدية، ومنها نقل تحت المراقبة الشديدة الى السويس ، وأنزل منها الى باخرة ، فى صبيحة الثلاثاء ٨ رمضان سنة ١٢٩٦ ـ ٢٦ أغسطس سنة ١٨٧٩ ، أقلته الى الهند ، وسارت به الى بمباى ، ولم تتورع الحكومة عن نشر بلاغ رسمى من ادارة المطبوعات بتاريخ ٨ رمضان سنة ١٢٩٦ ، ذكرت فيه نفى السيد بعبارات جارحة ، ملؤها الكذب والافتراء ، مما لا يجدر بحكومة تشعر بشىء من الكرامة والحياء أن تسف اليه ، فهى قد نسبت اليه السعى فى الأرض بالفساد ، ويعلم الله أنه لم يكن يسعى الا الى يقظة الأمة وتحريرها من ربقة الذل والعبودية ، وذكرت عنه أنه ـ رئيس جمعية سرية من الشبان ذوى الطيش مجتمعة على فساد الدين والدنيا ـ وحذرت الناس من الاتصال بهذه الجمعية ، ومن المؤلم حقا أن يتقرر النفى ويصدر مثل هذا البلاغ من حكومة يرأسها الخديو توفيق باشا ، وهو على مانعلم من سابق تقديره للسيد ، ومن وزرائها محمود باشا سامى البارودى،

---

(٧) عبد الرحمن الرافعى : عصر اسماعيل الجزء الثانى ص ١٦١ بعنوان : جمال الدين والثورة العرابية ٠

ناظر الأوقاف وقتئذ ، وقد كان من أصدق مريديه وأنصاره ، فتأمل كيف يتنكر الأنصار والأصدقاء لاستاذهم ، والى أى حد يضـــيع الوفاء بين الناس !! ولاندرى كيف أصاغ البارودى نفى السيد جمال الدين الأفغانى واشترك فى احتمال تبعته ، واذا لم يكن موافقا على هذا العمل المنكر فلم لم يستقل من الوزارة ، احتجاجا واستنكارا ؟ لاشك أن موقف البارودى فى هذه الحادثة لايمكن تسويغه أو الدفاع عنه بأى حال ٠٠ وأقام بحيدر أباد الدكن وهناك كتب رسالته فى الرد على الدهريين ، والزمته الحكومة البريطانية بالبقاء فى الهند حتى انقضى أمر الثورة العرابية) ٠

وقد يكون فى هذا الحكم الذى ساقه الرافعى بعض القسوة ، ولعل من التفاصيل ماغاب عنه ، فلا يعسر فى مثل هذا الحكومات المطلقة ان تخفى ما تلجأ اليه عن بعض المشاركين فيها ، فلا نرى اية اشارة لهذا منه أو ممن تناولوا سيرته ويبدو أن الأمر صدر من الخديو توفيق مباشرة دون موافقة مجلس الوزراء ، وحتى دون علمه ، وغالبا ميعزف المسئولون عن قراءة ما تنشره الجرائد الرسمية ، وكان محمود سامى البارودى أول الضالعين فى ثورة عرابى ، أما فى ذلك التاريخ الذى نفى فيــه جمال الدين الأفغانى وأبعد عن مصر لم تكن الحركة العرابية قد بدأت ، ولم يكن ثمة تجمع للضباط يوحى بالتمرد أو الخروج على سياسة الحكم وان كان البرم به يوحى بما يمكن أن يحدث ٠٠ وقد حدث فى وزارة نوبار (١٨ فبراير سنة ١٨٧٩) وفى أول يوم من ولايتها أنه قام (نحو ستمائة ضابط برئاسة البكباشى لطيف بك (باشا) أحد كبار أساتذة المدرسة الحربية ـ وصفه الرافعى ـ (بأنه ضابط اشتهر بالشجاعة والكفاءة واســـتقلال الفكر ٠٠ فلما اقترب المتظاهرون من وزارة الخارجية لمحوا نوبار باشا خارجا منها راكبا عربته ،فلم يكادوا يبصرونه حتى أحاطوا بالعربة من كل صوب ٠٠ وهجموا على نوبار

وأمسكوا بتلابيبه وطرحوه أرضا واعتدوا عليه بالضرب ·· واقتحم الضباط أبواب الوزارة واحتلوا غرفها وقاعاتها وحبسوا نوبار ورياض والسير ريفرى ويلسون فى احدى غرف الدور الأعلى ، وصار الموظفون الأجانب الذين بالوزارة تحت رحمة الثوار) ·

(فلما اشتدت الحال وتراعى نبأ ماحدث الى قناصل الدول ذهب قنصل انجلترا العام توا الى السراى حيث قابل الخديو وأنهى اليه نبأ الهيجان وطلب اليه التدخل ، فابتهج اسماعيل فى سريرة نفسه من هذا الطلب ، لأن فيه معنى الالتجاء الى سلطته ، لأنقاذ الوزارة واعادة الأمن الى نصابه ·· بادر اسماعيل ·· وذهب الى موطن الهياج ، فلما شاهده المتاظرون استشعروا الهيبة التى له فى النفوس ، فهتفوا له وأفسحوا له الطريق ·· وسكنت ثائرة معظم الضباط ·· وأطلق سراح الوزراء المحبوسين ، وأمر الخديو بحراستهم الى منازلهم ، وانتهت المظاهرة بسلام وعاد الخديو الى سراى عابدين) ·

ويناقش الرافعى ماشاع من أن هذه المظاهرة من تدبير الخديو اسماعيل ، وينفيها رغم أن من قاموا بها لم يكن لهم أثر من بعد فى أحداث الثورة العرابية ·· ولعله فى تعاطفه مع القائم بها — البكباشى لطيف بك سليم مايحمله على ابعاد أية شبهة عن تواطئه مع الخديو اسماعيل ، فهو — كما يقول — (من أكبر نصراء المرحوم مصطفى كامل باشا فى الحركة الوطنية الحديثة ، وهو والد صديقنا الوطنى الكبير فؤاد بك سليم)[8] ·

ويرى عرابى[9] : (أن المظاهرة كانت من تدبير اسماعيل

---

(٨) **الرافعى** : عصر اسماعيل الجزء الثانى ص ٢٠٣ وهامش نفس الصفحة ·

(٩) مذكرات : الجزء الأول ص ٤٠ ·

وصنعه ليتخلص من الوزارة النوبارية ·· فأوعز الى جاهين باشا كنج ـ صنيعته المشهور ـ بخلق تلك الحركة الصبيانية ، وهذا حمل صهر لطيف بك سليم الضابط بالمدرسة الحربية على أخذ التلاميذ والذهاب الى المالية بمن ينضـــم اليهم من الغوغاء ، فيصـــيحوا متظاهرين بالتظلم من عدم صرف مرتباتهم المتأخرة من عشرة أشهر، وينسبوا ذلك التأخير الى الوزارة المذكورة ، ويطالبوا بسقوطها ··

ولعل اسماعيل كان يدرك تماما ويعلم مسلك عرابى وصحبه منهم لما نالهم من جيف على يديه ، فابتدرها سانحة للبطش بهم ·· وكان أن (طلبنا رئيس التشريفات عبد القادر باشا ، وأخبرنا بأن الخديو علم بأننا هيجنا التلاميذ والضباط وأغويناهم على الأحاطة بالمالية ، وأنه سيجرى تحقيق ذلك) ·

ويبدو أن ادعاء اسماعيل قد وجد أذنا صاغية ، لاسيما ، وأن تدبيرها كان باتفاق مباشر بين صنيعته جاهين باشا كنج ، وصهرد لطيف بك سليم ، ولم يكن عرابى فى تلك الآونة بالقاهرة ، وقدم اليهـا اليوم الســـابق على وقوعها ـ (فكيف يتصـــور منصف ـ كما يقول عرابى ـ اننا نستطيع اهاجة تلاميذ الحربية ، وغيرهم على ذلك العمـل الخـــارج عن حـــدود الحكمة والروية فى ليلة واحدة) ·

ويقول عرابى : (لما تخلص الخديو اسماعيل من ضغط الوزارة المختلطة خشى تعصب أوربا عليه ، وانتقامها منه ، فأسند تلك الألعوبة الصبيانية الى والى محمد بك النادى ، وعلى بك الروبى من أمراء الجيش ، وقد طلبنا رئيس التشريفات عبد القادر باشا حلمى وأخبرنا بأن الخديو علم بأننا هيجنا التلاميذ والضـــباط وأغويناهم على الاحاطة بالمالية وانه سيجرى تحقيق ذلك ، فان ثبتت ادانتنا عوقبنا

بالعقاب الواجب ، وكذلك طلبنا مأمور الضبطية محمود سامى باشا البارودى ، وأخبرنا بما أخبرنا به عبد القادر باشا حلمى ، فأجبناه بمثل ما أجبنا به من قبل ، وانصرفنا ، وقد آنست فيه تأففا من الظلم الاستبداد وميلا مع العدل والدستور) ٠

ولعلها كانت البادرة الأولى لاتجاه البارودى الى مناصــــرة الثورة العرابية والوقوف الى جانبها ، فان الحركة العرابية لم تكن قد أسفرت بعد عن اتجاهها القومى ، وان (مصر للمصريين) الا بعد أن لمست تأييد الشعب ومناصرته ، مما سيأتى تفصيله فيما بعد ٠

١/٣ ـ عـود على بدء

« أيها الاخوان · انى نظرت فى أحوال هـذا الشعب المصرى، من حيث التاريخ ، فوجدته مظلوما مستعبدا لغيره من أمم الأرض ، فقد توالت عليه دول ظالمة كثيرة كالهكسوس والأشوريين والفرس ، حتى أهل ليبيا والسودان واليونان والرومان ، هذا قبل الاسلام ، وبعده تقلب على هذه البلاد كثير من الدول الفاتحة كالأمويين ، والعباسيين والفاطميين من العرب والترك والأكراد ، والشركس ، وكثيرا ما أغارت فرنسا عليها حتى احتلتها فى أوائل هذا القرن فى زمن بونابرت ، وحيث أنى أعتبر نفسى مصريا ، فوجب على أن أربى هذا الشعب ، وأهذبه تهذيبا حتى أجعله صالحا لأن يخدم بلاده خدمة صالحة نافعة ويستغنى بنفسه عن الأجانب ، وقد وطدت نفسى على ابراز هذا الرأى من الفكر الى العمل(١) »

(١) الجزء الأول ص ١٥ ـ كتاب الهلال العدد ٢٣ جمادى الأولى ١٣٧٢ ـ فبراير ١٩٥٣ ·

كانت تلك هى الخطبة التى ألقاها محمد سعيد باشا ـ كما يقول عرابى فى مذكراته ـ فى مأدبة أدبها بقصـــر النيل للعلماء والرؤساء الروحانيين وأعضـــاء العائلة الحاكمة ، وأعاظم رجال الحكومة ملكيين وعسكريين بعد تناول الطعام فى سرادق كبير ٠

(فلما انتهت الخطبة خرج المدعوون من الأمراء والعظمـــاء غاضبين حانقين مدهوشين مما سمعوا ، وأما المصريون فخرجوا ووجوههم تتهلل فرحا واستبشارا ، وأما أنا فاعتبرت هذه الخطبة أول حجر فى أساس نظام ـ مصر للمصريين ـ) ٠

ومحمد سعيد هو ابن محمد على الكبير ، الذى ولد فى مصر، وكان مولده فى الاسكندرية عام ١٨٢٢ م ـ ١٢٣٧ هـ ، ولعل تفرده بذلك من بين أبناء محمد على ما حببها اليه ، وكان موضع رعاية وحرص على تنشئته عقلا وبدنا فكان يرعى مأكله وملبسه وتعليمه وسلوكه ، وكتب اليه مرة يقول ، وكان قد بلغ الرابعة عشر من سنه ، يقول : (قد وصل الى علمى نبأ عدم التفاتك الى دروســـك وميلك للراحة والرقاد ، وميلك لمصاحبة القبودانات القديمة الذين لا يدرون شيئا من الآداب ، وترك مجالسة من يكتسب منهم مسلك الانسانية ، وقد سبق ونبهنا عليك بدوام الانتباه للمدرس ، والســـير بالمشى والحركة لعدم حصول السمن(٢) ، والواجب عليك الأئتلاف بمن لهم معرفة بالأصول الجديدة العارفين بالحاكم ، والوقت ، والاهتمام فى تعلم الأصول منهم حتى لايقال أن ابن محمد على سىء الخلق ، وان هذا السير ليس سير الآدميين ، فلا تغير نشأتك الأصلية كما سبق النصح لك ، وتعظم كبرائك والتزام التواضع مصـــداقا للحكـم والأحـــاديث ، وتسعى فيما يكون له علو شأنك ويمنه تعالى ،

---

(٢) السمن أى البدانة ٠

سأحضر الى الاسكندرية لامتحانك أمام أحد المدرسين ، فاذا ظهر عدم الالتفات للمدرس ، وعدم ازالتك ثقل جسمك وعدم الاجتماع على عادمى الأدب ، والاقتداء بفارس أفندى المدرس بالتطبع بأخلاقه لاتصافه بحسنها ، وعدم تناول الطعـــام بالنسبـــة لاستنكافه ، استعمال الشوكة والسكين لأنه صوفى ، فيلزم الاصغاء لهذه وترك ما أنت عليه ، والميل والرغبة الى التواضع لتكون مقبولا عند والدك وعند الناس فضلا عن علو شأنك) .

ولد محمد سعيد فى مصر ونشأ فيها ،وكانت الاسكندرية ملاذه ورحابه وقيل انه كان يألف الأطعمة الدسمة التى حرمها عليه أبوه ، وكان يجدها فى بيت صديقه ـ مانيمودى دى لسبس نائب القنصل الفرنسى ، وأصبح دى لسبس من بعد صديق عمره فى الاسكندرية وباريس ، وكان لذلك أثره فى منحه امتياز شق قناة السويس ، واستهل حكمه بتلك المأثرة التاريخية لا فى مصر وحدها بل فى العالم أجمع حين أجاز وصل البحرين الأبيض والأحمر ، وكان فيه لمصر ميزة كبرى أضاعها الخديو اسماعيل بسفهه وتبذيره وفرض السخرة على المصريين فى حفرها وان كان سعيد قد أهدى البشـــرية قناة السويس الا أن ذلك كان على حساب مصر والشعب المصرى البائس ، حين قام اسماعيل من بعد ببيع أسهم القناة الى انجلترا فى صفقة خاســـــرة .

ولعل أمجد ما قام به سعيد اصدار « اللائحة السعيدية» فى ٥ أغسطس ١٨٥٨ التى أباحت الملكية الخاصة للأطيان وحـــرية التصرف فيها بالبيع والرهن ، وأعفت الفلاحين من المتأخرات التى كانت عليهم وقدرت حينذاك بثمانمائة ألف من الجنيهات .. فأقبل المصريون على حيازة الأرض واقتنائها ، وبدأت تتكون طبقة من كبار الملاك ، وسرعان ما أخذت تنافس طبقة الذوات التركية ثراءها

وان قصرت عن أن نافسها الجاه والسلطان ، ولم تكن اللائحة السعيدية ، وما قررته من حق الملكية الخاصة للفلاح هى وحدها العامل الأول فى نشأة طبقة الأعيان المصريين فان الفلاح ظل فى شك من نوايا الحكومة قبله فلم يقبل على حيازة الأرض اقبالا يوحى بنشأة طبقة مالكة من الفلاحين ، وصرح فى العام التالى لاصدار اللائحة السعيدية لمن يرغب منهم فى ترك أطيان من أطيانه للميرى وظل هذا التصريح ساريا حتى ألغى عام ١٨٦٥ ، فقد وقر فى ذهن الفلاحين لكثرة ما نالهم من عنت الحكم وعسفه وأحابيله التى يبتدعها لابتزاز الاموال ، أنه لا يصدر فى أمر الا لمصلحته وحدها دون مصلحتهم ، ولكن الخطوات الأخرى التى خطاها سعيد لمصلحة المصريين ، وضعت بذرة قوية لنشأة تلك الطبقة الصميمة من الأعيان المصريين ، فقد عمل على أن يشرك المصريين فى المناصب الادارية بنسبة الثلث منهم ، والثلثين من الأتراك ، وذلك فى وظائف حكام الاخطاط ، ونظار الأقسام بعد أن كانت تلك المناصب كغيرها من المناصب الادارية الاخرى ووقفا على الاتراك وحدهم ، وبدأ بتنفيذ ذلك فى مديرية الدقلهية ثم فى باقى المديريات(٣) ٠

وجاء اسماعيل فهدم كل ما كان رأسا على عقب مما أدى الى الثورة العرابية فى النهاية ، فلم يشجع المصريين على ملكية الأرض وكانت أكثر (انعاميات) الأراضى للعناصر التركية فى الحاشية الخديوية وفى صفوف الجيش ، وكان هو نفسه شرها الى امتلاك الأرض فعمل على زيادة املاكه منها حتى بلغت بعد سبعة عشر عاما من حكمه ٩٥٠ ألف فدان مقسمة الى ٥١ دائرة ولم يكن يمتلك فى بداية حكمه غير ١٥ ألف فدان ٠٠ وهى التى عرفت باسم

---

(٣) أمين سامى باشا : تقويم النيل ، المجلد الأول من الجزء الثالث ص ١٨٩ ٠

(الدائرة السنية) ولم يجن اسماعيل فى النهاية غير قبض الريح فكانت النهاية ، حين استجاب الباب العالى للضغط الأوربى (انجلترا وفرنسا) وكانت برقيته الى اسماعيل فى السادس والعشرين من شهر يونيو تعلنه فيه بخلعه وتولية أبنه محمد توفيق باشا(٤) ٠

وكان نص البرقية ، كما يلى :

(ان الصعوبات الداخلية والخارجية التى وقعت أخيرا فى مصـــر قد بلغت من خطورة الشـــأن حدا يؤدى استمراره الى ايجاد المشاكل والمخاطر لمصر والسلطة العثمانية ، ولما كان الباب العالى يرى أن توفير أسباب الراحة والطمأنينة للأهلين من أهم واجباته ومما يقضى به الفرمان الذى خولكم حكم مصر ، ولما تبين أن بقاءكم فى الحكم يزيد المصاعب الحالية فقد أصـــدر جلالة السلطان ارادته بناء على قرار مجلس الوزراء ، باسناد منصب الخديوية فى مصر الى صاحب السمو توفيق باشا ، وأرسلت الادارة السنية تلغراف آخر الى سموه بتنصيبه خديويا لمصر ، وعليه أدعو سموكم عند تسلمكم هذه الرســـالة الى التخلى عن حكم مصـــر احتراما للفرمان السلطانى) ٠

(وفى يوم الاثنين ٣٠ يونيو غادر اسماعيل باشا أرض مصر على ظهر الباخرة المحروسة ــ وهى الباخرة التى غادر مصر على ظهرها الملك فاروق آخر ملوك أســـرة محمد على فى ٢٦ يوليو ١٩٥٢ ــ (٥) ٠ وتحوى كتب التاريخ الكثير من التفصيلات عن هذه

---

(٤) أحمد حسين : موسوعة تاريخ مصر : الفصل التاسع عشر ــ عهد الخديو اسماعيل ٠٠ أو عهد المتناقضات ص ١٠٥٠ ٠

(٥) احمد حسين : المصدر السابق ص ١٠٥٠ ٠

الأيام الأخيرة لحكم اسماعيل ، والأموال والمجوهرات التى اصطحبها معه عند سفره ، وكيفية وداعه لابنه ووصاياه له) ٠

ويعلق طيب الذكر والأثر الأستاذ أحمد حسين على ما كان بقوله :

(وقد كنا نحب أن نقول كلمة عطف أو انصاف للخديو اسماعيل ، كما فعلنا مع سعيد باشا ، كنا نحب أن نقف أمام مشروعاته لزيادة أراضى مصر الزراعية كل هذه الزيادة وانشائه المصانع وقفة اكبار ، ولكن يحـــول بيننا وبين ذلك أن اسماعيل كجده محمد على باشا من قبل قد فعل كل ذلك باعتباره يعمل فى مزرعته الخاصة ولم ينظر الى الشعب المصرى ، الا باعتباره قطيعا يعمل لخدمة أغراضه ٠٠ وعندما كان اسماعيل يغادر البلاد لم تكن وصيته لابنه توفيق — اذا صح ما نقل لنا عنها — وصية حاكم لحاكم يخلفه فى الحكم فيطلب منه البر بالشعب والأمة ، بل وصية رجل يترك ضيعةلابنهويطلب منه البر بأخوته وأفراد أسرته حيث قال :

لقد اقتضت ارادة سلطاننا المعظم أن تكون يا أعز البنين خديو مصر ، فأوصيك بأخوتك وسائر الآل برا ، وأعلم أنى مسافر وبودى لو استطعت قبل ذلك أن أزيل بعض المصاعب التى أخاف أن توجب لك بعض الارتباك، على أنى واثق بحزمك وعزمك فاتبع رأى ذوى شوراك وكن أسعد من أبيك) ٠

(وحتى لو فرضنا — كما يقول الأستاذ أحمد حسين فى تعليقه — أن هـــذه الوصية ليست صحيحة بهذا الوجه ، يبقى اسراف

اسماعيل على شهواته وملذاته وقصوره وحفلاته وبيعه لهم قناة السويس ، واغراقه مصر فى الديون ليلقى ظلا كئيبا على انجازاته الأخرى ·· الا أننا لا نستطيع أن نقول كلمة عطف على اسماعيل كتلك التى قلناها عن سعيد باشا الذى أحب مصر وأحب الشعب المصرى وبذل كل جهده لاسعاد الفلاح المصرى والارتقاء به) ·

ويعرض عرابى بدوره لخلع اسماعيل ورحيله عن مصر (حيث أقلته الباخرة المحروسة الى ـ نابولى بايطاليا ـ ويضيف ـ وكانت معه أوراق مالية ـ بون ـ بمبلغ ثلاثة عشر مليونا من الجنيهات ، كما صرح بذلك ابنه الخديو توفيق بحضورى وحضور خيرى باشا رئيس الديوان الخديو ، والشيخ عبد الرحمن الأبيارى أمام المعية فى أثناء تناول طعام الافطار على المائدة الخديوية فى شهر رمضان سنة ١٢٩٦ · اذ قال :

ـ ياليته ترك للحكومة ولو ستة ملايين لاصلاح شأنها ـ

(ولما وصل الخديو اسماعيل المعزول الى محطة مصر ، وقف توفيق مودعا والده وعيناه مغرورقتان ، فعانقه والده ثم قال له : (ويكرر ماجاء من قبل مما دونه الأستاذ أحمد حسين) ويضيف : (ثم سار القطار الخصوصى حتى وصل الى الاسكندرية ، ثم ركب الزورق المعد له وتبعته زوارق المشيعين الى أن صعد فوق السفينة المحروسة ، وهنا نظر الى الثغر نظرة المودع الآسف فغلبه الدمع فبكى وأبكى كل من كان معه من أنجاله وآل بيته) ·

ومما يجب أن أقوله فى صدد رحيل الملك فاروق حين عزله ـ بحكم صلتى بالثورة ، أو حركة الجيش ـ كما أحب أن أدعوها ـ حينذاك ، أن الملك رغب أن يصحب معه تابعه ـ بوللى ـ فلم يسمح له · وكان بوللى هو الذى يقوم بتهريب أمواله الى بنوك سويسرا ،

ويودعها باسمه فى حساب سرى ـ فلما نزل الى ايطاليا ، كما نزل جده من قبل ، لم يكن يملك ما يكفل له حياة طيبة · فكان الملك سعود ابن عبد العزيز عاهل السعودية حينذاك يمده بما يكفيه ، حتى انقطع هذا المورد بوفاته ، ولما توفى الملك فاروق لم يجد أبناؤه وأحفاده ما يقيم أودهم غير العمل ، وكانوا يعيشون حينذاك فى فرنسا ·

ويلى توفيق الحكم ، ولم يعد كما عرف قبل أن يلى الحكم ، وقادته سياسته الخرفاء الى الثورة عليه ، والغضب منه شعبيةقبل أن تكون عسكرية حتى أخذ عرابى بزمام الموقف ، والتف الشعب حوله فضلا عن الجيش وكانت الثورة العرابية ·

ـ بلبــلة وبلبــال ـــــــــــــــــــ

تمر مصر بمثل تلك الحيرة التى نشأت على يد توفيق ،
ـقسه مثالا للتناقض بين ما كان منه من قبل ، وما انحدر
ـد ، ولعله لم يكن يأمل أو يجول بخاطره أن يخلف اسماعيل
ـ مصر ، ولعل اسماعيل نفسه لم يكن مما يدور فى خاطره
توفيق ،فقد كان توفيق أبنا لجارية ، لم تنل من اسماعيل
قصيرة ولم تكن له زوجا · كما يقول الدكتور هيكل فى
·(١) (ولم يكن اسماعيل يومئذ وارثا لعرش سعيد ، اذ
أكبر الأسرة مايزال حيا · لذلك لم يلفت مولد توفيق نظر
ـ كان من زراية أميرات العائلة المالكة لأمه ، فلما حصل
على فرمان وراثة العرش للولد الأكبر ، انقلبت الزراية
على الابن ، وشارك اسماعيــل أهله فى عدم عطفهم
ق ، وثبت عدم عطفه على توفيق وعدم رعايته اياه فى
ى أن يكون عرشه لحسين من بعده ، وكان يستطيع ذلك

كتور محمد حسين هيكل : تراجم مصرية وغربية ـ الخديو توفيق
٧٦ وقد ولد الخديو توفيق فى ١٥ نوفمبر ســنة ١٨٥٢ ، وكانت
عيل سنة ١٨٦٣ ، بعد مولد توفيق بسنوات ·

اعتمادا على أمومة توفيق ، أو بالتخلص منه كما كان يفعل ملوك ذلك العصر فى تركيا ، لكنه لم يكن يتعجل النظر فى أمر لم يكن فى حسبانه وقوعه قبل زمن طويل ، وكفاه وجود توفيق بمعزل عنه فى قصر له مقتصرا على ادارة أراضيه) ٠

ولعل توفيق ، حتى بعد عزل أبيه اسماعيل ، لم يدر فى خاطره أن يخلفه ، وكان يعلن أنه (مقيد اليد فى العمل حتى يرد الفرمان بتعيينه)(٢) ، وحين فوجىء بالخبر وفزع له ــ كما يقول الدكتور هيكل فى ترجمته له ــ (حتى لقد قابل موظف قصره الذى أبلغه اليه أسوأ مقابلة بأن صفعه ، فانه شعر منذ ذلك الحين بأن التركة التى آلت اليه أعباؤها تركة مبهظة مخوفة ، ترى ماذا عساه يصنع بأزاء أبيه ، وبأزاء تركيا ، وبأزاء الدول وتدخلها فى شئون مصر ، وبازاء الأمة المصرية المتوثبة للحركة بل للثورة ؟) ٠

لقد أراد أن يبرز ولاءه لأبيه ، وكان يدرك جفوته له ، فتنازل عن عشرين ألف جنيه من مرتباته السنوية كى تبلغ مرتبات أبيه خمسين ألف جنيه ، وحين رفعت اليه مرتبات البيت الخديو أمر بالغاء الراتب المعين لوالدته وزوجه وقدرها خمسة وخمسون ألف جنيه ، تقريبا منه للأمة وأنه يشاركها متاعبها المالية ٠

ولعل اسماعيل ، وقد رأى الأمر يخرج على ارادته ، وأن توفيق قد أصبح خديوا على غير ما يرغب ، قد رأى أن يستقطبه الى جانبه والولاء لأسرته وأبدى له من العطف مالم يحظ به من قبل ٠ (وفى الأيام التى انقضت مابين تبوء توفيق عرش أبيه وسفر اسماعيل ــ كما يقول الدكتور هيكل(٣) ــ من بلاد عزيزة عليه كانت عواطف

---

(٢) من حديث له مع مكاتب التيمس ٠

(٣) **تراجم مصرية وغربية** : الخديو توفيق باشا ص ٧١ ٠

وة والبنوة بينهما كخير مايمكن أن تكون فى مثل هذا الظرف صيب) ٠

ولعل هذا ما يفسر موقف توفيق قبل أن يلى منصب الخديوية ، ـقفه بعد أن وليه ، فمن قبل نراه ضالعا مع الأفغانى فى محافل ســـونية ، وقد عمل على الدعوة له بين أصحابه واتباعه من سونيين ٠ حتى أنه ذهب ومعه سليم نقاش ـ كمترجم ـ الى ـصل الفرنسى ، وأعلن له تأييده لسياسة بلاده الرامية الى خلع ماعيل ، وطالبه بالتدخل من أجل تحقيق هذا الهدف ، وتولية يق ، ونشرت جريدة ـ مصر ـ الموضوع على صفحتها الأولى فى يونيو ١٨٧٩ بعد تنازل الخديو لابنه بالفعل ،وهنأت ما سمته الحزب الوطنى الحر وأبناء مصـــر الفتاة ـ بالخديو الجديد . ست هذه التســـمية الا مجازا يجمع بين حلقتين تحرك فيهما فغانى(٤) ٠

« وقد وصل الأمر بجمال الدين الأفغانى الى حد التحريض على ع اسماعيل باشا واغتياله ، فيقول لنا الشـــيخ محمد عبده : ن الشيخ جمال الدين الأفغانى موافقا على الخلع واقترح على أنا أقتل اسماعيل باشا ، وكان يمر فى مركبته كل يوم على جســـر ر النيل ، ولكن كل هذا كان كلاما كنا نتهامسه فيما بيننا ، وكنت موافق كل الموافقة على قتل اسماعيل ، ولكن كان ينقصنا من ـدنا فى هذه الحركة ، ولو أننا عرفنا عرابى فى ذلك الوقت ، فربما

---

(٤) د٠ على شلش : مصر الفتاة : جمعية سياسية ووثيقة الصلاحية ١٨ ص ٢٣ ٠

كان فى امكاننا أن ننظم الحركة معه لأن قتل اسماعيل حينـــذاك كان يعتبر من أحسن ما يمكننا عمله ، وكان يمنع تدخل أوربا»(٥) ٠

وكان ما كان من توفيق حين آل اليه الحكم ومنصب الخديوية وانقلابه على من كانوا أصدقاء الأمس ، وبما كان من نفى جمال الدين الأفغانى بتلك الصورة المهينة وحماقة توفيق ، الا أن الصورة العامة التى غدت عليها مصر مما أدى الى قيام الثورة العرابية كانت أبعد من ذلك أثرا ، حين ناشئها الأحداث بين متناقضات عديدة أدت الى تلك النهاية الأليمة التى انتهت بالاحتلال البريطانى لمصر ٠ وبداية حقبة جديدة من تاريخ مصر الحافل ٠تواكبت فيها الأحداث جميعا ٠ لتنتهى بها الى ثورة ١٩١٩ فى أعقاب الحرب العـــالمية الأولى ٠ وبداية صفحة جديدة من تاريخ مصر المعاصر فاذا كان الأفغانى قد نفخ فيها من روحه وتعاليمه ، فأن بدايتها ترتد الى أبعد من ذلك حين جاء رفاعة رافع الطهطاوى ، ومن بعده على مبارك ، ومحمد قدرى باشا ، وقاسم أمين وأديب اسحاق ، وســـليم نقاش مدير جريدتى مصر والتجارة الى جانب ما كان من تعاليم رفاعة الطهطاوى وجهود على مبارك فى خدمة مصر ، وجاشت مصر فى تلك الفترة التى سبقت الثورة العرابية بكل ما يمهد لها ويبعث بالشرارة التى أشعلت أوتارها ، على عهد توفيق ٠

وشاء القدر ــ أن يكون قدوم جمال الدين الأفغانى الى مصر ، فى تلك الفترة العسيرة من تاريخها الحافل ، وقد شهد سفاهات اسماعيل ، واستبداده وزيفه وولعه بالمظهرية الكاذبة ، فبقدر ما كان من نزعته الاستبدادية ، بقدر ما كان من ادعائه للشورى والحكم

---

(٥) موسوعة تاريخ مصر : الفصل التاسع عشر ص ١٠٤٣ للاستاذ أحمد حسين نقلا عن التاريخ السرى لاحتلال انجلترا مصر لالفرد بلنت ٠

الدســـتورى ، وكان فى واقعه صــورة حافلة بالمتناقضات التى لايتصورها قصاص مولع بالأساطير (وكانت أيام حكمه ـ كما يقول الدكتور هيكل(٦) ـ أسطورة لايسلم العقل بها لو رواها التاريخ عن عصر قديم ، كان اسماعيل ساحرا أعظم السحر ، ذكيا أشد الذكاء، وسيم الطلعة حاد النظرة ماضى العزيمة جذابا لكل من اتصل بـه . وكان مع ذلك قصير النظر شرها فى كل مطامعه وشهواته ، مغامرا فى سبيلها مجازفا مجازفة لايهون منها أى حذر ، وكان فيه من دم محمد على اقدام لايعرف التردد وبطش لاهوادة فيه وقسوة لايتسرب اليها أمل فى رحمة .. ثم أنه كان مولعا أشد ولع بالمظاهر الاجتماعية للحضارة الأوربية ، وان غاب عنه الجانب المعنوى منها وهو الجانب الذى يحركها ويمدها بكل مافيها من قوة . لذلك سخر ذكاءه واقدامه ليجعل لعرش مصر مظاهر العروش الأوربية ، وليكون قصره كقصر لويس الرابع عشر ، ان لم يكن أبهى منه وأزهر ، وليقول عن مصر أنها أصبحت قطعة من أوربا ، وفى سبيل ذلك أنشأ كثيرا وخرب كثيرا وأثقل كاهل مصر بدين ماتزال تنوء الى اليوم به ، وماتزال تحتمل بسببه نقصا فى سيادتها وذبولا فى استقلالها وعزتها) .

ولقى جمال الدين الافغانى من حفاوة اسماعيل ما أثار حيرة المؤرخين ، فكيف يتسنى لعاهل مستبد أن يستضيف داعيا من دعاة الحرية ، بل لعله أعظم دعاة الحرية فى عصره ، الا أن يكون بعض ما عرف عن اسماعيل من تناقض فى سلوكه وأفكاره ، يفسره أحمد حسين صاحب موسوعة ـ تاريخ مصر ، بقوله : (ان المستبدين والطغاة فى كل زمان ومكان قد وجدوا من مقومات الزينة والترف أن يعيش فى ظلهم أعلام الكتاب والمفكرين والمؤلفين دون أن يطوف لهم

---

(٦) تراجم مصرية وغربية : الخديو الأول اسماعيل باشا ص . ص ٤٧ ـ ٧٢ .

خيال أن سيكون لهذه الأقوال الحرة التى تخرج من أفواه هؤلاء الكتاب يمكن أن يكون لها أدنى أثر فى تغيير الأوضاع .. يرى بعض المؤرخين أن اسماعيل باشا قد رأى فى رعايته للسيد جمال الدين الأفغانى الذى نفته عنها اسطنبول مظهرا لاستقلالهم عن تركيا والاعلان عنه باعتباره أميرا شـــــرقيا متحررا يلجأ اليه المفكرون الأحرار .. كيفما كان الأمر ، فقد استقر جمال الدين الأفغانى برعاية اسماعيل باشا فى مصر ، وبدأت بذلك هذه المدرسة التى فرضت طابعها على أحداث مصر الأدبية والفكرية والاجتماعية والسياسية لعشرات من السنين) .

(ويقول عبد الرحمن الرافعى أن جمال الدين هو أب الثورة العرابية ، أما نحن فنضيف الى ذلك أن أثره ظل يؤثر على مجريات الأحداث المصرية حتى قيام ثورة سنة ١٩١٩ ، مادام أن سعد زغلول نفسه زعيم هذه الثورة من تلامذة الأفغانى)(٧) . ويصف الأستاذ أحمد أمين ـ حال مصر حينذاك ، فيقول (٨) :

(كانت هذه السنون الثمانى من أشق السنين على مصر، اذ كان حالها حال أسرة يأتيها رزقا رغدا منكلمكان، فلم تكتف بدخلها الذى يسد حاجتها ، فاســـــتدانت لرفاهيتها ، حتى اذا بلغت الغاية فى الدين أخذ الدائنون يحجرون عليها ، ويتدخلون فى شئونها ، ويشــرفون على مصادرها ومواردها ، ولا يتركون لها شيئا من حرية التصرف ، فاذا الأسرة بائسة بعد نعيم ، وشقية بعد سعادة ، واذا هى مغلولة الأيدى والأرجل والأعناق

---

(٧) ص ١٠٢٥ .

(٨) زعماء الاصلاح فى العصر الحديث : السيد جمال الدين الافغانى ص ٦٣ .

تحاول الخلاص فلا تجده ، وتتلمس الطريق الى الحرية فلا تهتدى اليه) ٠

وأيا كان ترحيب اسماعيل بالأفغانى ، وأنه أجرى عليه معاشا شهريا قدره ألف قرش فان الأفغانى ، كان نبت ذاته وعقيدته ، فلم تغره تلك الحفاوة ، ورأى فى اسماعيل حاكما مستبدا ، حتى وصل به الأمر ـ كما قلنا ـ الى التفكير فى خلع اسماعيل ، بل والتفكير فى اغتياله ، كما جاء على لسان الشيخ محمد عبده ، مما سبقت الاشارة اليه ٠ وكان البذر الذى أفرز فيما بعد ـ الثورة العرابية ـ

ولعل اسماعيل بسياسته العشوائية ومظاهرته الناقلة للشورى والحياة الدستورية الصورية ٠ قد وضـــع البذرة الأولى للثورة العرابية ، حين بدأت ملامحها فيما نال أعضاء مجلس الشـورى النواب من غضب على سياسة الوزارة ٠

وقد صدر القانون بانشاء مجلس شورى النواب سنة ١٨٦٦، وسن الخديو اسماعيل نظامه فى لائحتين عرفت الأولى باللائحة الأساسية ، من ثمانى عشرة مادة تتناول اختصاصاته ، وطريقة انتخابه ، وتحديد اجتماعاته ، والثانية اللائحة النظامية ـ نظامنامة ـ من احدى وستين مادة ، كلائحة داخلية للمجلس ٠٠

ويتكون المجلس من خمسة وسبعين عضوا يجرى انتخابهم لمدة ثلاث سنوات ويتولى انتخابهم عمد ومشايخ المديريات ، والأعيان فى القاهرة والاسكندرية ودمياط ، ثلاثة نواب عن القاهرة واثنان عن الاسكندرية وواحد عن دمياط ويتم انتخاب نواب المديريات وفقا لتعدادها فينتخب واحد أو اثنان عن كل قسم من أقسام المديرية ٠

ويشترط فى المرشح أن يكون مصريا ، ومن المتصفين ـ بالرشد والكمال ـ ولا تقل سنه عن خمس وعشرين سنة ، وأن لا يكون ممن

صــدرت ضـــدهم أحكام جنائية ـ بالليمان أو من المحكوم عليهم بالافلاس أو الطرد من وظـــائف الحكومة بحكم ، وأن يكون ملما بالقراءة والكتابة ، ولم يكن هذا مما يشترط فى الانتخابات السابقة وبدأ تطبيقه فى الدورة السابعة أى بعد مضى ثمانى عشرة سنة منقيامه ، وفى الدورة الانتخابية الحادية عشرة ، اشترط فى الناخب أن يكون ملما بالقراءة والكتابة ـ أى بعد ثلاثين سنة على الانتخاب الأول ـ كما يقول الرافعى[٩] ـ وعلة ذلك ـ كما يقول ـ انها المدة الكافية للالمام بالقراءة والكتابة بعد انتشار التعليم ٠

ويختار الخديو رئيس مجلس الشورى ووكيله ، دون الرجوع الى رأى الأعضاء ومما نصت عليه اللائحة توقيع عقوبة على العضو الذى يتخلف عن حضور الجلسات دون اذن ٠ ويتمتع بنوع من الحصانة النيابية خلال الدورة ، مالم يرتكب جريمة القتل ، وليس للعضو أن يتكلم الا اذا طلب الكلمة وأذن له الرئيس ٠

ولم يكن المجلس على صورتهالتىأنشىء عليها أكثر منهيئة استشارية يعوزها القرار النافذ ، وقد تم افتتاحه فى القلعة يوم الخامس والعشرين من نوفمبر سنة ١٨٦٦ (١٧ رجب سنة ١٢٨٣) برياسة اســـماعيل باشا راغب ، وحضـــر الخديو حفل الافتتاح وبصحبته رجال حكومته وعلى رأسهم شريف باشا ، الوزير المشهور وكان له دوره البارز فى تاريخ مصر خلال الفترة التالية من حكم اسماعيل ٠ وألقى اسماعيل ـ مقالة الافتتاح ـ كما كانت تدعى قبل أن نعرف باسم ـ خطبة العرش ـ ومما جاء فيها بعد أن أطنب فى مآثر جـده المرحوم حين تولى مصر وجدها خالية من آثار العمار ، ووجد أهلها مسلوبى الأمن والراحة فصرف الهمم العالية لتأمين الأهالى وتمدين البلاد ٠٠

---

(٩) عصر اسماعيل الجزء الثانى ـ الفصل الثانى عشر ص ٩٣ ٠

ومما جاء فيها : (لأنه من القضايا المسلم بها التى لا ينكر نفعها ومزاياها أن يكون الأمر شورى بين الراعى والرعية ، كما هو مرعى فى أكثر الجهات ، ويكفينا كون الشارع حث عليه بقوله تعالى : ـ وشاورهم فى الأمر ـ وبقوله تعالى : ـ وأمرهم شورى بينهم) ٠

ويعلق الأستاذ أحمد حسين فى موسوعته التاريخية : (وكان اسماعيل باشا وهو يلقى خطابه نموذجا كاملا لنفاق الحكام المستبدين حيث يقولون بألسنتهم ، مايخالفونه بأفعالهم ، فلم يطف بخيال اسماعيل باشا أنيقيد سلطته ولو قيد شعرة بقيامهذا المجلس(١٠)٠

الا ان هذا المجلس الذى أقامه اسماعيل صورة زائفة للديمقراطية كان له دوره ـ فيما بعد ـ حين مست الحاجة اليه ، وكان ذلك بوحى من اسماعيل نفسه (فان الموظفين ـ كما يقول الدكتور هيكل(١١) ـ والضباط من الشركس والأتراك والأرمن وغيرهم ـ ممن كان بيدهم الأمر فكانوا يسومون المصريين الخسف وسوء العذاب ـ شعروا بفشلهم وبعجزهم اذا بقيت الخصومة بينهم وبين المصريين قائمة ٠ ٠وقد طلب ريفرس ويلسون الى الحكومة أن تعلن أن مصر مفلسة ٠٠ هنالك اجتمع نواب البلاد وأعيانها وكبراؤها وموظفوها الدينيون والمدنيون والحربيون وقدموا للخديو برنامجا ماليا يخالف برنامج ويلسون محتجين على القول بافلاس مصر ، ولم تكن يد اسماعيل بعيدة عن وضع هذا البرنامج) ٠

الا أن يد مصر والمصريين لم تكن ـ كما نعتقد ـ بعيدة عن هذا الواقع منذ البداية ، ففى أول اجتماع لمجلس الشورى عام ١٨٦٦ ،

---

(١٠) أحمد حسين : المصدر السابق ص ١٠١٥ ٠

(١١) تراجم مصرية وغربية : الخديو الأول اسماعيل باشا ص ٦٨ ـ ٦٩

قام ـ اتربى بك أبو العز ـ أحد نواب الغربية يقترح تعميم التعليم الشعبى بانشاء مدرسة ابتدائية فى كل مديرية ، ولقى الاقتراح تأييد النواب ، مما حمل اسماعيل ـ كما يعتقد ـ الى وقف أطيان تفتيش الوادى على المدارس ، وأعلن شريف باشا باسم الحكومة هذا الأمر على النواب(١٢) ٠

وكان اسماعيل منذ توليته قد أخذ فى احياء المدارس القديمة وانشاء غيرها على غير سياسة مرسومة حتى كان اقتراح اتربى أبو العز ، فكان بداية فى وضع سياسة مرسومة للتعليم هى التى قام بها على مبارك ، وهى التى قرنت اسمه بالنهضة التعليمية ، واستحق من أجلها أن يلقب ـ بأبى التعليم ـ ٠

ولم يفكر اسماعيل حين أنشأ مجلس شورى النواب فى أن يشرك المصريين فى الحكم ، ولم يكن يرمى الى تطبيق النظام الدستورى فى مصر ، ولعله (لم يخطر بباله أن مثل هذا العمل قد يؤدى الى اظهار طبقة ظلت بعيدة عن المشاركة فى شئون البلاد ، أو يقودها الى التقدم والبروز فى ميدان الحياة العامة كان لها أبعد الأثر فى اتجاهات الثورة العرابية ، كما لعبت الدور الأول فى سياسة البلاد بعد ذلك ، وهى التى ظفرت للبلاد بدستور ١٨٧٩ مقررا مبدأ المسئولية الوزارية ، واقرار الميزانية والقوانين العامة)(١٣) ٠

الا أن هذه الطبقة الجديدة التى أفرزها مجلس الشورى لم يبد لها من أثر حين (أنقضت ـ سنتا ١٨٧٤ و ١٨٧٥ ، دون أن يدعى

---

(١٢) المؤلف : على مبارك : أبو التعليم ص ٩٠ ـ الطبعة الثانية ، وهى كالطبعة الأولى دون تغيير ٠

(١٣) المؤلف : أحمد لطفى السيد استاذ الجيل ص ٣٦ ـ ٣٨ ٠

مجلس شورى النواب للاجتماع ، أو تجرى انتخابات جديدة بعد انقضاء مدة الهيئة النيابية الثانية) .

ويعلق الرافعى على ذلك بقوله :

(ولا ندرى العلة فى تعطيل الحياة النيابية طول هذه المدة ، ولا نجد لذلك تعليلا ــ من وجهة نظر الحكومة ــ الا الارتباك المالى الذى وقعت الحكومة فيه على أن هذا الارتباك كان أدعى الى عقد المجلس للتشاور مع النواب فى الوسائل الكفيلة بانقاذ البلاد من هذا الارتباك ، ولكن الحكومة فى تصرفاتها المالية والسياسية كانت تأبى أن تشرك نواب الأمة فى أرائها وقراراتها ، بل تضن عليهم بالاطلاع على حقائق الحالة المالية)(١٤) .

ويمضى الرافعى فى تعليقه ، قائلا :

ويبدو لنا غريبا أن نواب البلاد وأعيانها وذوى الرأى فيها يسكتون عن تعطيل الحياة النيابية سنتين متوالتين دون أن يتحركوا للمطالبة بعقد المجلس احتراما لأحكام اللائحة الأساسية وخاصة لما وقع فى هذه المدة من تتابع الأحداث المالية بعد فض الدورة النيابية الأخيرة (مارس سنة ١٨٧٣) .

وبينما يسكت النواب عن تعطيل الحياة النيابية ، نراهم فى دور الانعقاد الأول للهيئة النيابية الثالثة (نوفمبر سنة ١٨٧٦ ــ مايو

---

(١٤) **عصر اسماعيل** : الجزء الثانى ص ١٤٤ بعنوان ــ ايقاف الحياة النيابية سنتين .

١٨٧٧) يتخذون موقفا مخالفا ، حين يتخذون موقف المعارضة . مما يحمل ـ أحمد حسين فى موسوته التاريخية ، على القول :

(ولسنا نستطيع أن نعرف على وجه التحقيق هل انتابت اسماعيل باشا نوبة من يقظة الضمير فأراد أن يتطهر من أدران الماضى ويعلى سلطان الأمة فى وجه الأوربيين أم انه شأن أى حاكم مستبد رأى فى هذه الحركة الوطنية الجديدة ما يعيد اليه سلطانه المفقود الذى حرمه منه الأجانب) .

ويمضى فى حكمه التاريخى ، قائلا :

(الا أننا لا نستطيع أن نقول كلمة عطف على اسماعيل كتلك التى قلناها عن سعيد باشا الذى أحب مصر وأحب الشعب المصرى ، وبذل كل جهده لاسعاد الفلاح المصرى والارتقاء به) .

ويبدو أن ما كان من معارضة ندت عن الهيئة النيابية الثالثة كانت برضاء الخديو اسماعيل ، ولعلها كانت من تدبيره لتكون سندا له أمام تدخل الدول ، وتأييدا له قبل السلطان العثمانى .

ويرى الدكتور هيكل(١٥) (أن الدول قد سئمت هذا الصراع الطويل مع اسماعيل ، ولعلها كذلك قد خشيت بعد انضمامه للأمة واظهار العطف كل العطف على مطالبها ، أن تقوى الحركة القومية المصرية وأن يصبح اسماعيل مثلما كان جده محمد على مكانة وقوة سلطان ، لذلك رأت أفضل السياسات أن ينزل عن العرش ، لكن

(١٥) تراجم مصرية وغربية : الخديو الأول اسماعيل باشا ص ٧٠ .

اسماعيل لم ينظر الى المسألة هذه النظرة وأراد أن يلجأ الى جلالة سلطان تركيا آملا أن يكون لما قدمه له من طائل الأموال وعظيم التضحيات بعض الأثر ، وهنا خاب فأله ٠ فقد بعث الباب العالى فى ٢٦ يونيو تلغرافا بعزل اسماعيل عن العرش وبرفع ولده توفيق مكانه ٠٠ ونال ذلك من نفس اسماعيل ولكنه حملها على الصبر حتى كانت الثورة العرابية فى مصر ، هنالك حز الألم فى نفسه ، وأنكر انه لم يفكر فى مقاومة كالتى قاومها اليوم هؤلاء المصريون الأبطال، ولو أنه قاوم فربما كان له من الاقدار عون يستبقى نجمه عاليا)٠

١/٥ـ اسماعيل والثورة العرابية

لا نغالى اذا قلنا أن اسماعيل خديو مصر الأول هوالذىغرس بذرة الثورة العرابية ، أو الثورة بوجه عام ، فقد جاء عرابى فى الوقت الذى جاشت فيه الأفكار بالضيق والألم والشكوى المريرة من الظلم فكان هو المعبر عنها ، والداعى الى التحرر منها ٠

وبقدر ما كان سفه اسماعيل واستبداده وتعصبه لأرومته نراه فى سنوات حكمه الأخيرة يلوذ بالشعب ويستجدى عونه ، ولكن الوقت كان قد فات ، ولم يعرف أحد ممن لاذ بهم من دول الغرب ، أو من الدولة العثمانية فضلا وكان قرار الباب العالى بعزله عن العرش وبرفع ولده توفيق مكانه ٠

ولعل اسماعيل كان أول من أقحم الجيش فى السياسة حين سير ضباط المدرسة الحربية بقيادة البكباشى لطيف بك سليم للقيام بمظاهرتهم العسكرية مما سبقت الاشارة اليه ٠ وان نفى الرافعى أن تكون من تدبيره ٠

ولم يفز عرابى بأية حظوة فى عهـد اسماعيل ، بل لقى من

الغبن والتنكيل ما كاد يودى بمستقبله ، ويأتى الرافعى على ذكره بقوله(١) :

« فلما توفى سعيد وخلفه اسماعيل فقد عرابى عطف ولى الأمر ، اذ لم يكن اسماعيل يأخذ بسنة سلفه فى العطف على الضباط الوطنيين ، وعادت الحظوة فى الجيش الى الضباط الشراكسة ، فكان ذلك من أسباب تذمر عرابى واتجاه أفكاره الى المطالبة بحقوق الضباط المصريين ٠

ووقع له حادث فى عهد اسماعيل كان له أثر كبير فى اتجاه أفكاره ونزعاته السياسية ذلك أنه وقعت خصومة بينه وبين اللواء خسرو باشا الشركسى أدت الى تقديمه الى مجلس عسكرى ، والحكم عليه بالسجن واحدا وعشرين يوما ، فاستأنف عرابى هذا الحكم أمام المجلس العسكرى الأعلى فقضى بالغاء الحكم الابتدائى فحدث خلاف بسبب هذا بين وزير الحربية وقتئذ ـ اسماعيل سليم باشا ـ ورئيس المجلس الأعلى ـ على باشا سرى ـ لأن الوزير كان يرغب فى تأييد الحكم الابتدائى ، فسعى لدى الخديو اسماعيل فى فصله عن الجيش ، فتم له ما أراد وقد أورثته هذه الحادثة بغضا شديدا للشراكسة ٠

ورفع ظلامته من هذا القرار الى الخديو اسماعيل وظلت بين النظر والاهمال ثلاث سنوات ، وقد توسط

---

(١)الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى : ص ٧٨ ٠

له بعد ذلك بعض الخيريين فالتحق بوظيفة فى دائرة الحلمية وفى أثناء قيامه بهذه الوظيفة تزوج من كريمة مرضعة الأمير الهامى باشا أخت حرم الخديو توفيق من الرضاعة ، وتوصل بذلك الى استصدار أمر من الخديو اسماعيل بالعفو عنه واعادته الى الجيش برتبته العسكرية ، ولكنه حرم مرتبه طول مدة فصله ، فتأصلت فى نفسه روح الكره لرؤساء الجيش من الشراكسة والترك الذين كانوا سببا فى تأخير ترقية الضباط المصريين ومنهم عرابى ذاته ، فقد ظل تسعة عشر عاما برتبة قائمقام ، وهى الرتبة التى نالها فى عهد سعيد باشا ، وكان يشهد محاباة الرؤساء لصغار الضباط من أصل شركسى ، ممن هم دونه مرتبةحتى فاقوه فى الرتب العسكرية لا لسبب الا أنهم من مماليك، أو أبناء مماليك العائلة الخديوية ـ كما يقول عرابى » ٠(٢)

حتى اذا تولى توفيق منصب الخديو ، رقى عرابى الى رتبة الأميرالاى بعد تسعة عشر عاما من ولاية اسماعيل لم ينل فيها أية ترفيه (وعينت ـ كما يقول ـ ياورا خديويا من ضمن ياروانه وأميرا على الآلاى البيادة الرابع الكائن مركزه بالعباسية بمدينة القاهرة)

(وأصدر توفيق أمره بذلك (يونية سنة ١٨٧٩) وهو فى(٣) الاسكندرية فتوجه عرابى الى سراى رأس التين وقدم للخديو شكره مقرونا بعبارات الاخلاص والولاء والدعاء ، فشمله الخديو برعايته وجعله ضمن ياورانه ، وعينه أميرالايا على آلاى المشاةالرابع الذى

---

(٢) مذكرات عرابى الجزء الأول كتاب الهلال ص ٥٦ ٠

(٣) الرافعى : المصدر السابق ص ٨٠ ٠

كان مركزه القاهرة ويعرف بآلاى العباسية ، وظل يشغل هذا المنصب حتى نشوب الثورة) ٠

وكانت بداية طيبة ــ كما كان توفيق فى بداية عهده ــ وكان من اليسير أن تمضى الأمور على هذا النمط ، الا أن توفيق ما أن لانت له الأمور حتى ارتد الى أسوأ مما كان عليه أبوه ، وكان أسوأ مامنى به حكمه أن كان ــ عثمان باشا رفقى وقتئذ ناظرا للجهادية يصفه عرابى بأنه (رجل جاهل متعصب لجنسه غافل عما ينتج عن سياسة التفريق والاستخفاف بالعنصر الوطنى من احراج الصدور فسولت له نفسه أن يمنع ترقى المصريين العاملين فى الأليات تحت السلاح ، ثم شرع فعلا فى سن قانون فحواه الحكم بعدم الترقى من تحت السلاح ، وصدرت أوامره بذلك ليتمكن من النكاية بأبناء الوطن وحرمانهم من الرتب وجعلهم أنفارا تحت تسلط الترك والجركس ويكون لهؤلاء الحظ الأوفر والنصيب الأكمل من الارتقاء الى الدرجات السامية والرتب الشريفة ٠٠

ثم أصدر أمرا ثانيا بأحالة عبد العال بك حلمى اميرالاى الآلاى السودانى الى ديوان الجهادية ليكون معاونا فيه ، وكان عمره اذ ذاك أربعين سنة وعين خورشيد بك نعمان بدلا منه لكونه من جنسه الجركسى ، وكان يبلغ من العمر الخامسة والستين ، وهو ضعيف لا قدرة له على الحركات العسكرية ، وأصدر أمرا آخر برفت أحمد بك عبد الغفار قائمقام السوارى ، وكان فى الأربعين من سنه أيضا ، وأقام فى مكانه ضابطا آخر جركسيا) ٠

ويبدو حتى ذلك الوقت أن عرابى كان بعيدا عن الأحداث ، أو على غير علم بها اذ يقص ما يدل على ذلك ، فيقول :

---

(٤) مذكرات : المصدر السابق ص ٥٦ ٠

(وفى ليلة ١٤ صفر سنة ١٢٩٨ هـ دعيت الى وليمة بمنزل نجم الدين باشا لمناسبة عودته من أداء فريضة الحج ، فلما وصلت الى منزل الداعى ، وجدته غاصا بأمراء الجيش وغيرهم ، فجلست بجوار محمد بك نجيب الجريدلى وكان بجانبه اسماعيل باشا كامل الفريق ــ وهو جركسى الأصل ولكنه كان يتظاهر بحب العدل والانصاف ــ فأفضى الباشا الى نجيب بك بما صار من طيش ناظر الجهادية ، وأنه نصح له بأن يعرض عن ذلك الأجحاف الظاهر ، فلم يصغ اليه ، فأخبرنى محمد بك نجيب بما سمع همسا فى أذنى ، وكنت أجهل قبل ذلك تلك الأوامر الظالمة ، فقلت لاسماعيل باشا كامل : أحق هذا ؟ فقال : نعم وقد سلمت الأوامر الى الكتاب للأجراء بمقتضاها ــ فقلت له : ان هذه لقمة كبيرة لا يقوى عثمان رفقى على هضمها .

وبعد تناول الطعام جاءنى ضابط وأخبرنى بأن كثيرا من الضباط ينتظروننى بمنزلى ، فتوجهت اليهم فى الحال ، فوجدت من ضمنهم الأميرالاى عبد العال بك حلمى حكمدار الألاى السودانى بمركزه فى طره والبكباشى خضر أفندى من الألاى المذكور أيضاً ، وعلى بك فهمى أميرالاى الحرس الخديوى بقشلاق عابدين والبكباشى محمد أفندى عبيد من الألاى المذكور كذلك ، والبكباشى ألفى أفندى يوسف من الآلاى الرابع البيادة حكمداريتى ، والقائمقام أحمد بك عبد الغفار من الألاى السوارى وغيرهم ، وكانوا جميعا فى هياج عظيم ، اذ بلغهم صدور أوامر ناظر الجهادية قبل ارسالها اليهم ، فلما رأونى أفضوا الى بما سمعته من نجيب بك واسماعيل باشا كامل من قبل ، فقلت لهم : قد سمعت هذا من غيركم ، فماذا تريدون ؟ قالوا : وليس الأمر كذلك فقط ، بل أنه قد كثر اجتماع العنصر الجركسى فى منزل خسرو باشا الفريق ، وهم يتذاكرون فى تاريخ دولة المماليك فى كل ليلة بحضور عثمان بك رفقى ويلعنون خيرى

بك لتسليمه واذعانه للسلطان سليم ، ويقولون أنه قد حان الوقت لرد بضاعتهم اليهم ، وأنهم لا يغلبون من قلة ، وظنوا انهم يملكون مصر ويستبدون بها كما فعل أولئك المماليك من قبلهم — ثم عقب الضباط بأنهم قد تحققوا صدق تلك الأنباء ممن يوثق بخبره · فقلت : وماذا تريدون اذن ؟! فقالوا انما جئناك لنرى رأيك — فقلت : رأيى أن تتريثوا ، وتهدئوا روعكم ، وتعتمدوا على رؤسائكم وتفوضوا اليهم النظر فى مصالحكم ، وهم يتخذون من بينهم رئيسا لهم يثقون به كل الوثوق ، ويسمعون قوله ، ويطيعون أمره ، ويحفظونه بمعاضدتكم ان أرادت الحكومة به شرا) ·

وليس لذلك من دلالة الا أن — عرابى — كان موضع اكبار الضباط المصريين وثقتهم ، وذلك لما كان عليه من سلوك بين واتجاه صادق فى ايمانه بمصر والمصريين ، وان تكون — مصر للمصريين — وكان ذلك شعار الثورة العرابية · كما كان من بعد على يد أستاذ الجيل أحمد لطفى السيد ، وسعد زغلول زعيم مصر العظيم وقائد ثورتها عام ١٩١٩ · وكانت مصر هى النغمة السائدة فيما قام به رفاعة الطهطاوى وعلى مبارك فى بناء النهضة المصرية فكرا وأملا وسياسة ··

ونقول أخيرا أن عرابى كان الناطق بلسان عصره فى ندائه — مصر للمصريين — ولا نرى فيما دونه الرافعى عن — الثورة العرابية — ما يخالف ما ذكره عرابى فى مذكراته :

ولعله بعبارته : « ولو لم يظهر عرابى ولم تكن له تلك الشخصية التى اجتذبت اليه صفوف الضباط ، وبثت فيهم روح التضامن والأقدام لكان محتملا أن لا تظهر الثورة العرابية ، أو لظهرت فى زمن آخر ، وفى ظروف وملابسات أخرى غير التى ظهرت فيها »

فالثورة العرابية ـ كما يقول : (كانت ثورة دفاع عن الحق ودفاع عن الحياة)(٥) ٠

واذا قلنا أن عرابى كان الناطق بلسان عصره فى ندائه ـ مصر للمصريين ـ فانما نعنى أنه كان ـ التعبير الواقعى ـ لما جاشت به مصر من انفعالات ، بدت سافرة فى ندوات المفكرين ، وفيما تنشره الصحف ، بل وفى الجمعيات السرية والعلنية التى انتشرت خلال تلك الفترة التى سبقت الثورة العرابية بل واستمرت بعدها ، فلم تكن الثورة العرابية ـ كما أرى ـ الا الشرارة الأولى التى أفرزت ـ كما قلت ـ ثورة ١٩١٩ ، وكانت امتدادا لها ٠

وكان اول ما بدا منها ندوة الأفغانى ، وفى رحابها ـ كما قلنا ـ نشأت تلك الصفوة من المفكرين والساسة الذين قدر لهم أن يقودوا نهضة مصر السياسية والفكرية التى امتدت آثارها ـ فشملت العالم الاسلامى ، وكان أعظم ما نعمت به مصر فى تاريخها الحديث،حين أيقظ فى نفوسهم أمجاد ماضيهم ، وأخذ عليهم خنوعهم وصبرهم على الخسف والظلم ، فيقول :

(توالت عليكم قرون منذ زمن الملوك الرعاة حتى اليوم وأنتم تحملون عبء نير الفاتحين ، وتعنون لوطأة الغزاة الظالمين تســومكم حكوماتكم الحيف والجور ، وتنزل بكم الخسف والذل وأنتم صابرون ، بل راضون ٠٠ فلو كان فى عروقكم دم فيه كريات حيــوية ، وفى رءوسكم أعصاب تتأثر فتثير النخوة والحمية لما رضيتم بهذا الذل وهذه المسكنة) ٠

---

(٥) الرافعى : المصدر السابق ص ٦٤ ٠

ثم يستثير نخوتهم ، فيقول :

(انظروا أهرام مصر ، وهياكل ممفيس ، وآثار طيبة ومشاهد سيوة ، وحصون دمياط ، فهي شاهدة بمنعة أبائكم وعزة أجـــدادكم ٠٠ هبوا من غفلتكم ! اصحوا من سكرتكم ، عيشـــوا كباقى الأمم أحرارا سعداء) ٠

ومنذ ذلك الحين طارت شرارة الثورة العرابية(٦) ، وهو قول فيه نوع من المبالغة ، فاذا كانت قد أزكت احساس المصريين بتاريخهم وأنتمائهم فانها لم تعد ماينشده الخديو اسماعيل منها لأثارة احساس المصريين بكيانهم ، ليكونوا له سندا فى مواجهته السلطان العثمانى، ولم يكن فى أحاديث الأفغانى ما ينأى به عن هذه الغاية التى ينشدها اسماعيل ، ولم يكن فيها ما يثير المصريين على واليهم ثم أن بذور الثورة العرابية ، تسبق ذلك بزمن ، ولم تفرز غير احساس ممض بالفرق بين حاكم وآخر ، أو بعبارة ادق بين حكم الوالى سعيد باشا والخديو اسماعيل ، وكان عرابى هو حامل لوائها والمعبر عنها ٠

فاذا لم يكن فى أحدايث الأفغانى ما يثير المصريين على واليهم، الا أن أحاديثه وندواته قد أثارت فى نفوس المثقفين من أبناء مصر معان خابية يحسونها ولا يقدرون على التعبير عنها ، أما لأنها أبهمت عليهم ، أو خافوا التعبير عنها ، وقد ظل الأفغانى وفيا لاسماعيل فلم يعرض له بسوء ، حتى رحيله عن مصر الى المنفى ، بل بقى على وفائه له فى منفاه ، وكان النفى قد لحق به هو الآخر فى ولاية توفيق ، فتكتب ــ العروة الوثقى ــ التى أصدرها الافغانى فى باريس سنة ١٨٨٤ ، داعية الى عودة اسماعيل ثانية لمصر ، فتقول :

---

(٦) أحمد أمين : زعماء الاصلاح فى العصر الحديث : السيد جمـال الدين الأفغانى ص ٧٣ ٠

(أننا نعلم أن اسماعيل باشا لو رجع الى مصر لا يكتفى بتخفيض سلطة الانجليز فى وادى النيل ، بل يبـذل جهده فى محو النفوذ الانجليزى بالمرة ، وربما مد بحباله الى سائر البلاد المشرقية الداخلة فى سلطة الانجليز ليحبط أعمالهم ، ويهدم أركان سلطنتهم عليها لأنه يعلم ـ أى اســماعيل ـ أن الدولة الانجليزية هى السبب فى كل مصاب نزل به ··)(٧) ·

وحين جاء الأفغانى الى مصر (مارس ١٨٧١) لم ير اسماعيل فى وجوده ما يهدد سلطانه بقدر ما يؤيد كيانه فى مواجهة الدولة العثمانية كحاكم مستنير ، وقد وجد الأفغانى فى مصر ومن اسماعيل كل ترحاب ··

وكان اســماعيل فى هذه الفـترة ـ كما يقول الرافعى(٨) (منافسا لحكومة الأستانة فى المكانة والنفوذ السياسى وينظر اليها بعين الزراية ، ولا يرضى لمصر أن تكون تابعا لتركيا ، ولا أن يكون هو تابعا للسلطان العثمانى ، وليس خافيا ما كان يبذله من المساعى للانفصال عن تركيا فى ذلك الحين ، وظهوره بمظهر العامل المستقل فى معرض باريس العام سنة ١٨٦٧ ، وفى اغفاله دعوة السلطان الى حضور حفلات القناة سنة ١٨٦٩ ، وعزمه على اعلان استقلال مصر التام فى تلك الحفـلات ، لولا العقبـات الســياسية التى اعترضته) ·

ويبدو قدوم الأفغانى الى مصر خطة مرسومة، فقد جاء اليها ـ كما يقول الرافعى(٩) ـ لا على نية الاقامة بها ، بل على قصد

---

(٧) ص ٤٠٩ من مجموعة مقالات العروة الوثقى ·
(٨) عصر اسماعيل : الجزء الثانى ص ١٥٦ ·
(٩) المصدر السابق : ص ١٥٦ ·

مشاهدة مناظرها واستطلاع أحوالها - وأن تكن الحقيقة غير ذلك ، فقد جاء اليها ليقيم ، اذ أن رياض باشا هو الذى دعاه للاقامة وأجرى عليه رزقا غير مقطوع يتناوله فى مطلع كل شهر .. وما كان لرياض أن يفعل ذلك بدون موافقة اسماعيل .

ويمضى الزمن ليكون سلوك مصطفى رياض باشا ، الشرارة التى أوقدت شعلة الثورة العرابية ، ولا ندرى أكان ذلك منه غباءا أم سوء قصد ، وكان عزله أحد المطالب التى تقدم بها عرابى ورفاقه الى الخديو توفيق فى بيان ٩ سبتمبر ١٨٨١ ناسبين اليه الاستبداد وعدم الوطنية .

وحتى تكون لدينا فكرة موجزة عن مصطفى رياض هذا نحب أن نتبين فيما يلى بعض الأحكام التى نستخلصها من تاريخه ، والتى تبرز للقارىء موقفه منها ، فليس هناك ماهو أشد أبهاما وغموضا بل وتناقضا من أحداث تلك الفترة التى مرت بتاريخ مصر الحديث منذ أصبح اسماعيل - خديوا - حتى عزله وولاية توفيق بعده ليواجه أحداثا لا يقدر عليها ولا يستطيع مغالبتها (لينتهى به الأمر - كما يقول الدكتور هيكل - الى أن يكون فى تاريخ مصر صورة غير محبوبة ، ولا ممقوتة ، صورة مرت فى هذا التاريخ فكان أثرها فيه سلبيا هو أثر العاجز عن أن يقوم لبلاده أو لنفسه بخير)(١٠) وكان مصطفى رياض باشا صاحب الدور الأول - فى أحداثها التى قادت الى الثورة العرابية .

ويجمل الياس الأيوبى فى كتابه - تاريخ مصر فى عهد الخديو اسماعيل(١١) - تاريخ رياض باشا فيقول : (انه ابن ناظر

---

(١٠) تراجم : الخديو توفيق ص ٧٢ .
(١١) ص ١٩٧ .

الغريخانة المصرية ، وذهب آخرون الى أنه يهودى أزميرى من أسرة معروفة يقال لها أسرة الوزان ، ووفد أبوه الى الاسكندرية حيث أسلم فى ظروف لم يوضحها أحد ، وقد بدأ حياته نساخا فى مجلس العموم بديوان المالية ، حتى التحق بخدمة عباس الأول ، وقبل أن يصل الى سن العشرين كان قد حصل على رتبة الأميرالاى ، وأصبح مهردارا لعباس الأول ثم مديرا للجيزة بالاضافة الى بعض الأعمال الأخرى ، ويرجع بعضهم هذه الخطوة التى نالها عند عباس الأول وهذه السرعة المذهلة فى الترقيات الى تدنيه لأمور يلحق العـــار بمرتكبها) ويذكر له ـ الأيوبى ـ ما كان من طواعيته للانجليز ، وانه يسلم لهم بكل مايريدون دون مراجعة ، (لأن رياض باشا كان يثق به ثقة لا يخامرها ريب ـ قال اللورد كرومر فى كتابه ـ مصر الحديثة ـ أنه طلب منه أن يفض خـــلافا بين الحكومة المصـــرية والخواجات جرنفلد الذين أنشأوا مرفأ الاسكندرية وكان لابد من أن يوقع رياض باشا شروط الحل التى وضعها لورد كرومر ، فأخذها ومضى بها اليه ، وهو لا يصدق أنه يســـتطيع أن يوقعها فى ذلك اليوم ، اذ لابد من النظر فيها ، أما رياض باشا ، فقال له : ـ هل أنت موافق على هذه الشـــروط ومقتنع بعدالتها ـ فقال : نعم ، فأخذها منه ووقعها من غير أن يقرأها لشدة ثقته به) .

ويمضى لورد كرومر فى سرد مآثره ـ كما يراها ـ ولايفوته أن يذكر ما كان من فشله فى مواجهة الثورة العرابية ، فيقول عن هذا الدور من حياته (وفى أواخر تلك المدة عرضت مشكلة لم يقو على حلها ، ولم يكن قد انتبه الى أهميتها ، وهى الثورة العرابية ، فجرفه سيلها الجارف)(١٢) .

---

(١٢) الأيوبى ، المصدر السابق ص ٢١٠ .

ويرى الأيوبى : (أن خير وصف للرجل هو ما جاد به قلم اللورد ألفريد ملنر ، فى كتابه المعنون ـ انجلترا فى مصر ـ فيقول : (ان رياضا كان ذا كفاءة غريبة فى اثارة عداء الناس له حالما يتربع فى دست الحكم) .

ولعل هذه العبارة الأخيرة التى جاءت على لسان لورد ملنر هى أصدق مايمكن أن يوصف به رياض باشا ، فاذا قلت (ان الواقعة مقدسة والرأى حر) كما جاء فى كتابى ـ التاريخ والسير(١٣) وان (دراسة التاريخ دون العثور على الفكرة الاساسية للواقعة ، دراسة عارية جوفاء جامدة خالية من الاحساس والتفكير والارادة التى تميز العمل الانسانى) فان الفكرة التى تكمن وراء سلوك رياض باشا ، هى خيانته لمصر ، وانه لم يكن فى يوم من الأيام وفيا لها . وهو ما يشير اليه الرافعى ، بقوله(١٤) :

(وكانت سياسة رياض باشا من أسباب ظهور الثورة فقد استهدف لحركة مقاومة قوية لما بدا منه من المعارضة فى انشاء مجلس النواب وانحيازه للنفوذ الأوربى ، ولما عرف عنه من الاستخفاف بميول الشعب وعدم اكترائه لأراء الخاصة من الكبراء والأعيان ، واصراره على قمع كل معارضة بالشدة ، واضطهاده للمعارضين) .

---

(١٣) المكتبة الثقافية : ١٢١ فى ١٥ نوفمبر ١٩٦٤ ، وهو بحث فى فلسفة التاريخ اكملت فصوله فى سلسلة مقالات نشرت تباعا فى مجلة الفكر المعاصر بداية من سنة ١٩٦٥ .

(١٤) عرابى الزعيم الثائر ـ كتاب الهلال العدد ١٠ مارس ١٩٥٢ : ص ٢١ .

ولا نستطيع أن نتهم رياض باشا بالغباء ، وأبرز ما يمكن أن يوصف به الذكاء الماكر أو الخبث الوقح ، (وسواء كان رياض أم لم يكن من أصل يهودى ، فمسلم وأعرق الأتراك فى تركية خلقه وتربيته وميوله)(١٥) . وتلك هى - كما أعتقد - صفات العميل أو الجاسوس الخفى ، فقد كان (مظهره - كما يقول الأيوبى - مظهر يهودى شرقى تدل ملامحه ولهجته فى كلامه على أنه من أصل تركى لا من أصل مصرى ، ولو أنه تلقى مبادىء العربية والتركية فى بيت والده ، ثم فى مدرسة المفروزة ، ولا ينقصه فى لغته العربية شىء من الفصاحة الشرقية ، المنفوخة الأوداج التى تأخذ بمجامع قلوب مواطنيه) .

ولم تكن النزعة الصهيونية - كما بدت أخيرا قد ظهرت بعد، وكانت بريطانيا العظمى - كما كانت تدعى - هى الكفيل حينذاك بالجملة على الاسلام والمسلمين ، وفى رعايتها صدر وعد بلفور فيما بعد - كما هو معروف .

ولعل أبرز ما نشير اليه فى تلك الفترة من بواكير القرن العشرين ما كان من ابتياع الانجلترا لأسهم قناة السويس ، وقد تمت الصفقة فى غيبة مجلس العموم ، وباتفاق بين روتشيلد اليهودى ودزرائيلى ، قام روتشيلد بأداء الثمن ، ولما اجتمع (البرلمان الانجليزى فى فبراير سنة ١٨٧٦ ، وافق على الاعتماد المطلوب وعقد الاتفاق - كما يقول الرافعى - وأضاع اسماعيل بهذه الصفقة الخاسرة رأس مال عظيم القيمة فى شركة القناة ، وجعل استقلال مصر هدفا للخطر) .

---

(١٥) الأيوبى : المصدر السابق جـ٢ ص ٢٠٣ .

وكان اتمام هذه الصفقة الخاســـرة على يد حكومة مصطفى رياض ، مما يدل على صدق ما وصفته به من عمالة وجاسوسية خفية فى محيط من الأغبياء • وكان قمة هذا الغباء خديو مصر ـ المعظم أو الغافل ـ اسماعيل •

وتنشر مجلة العالمين الفرنسية فى عددها المؤرخ أول ديسمبر سنة ١٨٧٥ ـ كما نقله الرافعى(١٦) ـ ما يشير الى تلك العمالة ـ وأن نسبها الى اسماعيل ، بقولها : (ان هذا العمل سياسى محض، وهنا وجه الخطر فيه ، فاذا لم يكن فى ذاته احتلالا لمصر ، فانه الخطوة الأولى لهذا الاحتلال ، والآن وقد أصبح لانجلترا (عميل) يحتاج الى أن تعطيه مائة مليون فرنك لتسوية ديونه فهى لن تتركه وشأنه) •

ولم يكن هذا العميل الخديو اسماعيل بل كان رئيس الوزارة مصطفى رياض ، وكان له دوره البارز فى اثارة الجند بقيادة عرابى على طغيان حكومته فى عهد توفيق ، ولولا ذكاء عرابى لتمكن من القضاء على انتفاضة الضباط المصريين بقيادة الزعيم أحمد عرابى • وهو ما نعرض له فى الفصل التالى •

---

(١٦) عصر اسماعيل : الجزء الثانى ص ٦٥ •

٦/١ مصر للمصريين

كانت مصر غايته وهواه ، ولقى عرابى فى رحاب سعيد باشا، ما يزكى لديه هذا الحب العارم لمصر ، ثم كانت الأحداث التى تتالت عليه تحت حكم اسماعيل مازاده ايمانا بها ، ولولا أن القدر قد ساقه الى الزواج من كريمة مرضعة الأمير الهامى باشا وهى أخت حرم الخديو توفيق من الرضاعة ، وتوصل بذلك الى استصدار أمر من الخديو بالعفو عنه ، واعادته الى الجيش لكانت تلك نهايته ، وما كان لينسنى له أن يقود ثورته بعيدا عن الجيش ، ففى رحاب الجيش وان حرم من الترقى طويلا ، كانت زعامته ، وكان دوره الأثير فى قيادتها ، فضلا عن قدرته فى قيادتها وتوجيهها الى الغاية التى ينشدها وبقيت كامنة فى أعماقه لتكون ـ مصر للمصريين ـ فقد كان لقدرته على معرفة نوايا خصمه وتبينها ، ما أفسد على خصمه نواياه ، وكان من غباء عثمان رفقى وخيانة مصطفى رياض وانحيازه للنفوذ الأوربى ، مامكن عرابى من مواجهتها حين بايعه الضباط بقيادتها ..

وكانت البادرة الأولى حين أصدر عثمان رفقى ناظر الحربية أمرا بنقل الأميرالاى عبد العال حلمى ، قائد آلاى طره الى ديوان

الجهادية ، أو وزارة الحربية بلغة العصر ، وأقامه معاونا بها،وفى ذلك تنفيض من درجته ومركزه ، وأمر بتعيين خورشيد نعمان بك الشركسى مكانه ، كما أصدر أمرا آخر بفصل أحمد عبد الغفار بك قائمقام الاى الفرسان • وعين بدله شركسيا ، وأثار عرابى حين علم بذلك ، وقال كلمته المشهورة ـ ان هذه لقمة كبيرة لا يقوى عثمان رفقى على هضمها ـ وغدت المعركة بينه وبين النظام القائم معركة ـ حياة أو موت ـ وكان حذر عرابى من أية مناورة يتخذها عثمان رفقى للغدر بهم •

وكانت الخطوة الأولى أن كتب عرابى عريضة الى رياض باشا تلاها على رفاقه ووافقوا عليها جميعا ، يطلبون فيها عزل عثمان رفقى عن الوزارة •

وفى غداة ذلك اليوم ـ ١٧ يناير سنة ١٨٨١ ـ ذهب الضباط الكبار الثلاثة ـ أحمد عرابى بك ، وعلى فهمى بك ، وعبد العال حلمى بك ، وأبلغوها الى رياض باشا فطلب اليهم أن يقابلوه ، فلما قابلوه وعدهم بالنظر فى الأمر ، ولم يبد عليه ما ينم عن سخط أو غضب ، ولعله ـ كما نرى ـ وهو العميل الكبير للنفوذ الأوربى • أراد أن يستهدى بسادته ، فلما قابلوه بعد أسبوع فى داره ، أجابهم متوعدا ومهددا وأنذرهم بالهلاك •

ولعله كان يظن فى تهديده مايثنيهم أو يخيفهم ، فعندما أصر عرابى ورفاقه على مطالبهم ، وأنها (حق وعدل) تراجع وأخبرهم أنه ـ سينظر فى الأمر ـ وانصرفوا على ذلك • ولعله لم يبرم أمرا حتى يعود الى سادته ، واستقر الرأى بهم ـ فى اجتماع مجلس الوزراء على محاكمة الضباط الثلاثة والقبض عليهم ليحاكموا أمام المجلس العسكرى ، وأخذ عثمان رفقى تنفيذ القرار ، وكان ذلك

يوم ٣١ يناير سنة ١٨٨١ فى اجتماع مجلس الوزراء فى سراى عابدين برئاسة الخديو توفيق ٠

ومضى عثمان رفقى فى تنفيذ خطته ، بما عرف عنه من غرور وغباء ، ولم يكن الضباط قد عرفوا بقرار مجلس الوزراء ، ولم يخطرهم عثمان رفقى بأمر القبض عليهم ، وكان أن لجأ الى استدراجهم بعيدا عن قواتهم ، ففى نفس اليوم الذى اتخذ فيه مجلس الوزراء قراره هذا ، أرسل اليهم يدعوهم للحضور الى ديوان الوزارة - بقصر النيل - للمداولة فى ترتيب الاحتفال بزفاف الأميرة - جميلة هانم - شقيقة الخديو ٠

وكانت خطة بقدر ما فيها من سذاجة تنم عن غباء بين ، فلم (تجر العادة - كما يقول الرافعى[١] بأن يستدعى وزير الحربية ثلاثة من أمراء الآيات للمذاكرة فى مثل هذا الشأن) هذا فضلا عن غباء الخديو توفيق هو الآخر ٠ فعندما قرر مجلس الوزراء ، وكان برئاسة الخديو توفيق وقد حضره - كما يقول عرابى[٢] - : (جميع الباشوات المستخدمون والمتقاعدون من الترك والجركس ، وقرروا فيه ايقافنا نحن أمراء الآلايات الثلاثة الذين وقعوا على العريضة الآنفة الذكر ، ومحاكمتنا أقام مجلس فوق العادة ، فلاحظ رئيس النظار رياض باشا أنه اذا صار ايقافنا وجب ايقاف ناظر الجهادية ، والا تفاقم الخطر ، وخيفت نتائج جرأتنا ، فلم يوافق الخديو على ذلك ، وقال : ان ناظر الجهادية يضمن حفظ النظام ، فأكد ناظر الجهادية استعداده لحفظ النظام والقبض علينا بسهولة ثم دعى أحمد خيرى باشا رئيس الديوان الخديو ، وتلا بالمجلس أمرا عاليا مآله :

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : الزعيم أحمد عرابى ص ٣٥ - كتاب الهلال العدد ١٠ مارس ١٩٥٢ ٠

(أن الأمراء الثلاثة أحمد عرابى ، وعلى فهمى ، وعبد العال حلمى مفسدون ، وانه لذلك يقتضى ايقافهم من الخدمة ومحاكمتهم على افسادهم ومجازاتهم بالعقاب الصارم فى مجلس عسكرى فوق العـــادة تحت رئاسة ناظر الجهـادية عثمان بك رفقى ثم انفض المجلس) ٠

ويبدو من ملاحظة رئيس النظار من وجوب ايقاف ناظر الجهادية بدوره أنه أراد أن يلقى التبعة على الخديو توفيق فى اعتراضه ، فلا يحمل هو وزرها ويحملها توفيق ، مما يدل على خبثه ومكره ، كما يدل على سفاهة توفيق وخبل عقله ٠ وكان لسفاهته وخبل عقله ما أدى الى ثورة العرابيين ٠

وكشف عرابى اللعبة (فأخذنا حذرنا وهيأنا مايلزم لنجاتنا) ويقول : أنه ذهب فى الوقت المعين (وتلى الأمر الخديوى المؤذن بايقافنا ومحاكمتنا ثم نزعت عنا سيوفنا وساقونا الى السجن فى قاعة بقصر النيل ٠٠ فلا والله ما كانت الا هنيهة حتى جاءت أورطتان من آلاى الحرس الخديوى ، وأحدق رجالهما بديوان الجهادية ، رأسرع بعض الضباط والعساكر فأخرجونا من السجن ففر ناظر الجهادية ورجال المجلس وغيرهم من المجتمعين ، وقصدوا جميعا الى سراى عابدين ٠ ليحتمون بالخديوى ٠ وكان بطل عملية الانقاذ البكباشى محمد أفندى عبيد ، بطل معركة التل الكبير ـ فيما بعد ـ ويعد تاريخه صورة ناضرة للبطولة والوطنية فى تاريخ مصـــر الحديث ـ وسنعرض له فى حينه ، أما موقفه فى تحرير الزعماء الثلاثة فيما عرف بحادث ـ قصر النيل ـ فكان الباكورة لبطولة نادرة تسفر عن نفسها لدى المصريين عند الملمات ٠

---

(٢) مذكرات : الجزء الأول ص ٦٠ ٠

كان البكباشى محمد عبيد من ضباط الألاى الأول — آلاى الحرس الخديوى ، قبل الثورة العرابية ، ويعد بطل واقعة قصر النيل التى تعد أولى وقائع الثورة العرابية ، يروى عرابى ما كان منه ، فيقول[٣] :

« عندما علم ضباط آلاى الحرس الخـديوى بما لحقنا من الاهانة والسجن ، وتعيين غيرنا بدلا منا هاجوا وماجوا وثارت الحمية فى رؤوسهم ، وفى الحال أمر محمد أفندى عبيد البكباشى بضرب نوبة طابور للعساكر فاعترضه خورشيد بك بسمى القائمقام المعين حديثا ، وهدده بقطع رأسه ، وقال له أنا أمير الآلاى ، فلم يلتفت اليه وأمر بعض العساكر بوضعه تحت التحفظ وكانت الجنود قد اصطفت تحت السلاح فأخذهم وقصد قصر النيل لانقاذنا من السجن ، فاعترضه أيضا راشد باشا حسنى الفريق ، ولكن لم يجد ذلك نفعاً ، وكان الخديو مشرفا على العساكر من شرفة السلاملك فأمر بروجى قره قول السراى بأن يضرب نوبة حضور الضباط عند الخديو ، فلم يذهب اليه أحد ، ووقفت الأورطة الأولى حكمدارية البكباشى أحمد أفندى فرج فى ساحة عابدين ومعها بيرق الآلاى ، وكان وقوفها فى هيئة طابور لأجل حفظ الخديو مما عسى أن يطرأ من الأمور واستمرت الأورطتان الأخريان فى سيرهما الى أن وصلتا الى قصر النيل ، وأصدر البكباشى محمد عبيد أمره الى حكمدار الأورطة الثالثة على أفندى عيسى البكباشى بأن يذهب بأورطته الى الجهة الخلفية من قصر النيل ، وذهب هو

(٣) مذكرات : جـ١ ص ٦٢ .

بأورطته الى الجهة الأمامية ، ثم عين فرقة من العساكر لاقتحام الديوان الذى أوصدت أبوابه ومنافذه للبحث عنا واخراجنا من السجن ، فوقع الرعب فى قلب أمراء الجهادية الموجودين بالديوان،وأعضاء المجلس المعينين لمحـــاكمتنا من الأوربيين والجركس ، وطلب كل منهم النجاة لنفسه وفى جملتهم عثمان رفقى ناظر الجهادية ٠

وهكذا كان الشكر والفخر للبطل المقدام والشجاع الهمام محمد أفندى عبيد الذى كان انقاذنا من الهلاك على يديه » ٠

ويجمل عرابى فى كلمته الى ضباط وعســـاكر آلاى الحرس الخديوى ، وبعد أن أوصاهم بملازمة الهدوء والسكينة ، يقول لهم (اننا لا نطلب الا العدل والمساواة مع اخواننا الجراكسة والأتراك ، وأن لا يكون المصرى محتقرا فى نظر الأجناس الأخرى ، ونريد كذلك مجلسا نيابيا لحفظ حقوق آبائنا وأخواتنا وأبنائنا من ظلم المستبدين الظالمين) ٠

ويصف الرافعى ما كان بقوله : (فلما علم عيون الآلاى الأول باعتقال الضباط الثلاثة ، أسرعوا بالعودة الى مركز الآلاى بقشلاق عابدين ، وأنهوا الى ضباطه ما وقع ، فهاج الضـــــباط جميعا ، واعتزموا انقاذ أخوانهم ، ونهض البكباشى محمد أفندى عبيد مناديا الجند النداء العسكرى بالاحتشاد والتأهب للمسير ، فاعترضـــه قائمقام الآلاى خورشيد بك بسمى ، وسأله عن سبب هذا النداء ، فلم يجبه بكلمة ، وأمر بعض الجنود باعتقاله فى احـــدى قاعات القشلاق واصطف الجنود بأسلحتهم ، وساروا بقيادة محمد أفندى عبيد وقصد بهم الى قصر النيل حيث الضباط المعتقلون ، وبينا كان

الجند يستعدون للخروج من القشلاق ، علم الخديو بهذه الحركة وشهدها بنفسه من سلاملك السراى المقابل للقشلاق ، فأمر الفريق راشد باشا حسنى سر ياوره بأن يتوجه اليهم لوقف الحركة ، فلم تجد هذه الوساطة نفعا فاستدعى الخديو الضباط فلم يحضر أحد) ٠

(سار جنود الآلاى الأول من قشلاق عابدين الى قصر النيل فلما بلغوه وضع البكباشى محمد عبيد الحصار حوله ، وأمر بقية الجند بالهجوم على الديوان فهجم الجنود حـــاملين بنادقهم وفى أطرافها الرماح – سنك – واقتحموا الديوان – صائحين صاخبين ، فوقع الرعب فى نفوس القواد والضـــباط الموجودين بالديوان وفى مقدمتهم عثمان باشا رفقى – وزير الحربية – وبادروا الى الفرار ، أما عثمان رفقى فقد فر من احدى النوافذ الى ورشة الترزية يطلب النجاة لنفسه ولما لم يجده الجند اقتحموا بأسلحتهم غرفة أفلاطون وكيل الحربية وطلبوا انقاذ ضباطهم ، وفى أثناء ذلك أحاط فريق من الجند بأفلاطون باشا فرغب فى التخلص منهم فضربوه ، وهم استون باشا ، ولارمى باشا ، ودى بلتسن باشا بأغاثته فضربهم المتجمهرون ، وأخذ الجند يبحثون عن الضباط المعتقلين وتفرقوا لذلك فى جميع الغرف والاتجاهات ، وكسروا الأبواب والشبابيك ، وكل ماعاقهم عن السير الى أن وصلوا الى مقر الضباط الثلاثة ففك البكباشى محمد عبيد سراحهم) ٠

(وخرج الضباط الثلاثة من قصر النيل ظافرين، وساروا يحيط بهم الجند الى قشلاق الآلاى الأول بميدان عابدين ، وكان عرابى وصحبه على عهد مع ضباط الألايات الثلاثة أن يتضـــامنوا معهم ويبادروا الى نجدتهم اذا حل بهم مكروه) ٠

وما كان من ألايات الجيش الأخرى كان من الاى طره (الذى يرأسه عبد العال حلمى ، ملم يكد يعلم بما حل بعرابى وصاحبيه حتى

هب لنجدتهم) وكان معه ما كان من غيره ، فاعتقل الميرلاى الجديد الذى جاء ليتسلم القيادة مكانه ، مع من جاءوا بصحبته من طرف الخديو ومنهم أحمد بك حمدى الياور الخديوى ليخبرهم باطـــلاق سراح الضباط الثلاثة ويقنعهم بالعودة واطلاق سراح الضباط الذين اعتقلوا ، فلم يلقوا اليه بالا ومضوا فى مسيرتهم بقيادة خضر أفندى خضر الى ميدان عابدين (وتقدم مع ضـــباط الألاى الى عرابى وصاحبيه فهنؤوهم بالسلامة وتعانقوا فرحين مستبشرين) ٠

وكان الميدان قد غص بالجماهير التى جاءت لترى هذا المشهد الذى لم (يألفوه من قبل وعندئذ وقف عرابى خطيبا بأعلى صوته وأثنى على الضباط والجند واتحادهم لأنقاذه وانقاذ صاحبيه من السجن) ٠

وكانت بداية صفحة جديدة فى تاريخ مصر ، كتب لعرابى أن يلعب الدور الأول فى أحداثها ٠

وتبدو الصورة واضحة جلية بما جاشت به قلوب المصريين فى تلك الحقبة الحافلة من تاريخ مصر ، ولعلها تبرز كأقوى ما تكون فيما كان من الجند وهم يمثلون السواد الأعظم من الشعب ، فى حماسهم ، فكانوا يسبقون الضباط الى ما يبغون ، والجند هم روح المعركة ، فان لم يكن بينهم وبين ضباطهم وفاق خسروا المعركة ، وهو ما ندعوه ــ الروح المعنوية ــ فالجندى لا يواجه الموت الا فى سـبيل مبدأ يدين به ، ومثل أعلا ينشــده ، وهو ما يفســر حماس المصريين لعرابى وولائهم لجانبه ، حين رأوا فيه المثل الأعلى لما تجيش به نفوسهم ، وما تنطوى عليه ضمائرهم ، وكانت البداية فى تحول الحركة العرابية من حركة عسكرية الى حركة شعبية ، شعارها ــ مصر للمصريين ــ ٠

١/٧ ـ بين المهادنة والمغامرة

كان لقاء عابدين حدا فاصلا فى اتجاه الثورة العرابية ، فقد بدأت ــ كما رأينا حركة عسكرية ــ وكان من اليسير ألا تقع لولا جهل عثمان رفقى ، وغباء توفيق ، ومكر مصــــطفى رياض ناظر النظار ، وخداعه ، وتسليمه للانجليز ــ كما رأينا ــ ويتفق المؤرخون على من كانوا يحيطون بالخديو فى لقاء عابدين ، من الانجليز وعلى رأسهم مستر كوكسن قنصل انجلترا فى الاسكندرية ، والجنرال جولد سميث مراقب الدائرة السنية ، وقد أشار عليه مستر كوكسن (بأن يطلق غدراته على رأس عرابى · فالتفت اليه الخديو وقال : افلا تنظر الى من حولنا من العساكر ، (ثم صاح بمن خلفى من الضباط أن اغمدوا سيوفكم وعودوا الى بلكاتكم ، فلم يفعلوا وظلوا وقوفا خلفى ودم الوطنية يغلى فى مراجل قلوبهم ، والغضب ملء جوارحهم)(١) ·

فاذا سلمنا بحق الجنرال جولد سميث مراقب الدائرة السنية بالمشورة دون التدخل ، فاننا لا نسوغ تدخل المستر كوكسن قنصل

---

(١) عرابى : مذكرات الجزء الأول ص ٨٠ ·

انجلترا فى الاسكندرية ، الا أن تكون مصر قد أصبحت أيالة بريطانية وهو ما كان من بعد حين لجأ الخديو توفيق الى الانجليز يستنصرهم على ثورة مصر بقيادة الزعيم أحمد عرابى ، وهو ما أشار اليه الشيخ محمد عبده ، فيما بعد فى حديثه الى الصحيفة الانجليزية ـ بول ميل جازيت ـ وكان قد آب الى مصر بعد سنوات ست قضاها فى المنفى ، فقال عنه :

(ان توفيق باشا أساء الينا أكبر اساءة ، لأنه مهد لدخولكم بلادنا ، ورجل مثله انضم الى أعدائنا أيام الحرب ـ لايمكن أن نشعر نحوه بأدنى احترام ، ومع هذا اذا ندم على مافرط منه وعمل على الخلاص منكم ربما غفرنا له ـ لأننا لا نريد خونة وجوههم مصرية وقلوبهم انجليزية)(٢) ٠

ويرى الدكتور هيكل في تفسير ذلك ، أنه لو كان لتوفيق (سياسة معينة يومئذ لما وقع حادث قصر النيل ، لكنه كان مضطرب الرأي والسياسة جميعا لأنه كان يشعر بأن سنده الأخير ليس تركيا وليس الأمة المصرية مادام لايريد أن يعتمد على الأمة ، أو ينيلها شيئا من الحقوق التى تشعرها بكيانها ٠ على أن حادث قصر النيل لم يكف توفيق درساً فى وجوب تحديد سياسة يسير عليها لكيلا يكون دائماً معرضنا للتصادم مع القوى المختلفة المحيطة ، فمع شعوره بأن أباه اضطر للاستعانة بالأمة ولو استعانة صورية ممثلة فى مجلس شورى النواب ، فقد ظل حفيظا على مبدأ الحكومة المطلقة) ٠

وقد بدأت حركة الضباط عسكرية خالصة قاصرة على مطالب الضباط المصريين ، الا أن جهل الخديو توفيق حولها من اطارها

---

(٢) المؤلف : أحمد لطفى السيد استاذ الجيل الطبعة الأولى ص ٥٥ و ٦٦ الطبعة الثانية ٠

الخاص القاصر على المطالب العسكرية الى اطارها العام لتصبح قضية مصر عامة وحق المصريين فى حكم عادل يسود مصر جميعا ٠
فبقدر ما كان مسلك عرابى فى مواجهة الخديو بميدان عابدين مشوبا بالفطنة والكياسة ، كان مسلك الخديو ينم عن الحذر والخداع معا ، فلم يرض عن مسلك البارون ـ دى رنج ـ قنصل فرنسا العام لما أبداه من عطف على حركة الضباط وتدخله لدى الخديو لانصاف الضباط الوطنيين ، فطلب بالاتفاق مع رياض باشا من حكومة فرنسا عزله ، فغادر مصر فى أول مارس سنة ١٨٨١ (على كره من الضباط الوطنيين ـ كما يقول الرافعى ـ وكان نقله انتصاراً لوزارة رياض ، وقد اغتبطت السياسة البريطانية لهذا النقل ، لأنها كانت ترى فى البارون ـ دى رنج ـ عاملا مناوئا لها ومؤيدا للحركة الوطنية فى مصر)(٣) ٠

وفى هذا ما يؤيد ما قلته عن رياض باشا وأنه عميل بريطانى ٠ وقد كان من لقاء عرابى بالخديوى فى عابدين ما ينم عن الكياسة والتقدير من جانب عرابى فى حديثه مع الخديو ، وهو ما يرويه عرابى ، بقوله فى « حديثى مع الخديو » : (حتى اذا توسط الساحة طلبنى فتوجهت اليه لأعرض مطالب الأمة ، وكنت راكبا جوادى وسيفى فى يدى ، ومن خلفى نحو ثلاثين ضابطا ، فلما دنوت منه صاح بى أن ترجل واغمد سيفك ، ففعلت ٠٠ ولما وقفت بين يديه مشيرا بالسلام خاطبنى بقوله : ماهى أسباب حضورك بالجيش الى هنا ؟ فأجبته بقولى : جئنا يامولاى لنعرض عليك طلبات الجيش والأمة ، وكلها طلبات عادلة ـ فقال : وماهى هذه الطلبات ؟ فقلت : هى اسقاط الوزارة المستبدة ، وتأليف مجلس نواب على النسق الأوربى ، وابلاغ الجيش الى العدد المعين فى الفرمانات السلطانية ،

---

(٣) الثورة العرابية ص ٩٨ ٠

والتصديق على القوانين العسكرية التى أمرتم بوضعها ، فقال : كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها ، وأنا ورثت ملك هذه البلاد عن ابائى وأجدادى ، وما أنتم الا عبيد احساناتنا ، فقلت : لقد خلقنا الله أحرارا ، ولم يخلقنا تراثا وعقارا ، فوالله الذى لا اله الا هو اننا سوف لا نورث ، ولا نستعبد بعد اليوم !)[٤] ٠

وبقدر ما كان من كياسة عرابى وفطنته ، كانت رعايته للتقاليد والأصول المرعية ، فقام بأداء التحية العسكرية للخديوى ، وأطاع ما أمره به من اغماد سيفه أما الجنود وهم لا يتلقون أوامرهم الا من قائدهم المباشر فلم يلقوا بالا الى أمر الخديو ، وفى خطاب عرابى له يقول : (جئنا يامولاى) فلما قال له الخديو : (ما أنتم الا عبيد احساناتنا ، كان رده تعبيرا عما جاء من أجله ، فيقول ، قولته المشهورة _ كما ذكرنا من قبل ٠

ولعل ما فات عرابى _ كما أرى _ انه لم يبادر بعزل الخديو ، وكان من اليسير أن يجد التأييد من الدولة العثمانية ، كما يجد فى الموقف الدولى والتنافس بين انجلترا وفرنسا سندا ، يحول بين بريطانيا والمغامرة ، وقد اتخذت من انحياز توفيق ، لها سندا فيما سلكته من بعد ، وقد رأينا ما كان من خذلان الدولة العثمانية لاسماعيل واصدارها الفرمان بتولية توفيق ، وهو ما يعنى التسليم لها بسيادتها ان لم يكن نفوذها على مصر ، فعندما (حدثت واقعة قصر النيل رأت الحكومة التركية فى هذه الحادثة _ كما يقول الرافعى[٥] _ فرصة جديدة للتدخل فى شئون مصر ، وانتحال حق الاشراف عليها ، فقررت ارسال لجنة الى مصر للنظر فى الحوادث

---

(٤) مذكرات : الجزء الأول ص ٧٨ (حديثى مع الخديو) ٠
(٥) الثورة العرابية : ص ١٦٧ ٠

الأخيرة وقد عرفت هذه اللجنة بالوفد العثمانى ، وهو مؤلف من على نظامى باشا سر ياور السلطان عبد الحميد ، وعلى بك فؤاد من أعضاء مجلس شورى الدولة ونجل عالى باشا الصدر الأعظم المشهور ، وفى معيتها قدرى بك ، وصقر أفندى ، وسيف الله أفندى من ياوران السلطان) ٠

ويمضى الرافعى في سرد قصـــة الوفد العثمانى ، والتعليق عليها ، فيقول : (تحرك هذا الوفد من الأستانة يوم ٢ أكتوبر سنة ١٨٨١ قاصدا الى مصر ، ولم يســـبق تأليفه مخابرة بين حكومة الأستانة والحكومة المصرية ، حتى يعرف مقصدها من ايفاده ، بل فوجئت البلاد بتلغراف من الأستانة ينبىء بقيام هذا الوفد) ٠

ويقول الرافعى فى تجريح مسلك تركيا والحملة على السلطان عبد الحميد ، وما كان من سلوك كل من الدولتين فرنسا وانجلترا حيالها وقيامهما بمظاهرة بحرية واتفاقهما على (أنتعودالبارجتان من الاسكندرية حين مبارحة الوفد العثمانى أرض مصر) وقد أغفل مايمكن أن تفيده مصر من التنافس بين الدولتين فرنسا وانجلترا على النفوذ فى مصر ، كما أغفل أن الاحتلال البريطانى لمصر لم ينكر الســيادة العثمانية على مصــر ، فلم تلغ الا بعد اعلان الحماية البريطانية على مصــر وعزل الخديوى عباس حلمى الثانى سنة ١٩١٤ ٠

أما عرابى فيقص فى مذكراته ـ ما لقيه الوفد العثمانى من جفاوة وكيف (أطلقت مدافع السلام من وابور محمد على وطابية رأس التين ، كما أديت التحية من بقية المراكب المصرية الراسية فى الميناء ، وتوجه ذو الفقار باشا سر تشريفاتى خديوى ومعه المحافظ ومأمور الضــبطية وفريق ألايات الاسكندرية ووكيل البحرية الى الوابور ـ طليعث ـ وبلغوا حضرات القادمين سلام الخديو٠٠الخ)

ويقول عرابى: (مكث رجال الوفد فى مصر بضعة عشر يوما اقيمت لهم فى خلالها المآدب الفاخرة ، أما الخديو فقد اكد لهم بأن الجيش على طاعته ، وأن ليس فى مصر ما يوجب الاضطراب .. وفى ١٨ اكتوبر سنة ١٨٨١ سافر الوفد الشاهانى الى الاسكندرية مقتنعا بما رأى وسمع ، وفى صباح اليوم التالى اقلته البارجة - طليعت - الى الآستانة ، وقد أطلقت المدافع ايذانا بسفرهم واجلالا)(٦) .

ويعنى هذا ما للدولة العثمانية على مصر من حق السيادة رغم ما كان من سعي الخديو للاستقلال عنها ، وأكثر من السيادة أنها حاضرة الخلافة الاسلامية ورغم ما نالها من ضعف وخلل السلطة بقيت لها مكانتها بين السواد الأعظم من المسلمين فى العالم سامقة الذرى .

وبعد هذا الوصف الذى ساقه عرابى لما لقيه الوفد من حفاوة يقول : (علم الجميع أن مجيء الوفد الشاهانى هو لتحقيق التمرد العسكرى الذى أشاعته أوربا لتجعله وسيلة لتتداخل فى افساد ماتم من الاصلاحات فى القطر المصرى ، ولقد هاجت الأفكار واضطربت خواطر رجال الاستبداد واوجس الخديو من جراء ذلك شرا ، فاتفق مع الوزارة الجديدة على أن لا يسمح لرجال الوفد المذكور بمقابلتنا، وأن يعترف الخديو بأن لا تمرد ولا عصيان فى الجيش ، وأن الجيش على طاعته ولا موجب للاضطراب ، وأنه يلزم ارسال الآلاى السودانى الى دمياط ، والآلاى الرابع حكمداريتى الى رأس الوادى) .

وعندما جاء الوفد العثمانى الى الاسكندرية يوم الخميس

---

(٦) مذكرات : الجزء الأول ص ٨٦ - ٩٠ .

٦ اكتوبر سنة ١٨٨١ ووصل أعضاؤه القاهرة مساء اليوم نفسه وقبل ذلك كان شريف باشا قدألف وزارته فى ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨١ واختير البارودى وزيرا للحربية والبحرية ، وهدأ كل شىء ولم يجد الوفد العثمانى عند وصوله ما يحمله على التدخل . بل أن عرابى نفسه نزل على أمر الخديو فى عدم مقـــابلة الوفد ، ولا يفســـر عرابى ما ذكره من أمر الخديو بأنه (يلزم ارسال الألاى السودانى الى دمياط والألاى الرابع حكمداريتى الى رأس الوادى .. هذا ماتم الاتفاق عليه بين الخديو والوزارة ، وقد أخبرنا ناظر الجهـــادية محمود سامى باشا بكل ذلك فوافقنا عليه مبدئيا تطمينا للنفوس وتسكينا للقلوب ، ولكن على شرط صـــدور أمر الخديو بانتخاب النواب قبل سفرنا)(٧) .

بينما يرى الرافعى . (أن رغب شريف باشا فى نقل زعماء الحركة من القاهرة الى الأقاليم لكى يخفف ضغط الحزب العسكرى على الحكومة ، ويحقق مبدأه الذى تولى الوزارة على أساسه وهو ابعاد الجيش عن السياسة جهد المستطاع ، وقد أقنع عرابى وصحبه بأن مصلحة البلاد تقضى بابعاد الألايات التى يتولون قيادتها عن العاصمة حتى تهدأ الخواطر .. ويضيف أن (زاد فى حجة شريف باشا ارسال الحكومة التركية وفدا الى مصر .. لتحقيق أسباب تمرد الجيش وخروجه على الخديو .. ولكى يمنع الاتصال بينهم وبين الوفد العثمانى القادم فلا ينفسح المجال أمامه للدس والتفرقة فاقتنعوا بهذه الحجة ، واستقر رأى وزارة الحربية على نقل ألاى عبد العال حلمى الى دميـــاط ، وألاى عرابى الى رأس الوادى بالشرقية ..)

---

(٧) مذكرات : الجزء الأول ص ٩٠ ـ ٩١ .

ويصف الرافعى ما لقيه سفر الآلايين الى مقرهما الجديد من حماسة الأهلين وعواطفهم نحو الجيش .. الخ ..

ويضيف : (أنه فى الفترة الوجيزة التى أقامها عرابى براس الوادى كان محفوفا بأعظم مظاهر التكريم والتمجيد ، ولا غرو فان ما تم على يده من سقوط نظام الحكم الاستبدادى وانبثاق نور الحرية والدستور ، ووجوده فى المديرية التى هى مسقط رأسه ، كل ذلك من شأنه أن يبعث الحماسة فى نفوس الأهلين ويجمعهم على محبته وتمجيده)(٨) . ترى لو أن عرابى قد انتهب هذه البادرة ، وقد رأى اجماع الجند والشعب على زعامته وأقدم على عزل الخديو أما كان ذلك أجدى وأوفق ـ كما قلت ـ الا أن عرابى كان أقرب الى المهادنة منه الى المغامرة وكانت الوطنية زاده دون المغامرة السياسية ، وكان وطنيا عظيما دونه سياسيا مغامرا ، وان كان صاحب الفضل الأكبر فيما انتهت اليه مصر فى ثورتها العظيمة سنة ١٩١٩ .

---

(٨) **الرافعى** : الثورة العرابية ص ١٥٢ ـ ١٥٦ .

١/٨ اللعبة الكبرى

وكانت اللعبة الكبرى أبعد من أن يعيها اللاعبون على المسرح فى سياسة مصر الدخلية ، وأولهم الخديو توفيق بخبثه ومكره ، وأخيرا بخيانته حين أخذ جانب الانجليز حماية لعرشـــه ، فذهب مذموما بل وملعونا فى تاريخ مصر الحديث ، ولا نعفى شريف باشا بأصالته ونبله فيما ذهب اليه بصدقه وايمانه بحق مصر فى حياة دستورية سليمة ..

كان عرابى قد تسلم القمة فى زعامته(١) الوطنية،وقد بدا ذلك جليا حين استجاب لرأى شريف باشا فى الابتعاد عن مركز الأحداث فى القاهرة ، وارتحل بلوائه الى رأس الوادى ، وحـــدث حينذاك مايمكن أن يكون نذيرا بما يمكن أن يحدث ، وهو ماحدث فعلا فيما بعد حين تطورت الأحداث الى مصيرها الباغى ، اذ لم ترض الدولتان انجلترا وفرنسا عن حضور الوفد التركى الى القاهرة ، وكان أن أرسلتا بارجتين الى مياه الاسكندرية ، فلا تبرحانها الا بعد مغادرة الوفد التركى أرض مصر ، وكان أن غادرتا الميناء غداة سفر الوفد

---

(١) الثورة العرابية ص ١٧٠ .

التركى يوم ٢٠ أكتوبر ١٨٨١ ، ويقول الرافعى أنها (كانت أول مظاهرة من هذا النوع ، والمظاهرة الثانية وقعت فى شهر مايو سنة ١٨٨٢ ، ويلاحظ أن البارجة انفنسـبل هى احدى البوارج التى اشتركت فى ضرب الاسكندرية يوم ١١ يوليه سنة ١٨٨٢) ٠

ومما هو قمين بالاشارة أن الخديو توفيق لم يكن راضيا عن تسليمه بمطالب الجيش وتأليف وزارة شريف باشا الثالثة (فأبرق سرا الى الأستانة يستنجد يوم عابدين وهذا هو نص البرقية : حيث أن عرابيا رأس الفساد قد استتبع أكثر العساكر المصرية فتابعوه باى وجه كان ـ كما عرضت اليوم ـ حتى أحاط وحاصـر الآن بالعساكر قصر عابدين الذى أنا مقيم فيه ٠ وأخذ يطالب بالحرية وتشكيل مجلس الحلة وتبديل هيئة النظار ، فبالنظر الى أن اصلاح هؤلاء جاوز حد الامكان أرجو ارسال عشرين طابورا من العساكر على جناح السرعة على أن يكونوا تحت قيادتى والأمر فى هذا الشأن لمن له الأمر ٠٠٠ غير أنه بعد تأليف وزارة شريف وانتهاء الأزمة ، عاد بناء على رأى مستشاريه من الأجانب ، فأبرق الى الباب العالى يحيطه علما بانتهاء الأزمة ، وتولى شريف باشا زمام الحكم ويرجو صرف النظر عن ارسال العساكر)(٢) ٠

وحين نزل عرابى على رأى شريف باشا وغادر القاهرة الى رأس الوادى كان قد تسنم القمة ـ كما قلنا من زعامته الوطنية ٠ يشهد بها أحمد شفيق باشا فى ـ مذكراتى فى نصف قرن ـ وهو من رجال الخديو وحاشيته ، فيقول :

---

(٢) أحمد حسين المصدر السابق ص ١٠٧١ نقلا عن بعض وثائـق تاريخية انتقاها وأمر بطبعها وترجمها الأمير محمد على بن توفيق عـام ١٩٤٨ ٠

(انقلبت مصر مسرحا للخطباء فى كل مجتمع وناد حتى فى المساجد ، ولم يبق مجلس للسمر ، أو الاحتفال بعرس أو غيره الا اقتحمه الخطباء واعتلوا منصة المغنين بعد اقصائهم عنها وغيرهم ، حتى لقد سمعت أن محمد عثمان المغنى الشهير كان اذا سئل فى أى فرح تغنى الليلة ؟ أجاب فى الفرح الفلانى مع عبد الله نديم ـ خطيب الثورة ـ وكثيرا ما كان الخطيب يستصحب معه طلبة المدارس ، وبعد خطابته يقدم أحدهم الى الجمع ليخطب بجانبه فينبرى الطالب مثيرا فى الحاضرين الغيرة والحمية ، وقد شهدت عبد الله النديم يقدم فتحى افندى زغلول (باشا) فيما بعد ـ الطالب بمدرسة الحقوق ليخطب فى حفلة ٠

وقدم فى مرة أخرى فى احدى الحفلات مصطفى أفندى ماهر (باشا) فيما بعد ـ فخطب فى القوم وراقتهم خطبته ٠ فقال عبد الله نديم : اشهدكم أيها الناس أن أمة يكون هذا مقدار التلميذ فيها لا يغلبها أحد على أمرها) ٠٠

ويمضى أحمد شفيق باشا ، فيقول :

(وكان عرابى والبارودى ، وعبد العال حلمى . وعلى فهمى وغيرهم من زعماء الحركة يحضرون أكثر هذه الحفلات ويتصدرونها فتلقى الخطب والقصائد فى مدحهم وتقديم مناقبهم ، ولا ينصرفون عنها الا بالتهليل والتكبير فاذا انتهت خرج الناس منها وكأنهم أهل سياسة ورياسة ، وأصبح الناس كلهم عرابى وأصبح عرابى الناس كلهم ٠٠ وانحلت الطبقات واختلط الحابل بالنابل والعالى بالسافل ٠

وقد كان عرابى يمثل فى شكل البطل المنقذ ، وقد وزعت صورته فى انحاء البلاد وهو جالس ينظر نظرات بعيدة ، وعلى رأسه عبد العال قابضا على سيفه والى جانبه على فهمى يمسك بيده ورقة مطوية كتب عليها ـ الدستور ـ)

(وهكذا سرت الروح العرابية فى الأمة بأسرها وجعلت كل الطبقات فى صعيد واحد ممتزج بعضها ببعض) انتهى كلام شفيق باشا ٠

ويمضى أحمد حسين فى موسوعته لينقل ـ تصور مستر بلنت ـ فيما يلى :

(كانت الأشهر الثلاثة التى أعقبت هذه الحادثة الشهيرة ـ حادث عابدين ـ من أسعد الأوقات التى مرت بمصر من الوجهة السياسية ٠ ويسرنى ما حظيت بمشاهدتها بعينى رأسى ، ولو أنى كنت سمعت بها سماعا لشككت فيها ، وعندى أنها لم تكن لها شبيه فى تلك الأيام التى رأيتها فى مصر ، وأخشى أن تكون مقطوعة النظير فى الأيام التى يمكن أن أراها فيها ، فجميع الأحزاب الوطنية وجميع سكان القاهرة اتحدوا لتحقيق الفكرة الوطنية ، وقد شاركهم الخديو فى ذلك على ما ظهر يومئذ للناس ، وكان قد سر بعد الأزمة بنجاح دسيسته ضد رياض والمراقبة الثنائية البغيضة . وقد وثق بأن شريف لابد أن يخلصه عاجلا أو آجلا من عرابى ٠٠)

(ثم أن شريفا وزملاءه من وجهاء الأتراك لم

يكونوا أقل سرورا بعودة السيطرة اليهم ، بل أن الأتراك الرجعيين أنفسهم قد سروا بما سموه انتصارا على أوروبا) ..

(وتصاعدت من أنحاء مصر صيحة فرح وسرور لم يسمع بمثلها على جوانب النيل منذ مئات السنين وقد حدث فعلا أن الناس كان يستوقف بعضهم فى شوارع مصر ويتعانقون على غير تعارف سابق ، ويبتهجون معا لعصر الحرية المدهش الذى بدا لهم فجأة، كما يبدو الفجر بعد ليل مخيف طويل ، وكانت الصحافة قد أسرعت تنشر الأنباء السارة وقد حررتها رقابة الشيخ محمد عبده المستنيرة من قيودها السابقة ، واستطاع الناس أن يجتمعوا ويتكلموا بلا خوف أينما شاءوا فى الأقاليم ..

وبلا وجل تدخل البوليس والجواسيس ، وقد سرت عدوى السرور الى كل الطبقات ، فالمسلمون والمسيحيون واليهود قد سروا جميعا ، وشاطرهم السرور جماعة الأوربيين الذين كانت لهم صلات وثيقة بالحياة الوطنية، وقد اعترف القناصل الأجانب أنفسهم بأن العصر الجديد خير من العصر القديم ، وان رياضا قد أخطأ وأن أعمال عرابى اذا لم تكن كلها سديدة فليست كلها أخطاء) .

ويقول بلنت أنه تعرف على أحمد عرابى فى تلك الفترة ـ ١٢ ديسمبر ـ (وعرض عليه صداقته فقبلها ، ومن ثم أصبح مستشارا لعرابى فى الشئون السياسية وبخاصة علاقة مصر ببريطانيا) ، ويرى أحمد حسين (أن هذه الصداقة كان لها أثر مضلل اذ حجبت الرؤيا

عن عرابى ، وجعلته يطمئن ويركن الى ما كان صاحبه بلنت يعده به ويمنيه)[٣] ٠

أما وقد رأينا من حديث شفيق باشا ، وما كان من رأى بلنت فان علينا أن نعرض لما كان من حفاوة الشعب بعرابى فى سفره الى الوادى الجديد وقد سبقه سفر الألاى السودانى الى دمياط ، ويقول عرابى[٤] :

(سافر عبد العال بك حلمى بالآلاى السودانى الى محطة السكة الحديدية مارا بوسط المدينة ، وكان قد سبقه اليها معظم ضباط الجيش وضباط البوليس للقيام بواجب التوديع ٠ وكان عدد الحضور غير قابل للعد والأحصاء ، ولما وصل الآلاى المذكورة الى المحطة أخذ عنانى بك من أعيان القـــاهرة ينثر الورد والرياحين على رؤوس ألعساكر وقد سقى الناس شرابا سكريا فى ذلك اليوم اكراما للجيش المنقذ للبـــــلاد من هاوية الاستبداد ، وكنت حينذاك مع ناظر الجهادية محمود سامى باشا فى جملة المودعين وتلا كل من محـــــررى جريدتى الطائف والمقيد ـ السيد عبد الله النديم والسيد حسن الشمسى ـ خطابا تضمن المدح والثناء علينا وعلى هيئة الجيش ٠٠٠ الخ ٠٠

(وفى ٨ أكتوبر سنة ١٨٨١ تأهبت للسفر الى رأس الوادى ، وكان قد صدر الأمر العالى بانتخاب النواب قبل ذلك بأربعة أيام ٠ فمررت بالآلاى فى وسط مدينة

---

(٣) **المصدر** السابق ص ١٠٧٦ ٠

(٤) **مذكرات** الجزء الأول ص ٩١ ٠

القاهرة المحروسة من باب النصر والموسيقى العسكرية تعزف فى مقدمة الألاى) ٠

وما أن ينتهى عرابى وبعض الضباط من زيارة المقام الحسينى والدعاء أن يوفقه الله لما فيه خير البلاد ونفع العباد ، (ثم خرجنا وسرنا بالألاى على الهيئة السالف ذكرها) :

(وكانت الشوارع ممتلئة بالمودعين والمتفرجين الى أن بلغنا محطة السكة الحديدية ، وكان قد سـبق اليها جميع ضباط الجيش المصرى ورؤسائه وكثير من الذوات والتجار وعامة الناس ، وبالجملة فان هذا الاحتفال كان فى ذلك اليوم مما لم يسبق له مثيل فى مصر ، فقمت فى الحاضرين خطيبا قبل سفرنا) ٠

ويتناول عرابى فى خطابه هذا ما قامت حركة الجيش من أجله ، ويذكر الخديو بالخير فيقول : (وقد ساعدتنا العناية الالهية ومنحنا ــ مولانا وأميرنا الخديو ما طلبناه من سقوط وزارة المستبد علينا السائر بنا فى غير طريق الوطنية ، وتمتعنا بمجلس الشورى لتنظر الأمة فى شئونها وتعرف حقوقها كباقى الأمم المتمدنة فى العالم ٠٠ فالآن ننادى بصوت واحد ــ فليعش الخديو واهب الحرية ، فلعيش بالجيش المصرى طالب الحرية ، فلتعش الحرية فى مصر خالدة مؤبدة) ٠

ويصف مالقى من حفاوة فى كل محطة مربها (الى أن دخل القطار محطة الزقازيق فاستقبلنا فيها جمهور الأهالى والتجار يتقدمهم أمين بك الشمسى وهتفوا لنا وللجيش بالدعاء وعلى وجوههم علامة الفرح والسرور ، ولما وقف القطار نثروا على العساكر الورد والازهار العطرية وسقوهم الأشربة السكرية) ٠

ومع مايبدو من محاولة عرابى ترضية الخديو والتنويه بطاعته فيقول ما سبقت الاشارة ، فان أحدهما لم يكن يثق بالآخر ، وليس لذلك من تفسير الا أن عرابى لم يكن يجب أن يلجأ الى مواجهة عنيفة أو لأنه يدرك أن توفيق يجد السند من الانجليز ، وهو مايخشاه فحذر المبادرة وكان أولى به أن يبادر قبل أن يبادر ، وأن تكون المبادأة منه قبل أن تفرض عليه ، كما حدث من بعد ـ كما أشرت من قبل ، وكان ما كان .

كان عرابى قد تسنم الذروة من حب المصريين واجماعهم على زعامته ، فلم يحاول أن يفيد منها ، فيقول فى صـــدد عودته الى القاهرة من الوادى الجديد :

(بلغ الحكومة من جواسيسها انى أتجول فى أنحاء مديرية الشـــرقية لبث مبادئى وأفكارى فى نفوس عمد البلاد ومشايخ العربان ، حاضا على وجوب مؤازرتى فى مشروعاتى الوطنية ، وأن كثيرا من المظلومين يأتون لى شاكين من ظلم الظالمين فأجبت طلبها)(٥) .

ويبدو أن عرابى ـ كما قلت ـ كان مثاليا أكثر منه واقعيا ، وكان وطنيا أكثر منه سياسيا ، ويذكر بعد عودته الى القاهرة كيف أصبحت داره محج (الزائرين والمتظلمين من أرجاء البلاد وأكنافها ، حتى كانت ساحة منزلى لاتسع الزائرين والمتظلمين ، وكان كثير من الأوربيين ومكاتبى الجرائد الأفرنكية والوطنية يحضرون الى منزلى لاستطـــلاع سيـــاساتى والوقـــوف على مكنونات أفكـــارى بحيث كنت فى تعب دائم ليـــلا ونهـــارا) ويقول لهم : (وانا لا نريد الا الحـــرية وقطع عـــروق الاستبداد ، وقـــد تـــم لنـــا ذلك بتأليف مجلس نيـــابى وبرضـــاء واستحســـان الخديو ، وقد التمست من الخديو فى تلك المدة بواسطة ومساعدة

---

(٥) مذكرات : الجزء الأول ص ٩٨ .

ناظر الجهادية ورئيس النظار الافراج عن المسجونين ظلما فى مدة الاستبداد فأجيب التماسي ، وكان من ضمن أولئك المسجونين أحمد بك أبو ستيت من مديرية سوهاج ، والسيد حسن موسى العقاد من أعيان العاصمة ، وكانا منفيين الى السودان ظلما وعدوانا ، ولما قدم السيد حسن موسى العقاد أقام الأفراح وأولم ولائم كثيرة لضباط الجيش وأعيان العاصمة تعد من ليالى مصر المشهورة ، وفى تلك المدة أيضا أنشئت جرائد وطنية صادقة منها جريدة الحجاز ومحررها السيد ابراهيم سراج المدنى ، وجريدة المقيد ومحررها السيد حسن الشمسى ، ولسان الأمة ومحررها السـيد عبد الله نديم ، وكان موضوعها سياسيا تهذيبيا للذب فى حقوق الأمة)(٦) ٠

وكان عرابى - كما يبدو - يميل الى المسالمة ويأبى التطرف - ولا أقول يخشاه - وقد حدث أوائل شهر يناير سنة ١٨٨٢ - وكان عرابى فى قمة مجده وزعامته والتفاف الشعب حوله ، (أن خلوت بالمغفور له محمود باشا سامى ناظر الجهادية ، فأطنب فى الثناء على لقيامى بنشر راية الحرية فى مصر وملحقاتها من بعد مضى خمسة آلاف سنة على المصريين وهم يرسفون فى قيود الاستبداد، ثم أقسم انه مستعد لأن يضحى حياته ويجود بآخر نقطة من دمه فى تنفيذ رغبتى ، ويجرد حسامه ويناوىء ما سمى خديويا لمصر اذا رغبت فى ذلك ٠

فقلت له : مه يا محمود باشا ، فانى لا أريد الا تحرير بلادى ولا أرى سبيلا لنوالنا ذلك الا بالمحافظة على الخديو ، كما صرحت بذلك مرارا وتكرارا ٠ وليس بى طمع أصلا فى الاستئثار بالمنافع الشخصية ولا أريد انتقال الأريكة الخديوية الى عائلة أخرى لما فى ذلك من الضـرر مـع علمى بأنك تنتسب الى الملك الأشـرف

---

(٦) المصدر السابق ص ١٠٠ ٠

ـ سيرباى ـ فقال : أنا لا أقول لك الا حقاً ، وأنت أحق بهذا الأمر منى ، وممن غيرى ٠

فشكرته على ثقته بى وتم الحديث) ٠

وان كان عرابى ـ كما يبدو ـ قد فكر فى عزل الخديو مالم يسلم بطلبات الجيش فى حادث عابدين ـ كما جاء فى عنوان مذكراته ـ كدنا نعزل الخديو(٧) ـ وان لم يدل بتفصيل الا ما كان من حديثه مع ـ المستر كلفن المراقب المالي الانجليزى ، وقد جاء بالنيابة عن الخديو كرسول من طرفه ـ ويقول لعرابى : ـ علمت من كلامك أنك ترغب فى تنفيذ اقتراحاتك بالقوة ، وهذا أمر ينشأ عنه ضياع بلادكم وتلاشيها ٠

ويرد عرابى : (وكيف يكون ذلك ومن ذا الذى يعارضنا فى أحوال داخليتنا ، فاعلم أننا سنقاوم من يتصدى لمعارضتنا أشد المقاومة ، الى أن نفنى عن آخرنا ٠٠ وعند الاقتضاء يمكن أن نحشد مليون من العساكر يدافعون عن بلادهم ، يسمعون قولى ويلبون اشارتى) ٠٠

وأول ما يكون من ذلك فى مثل هذه الأمور قطع رأس الحية ـ والحية هى الخديو أساسا ٠ وهو ما كان من عرابى ، حين تأزمت الأمور بينه وبين الخديو ، وبدا منه انحيازه للانجليز واستعانته بهم ، وهو ما نعرض له فى حينه ، وقد رأى حينذاك عزل الخديو ، (وكانت فكرة عزل الخديو قد أصبحت دعوة عامة يدعى اليها ، حتى وصل الأمر الى حد أن الشيخ عيسى شيخ الأزهر أصدر فتوى رسمية بأن الخديو لم يعد يصلح أن يكون واليا على المسلمين ، ويجب خلعه)(٨) ٠

---

(٧) مذكرات : ج ١ ص ٨٠ ٠

(٨) أحمد د.. : المصدر السابق ص ١٠٨٧ ٠

١/٩ ــ الصحوة الكبرى

من الخطأ أن نحكم على الثورة العرابية أنها ثورة جند من أجل المساواة بينهم وبين أندادهم من الترك والجركس فى الحقوق والامتيازات ، فانها وان بدأت تلك البداية الا أنها انتهت بالمطالبة بحق الأمة فى الدستور والحكم النيابى والمساواة التامة فى الحقوق والواجبات ، تلك المساواة التى يكفلها الدستور كما يكفل العدالة للجميع أمام القانون .

ولم تكن الحركة الدستورية حركة العسكريين فقد سبقهم اليها اعضاء مجلس شورى النواب ، وكانوا صفوة أعيان الأمة ، فاستطاعوا ان يظفروا بتحقيق مبدأ المسئولية الوزارية سنة ١٨٧٩ وذلك فى كتاب الخديو اسماعيل الى شريف باشا بتأليف الوزارة الجديدة ، وهى الوزارة التى أنيط بها وضع دستور للبلاد يحقق مطالب الوطنيين ، وان لم يتح للدستور الذى وضعه أن يرى النور ، اذ خلع اسماعيل قبل أن يصدر المرسوم الخديوى به ، وبعد خلعه ببضعة أيام صدر القرار بفض مجلس شورى النواب ، واستمر

---

(١) راجع فى هذا الصدد كتابنا ــ أحمد لطفى السيد ــ الفصل الأول (حيوية التغير) ص ١٣ وما بعدها .

معطلا مدة عامين حتى عاد على أيدى العرابيين فى ديسمبر سنة ١٨٨١ ·

ولم يفرط هؤلاء النواب فيما يظنونه حقا من حقوقهم الدستورية حتى وان كانت الحكمة تقضى بالتريث فى كسبه ، فحين رأوا اعتراض الانجليز والفرنسيين على ما نص عليه الدستور الجديد الذى وضع فى عهد توفيق من حق النواب فى نظر الميزانية واقرارها ، ورأى أن الحكمة تقضى بالأغضاء عن هذا الحق حتى لايصطدم بالدولتين اللتين تتحرشان بالبلاد ، تمسك النواب بحقهم كاملا ، ورفضـــوا الانصياع لرأى شريف مما أدى الى استقالته وتأليف وزارة البارودى واقرار الدستور بالشكل الذى أرادوه عليه كاملا غير منقوص ·

فالحركة الدستورية قد بدأت قبل أن تبدأ الحركة العرابية ، وكان الأعيان من أعضاء مجلس شورى النواب قادتها وعدتها ، وحظيت بتأييد الخديو اسماعيل رغم اســـتبداده وميله الى الحكم المطلق ، ولكن العوامل التى حملته على تأييد مطالب الوطنيين كانت أقوى من كل نزعة تساوره نحو الاستبداد والحكم المطلق ، فقد رأى السلطة تخرج من يديه ، ورأى النفوذ الأجنبى الممثل فى الوزيرين الانجليزى والفرنسى يقضى على نفوذه وانفراده بالسلطة ، ورأى فى معارضته الوطنيين للنفوذ الأجنبى سندا له أمام هذا النفوذ ، فانحاز اليها وسار فى تيارها ، وهو نفس الاتجاه الذى سار فيه الخديو عباس الثانى فى بداية حكمه ، حين رأى كرومر يستأثر دونه بكل نفوذ وسلطان فى البلاد فسار فى تيار الحركة الوطنية مؤيدا للزعيم الشاب مصطفى كامل ، علها تصل به الى استعادة نفوذه اذا ما أنجاب النفوذ الانجليزى عن البلاد ، ثم انقلب عليها حين رأى الاحتلال يمد له فى سلطانه بعد الوفاق بينه وبين جورست وقد حل محل كرومر قنصلا عاما لبريطانيا ·

ولم تكن تلك الحركة الدستورية التى بدت تسفر عن معالمها أخريات حكم اسماعيل ، وليدة الظروف التى ساقت اليها ، وأولها الأزمة المالية والتدخل الأجنبى ، بل انها أعمق جذورا من ذلك ، اذ ترجع الى ظهور طبقة جديدة من الأعيان المصـــريين أتيح لها أن تشارك مشاركة محدودة فى شئون البلاد عن طريق مجلس شورى النواب الذى كونه اسماعيل ليبدو فى نظر الغرب حاكما دستوريا مستنيرا ، كما ترجع الى حركة فكرية جديدة كان رائدها جمال الدين الأفغانى ، وغذتها صحافة ناشئة وشباب مستنير أخذ يلتف حول داعية الشرق العظيم ، كما كان لامتداد الموجة الغربية الى مصر واتصال مصر بأوربا وظهور طائفة من الشباب تعلم فى الأزهر وفى المدارس الحديثة أثرها البعيد فى ذلك ، فقد أخذ هذا الشباب يعنى بشئون بلاده ، ويبرم بالسياسة العشوائية التى يسير عليها اسماعيل ولا يجد متنفسا لاعلان سخطه على استبداده وجوره ، وطموحه الخادع المخدوع الا فى مجالسه وندواته الخاصة التى وجد الأفغانى فيها أعظم منتدى لأفكاره وتعاليمه ·

وقد تشيع اسماعيل للمطالب الدســـتورية حين قبل اللائحة الوطنيـــة التى تقدم بها فى ابريل ١٨٧٩ ، على ما تذكر الوقائع المصرية (جمعية حافلة من حضـرات أعضاء شـــورى النواب ، والعلما الأعـــلام ، والذوات الفخام والمأمورين الكرام ، ووجوه البلد وأعيان المملكة ومعتبرى الأهالى ممهورة بتوقيع ســتين من أعضاء مجلس شورى النواب ، وستين من العلماء والهيئات الدينية وفى مقدمتهم ـ كما يقول الرافعى ـ شيخ الاسلام وبطريرك الاقباط وحاخام الاسرائيليين ، واثنان من الأعيان والتجـــار ، واثنان وسبعون من الموظفين العاملين والمتقاعدين ، وثلاثة وتســـعون من الضباط ، وكان على رأس تلك الحركة شريف باشا التركى الأصل بينما وقف رياض باشا ـ المصرى الأصل ـ كما يقال زورا وادعاء ـ

لا يتشيع لها ولا ينصرها ويمالىء للنفوذ الأجنبى ويقره على التخلص من مجلس شورى النواب)(٢) ٠

ويذكر عرابى فى مذكراته أن مطالب الضباط لم تكن قاصرة على انصاف رجال العسكرية المصريين ، بل عدتها الى المطـــالب الدستورية ، وان كان الرافعى يشكك فى هذا ويرى أن عريضـــة الضباط كانت قاصرة على المطالب العسكرية الا أن هذا لا ينفى تفكير عرابى وزملائه فيما تجيش به نفوس المصريين من عواطف وانفعالات ، وقد رأى وشهد وأحس من تأييد المصريين فى غدوه ورواحه ما تجيش به نفسه منذ أحس بها ولمسها ـ كما يقول فى مذكراته ـ فى كلمة سعيد باشا فى المأدبة الكبرى التى أقامها بقصر النيل ـ مما سبقت الاشارة اليها ٠ وقد بقيت كامنة فى وجدانه يورى ضـــرامها مالقى من بعد فى عصر اسماعيل ٠ مما ينفى ماذهب اليه الرافعى ٠ وغدت عبارة ـ مصر للمصريين ـ نبض حياته ، وقوام ثورته ٠٠

وما كان لعرابى أن ينمثل تلك الكلمات ويعيها طوال تلك السنين التى سبقت قيامه بحركته مالم يكن مؤمنا بها فى قرارة نفسه ، ايمان كل مصرى بها ، فأن عبارة ـ مصر للمصريين ـ قد غدت بعد ذلك شعار القومية المصرية ، ذلك أن مصر لم تكن ملكا لبنيها ، بل ملكا لأسرة تحكمها وتستأثر بخيرها منذ حكمها محمد على ، وجعل منها ضيعة لأسرته وحاشيته ومن اصطفاهم من غير المصريين ـ كما بينا من قبل ٠

---

(٢) المؤلف : احمد لطفى السيد استاذ الجيل : الفصل الاول ـ حيوية التغير ص ٣٢ وما يلى وكذلك الرافعى : عصـــر اســـماعيل جـ٢ ص ٢١٤ وما بعدها ٠

ولم تكن المطالب الدستورية الا أداة لتحقيق المساواة بين المصريين والأتراك ، وحين استشرى النفوذ الأجنبى ، تشيع لها لانقاذ بلادهم من المؤامرة الاستعمارية التى توشك أن نطبق على بلادهم ، وللقضاء على امتيازات العناصر التركية والخديو والأتراك للابقاء على نفوذهم الذى يوشك أن يضيع أمام التدخل الأجنبى ..

وكان الأعيان والمثقفون والضباط المصريون هم رواد تلك الحركة وزعماؤها ، وما كان لتلك الحركة أن تبدأ مالم تستكمل طبقة الأعيان كيانها الاجتماعى ، وجماعة المثقفين كيانهم الفكرى ، ومالم يصل الضباط المصريون الى مناصب القيادة فى الجيش .

وقد عرفنا كيف قضى محمد على ، على الأعيان والثراة المصريين وحال بين المصريين ومناصب القيادة فى الجيش ، واعتز عليهم حتى بمناوئيه من بقايا المماليك ، وحال بين المصريين وبين مناصب القيادة فى الجيش ، وقضى بذلك على أية معارضة يمكن أن تنشأ لحكمه واستبداده وحكم أسرته واستبدادها .

وكان أخطر ما قام به محمد على ، على المجتمع المصرى أنه قضى على الأسر المصرية القوية ، والعصبيات الريفية التى لاذت بقطع الطريق وتحدت سلطان الحكومة وقوتها . وكان فىالبلادغير طائفة الملتزمين التى قضى عليها باصدار قانون فك الزمام ، وخاصة فى المدن طائفة ثرية من أصحاب الحرف والصناعات ، قضى عليها هى الأخرى باحتكاره الصناعة فتدهور حالها وأملقت بعد يسر ، وأنطوت فى جموع الأجراء والعمال .

واصبحت مصر فى عهد محمد على وليس فيها من المصريين من يتمتع بجاه او ثراء ، وآل الأمر كله لأسرته ، ومن اصطفتهم من طوائف الترك ، ومن قربهم من الأجانب ، فاصبحوا هم وحدهم من

يملكون ومن يحكمون ، فهم أصحاب الضياع الممتدة من الجفالك والوسايا ، بل والأبعديات التى آثر بها جنوده والزمهم بسكنى الريف والقيام بزراعة الأرض واستثمارها دون تأجيرها وان استخدموا الأجراء من الفلاحين فى زراعتها .

ويصف الشيخ محمد عبده ، ما أصبحت عليه مصر بقوله فى مقـــال طويل سنة ١٩٠٢(١) لمناسبة الاحتفال بذكرى مرور مائة

---

(١) اقترح الزعيم مصطفى كامل فى مقال على صفحات اللواء بتاريخ ٢١ مايو ١٩٠٢ اقامة احتفال قومى كبير يوم ١٣ صفر سنة ١٣٢٠هـ (٢١ مايو سنة ١٩٠٢) تذكارا لمرور مائة عام على اختيار زعماء الشعب محمد على واليا على مصر ، قال فى هذا الصـــدد تحت عنوان – العيد المئوى لمؤسس العائلة الخديوية – (خير الأعياد عند الأمم عيد يذكرها بانتقالها من الظلمات الى النور وخروجها من الجهالة الى العلم والحضارة ، وارتقائها فى سبيل الحياة العالية وارتباطها بعائلة مالكة أجلستها على العرش بارادتها وصافحتها للنهوض الى ذرى العلياء ونوال المنن والنعماء واعتمدت عليها فى ارشادها الى واجباتها وحقوقها والمقاصد السامية التى يجب أن ترمى اليها .. وبعد أن أشاد بتاريخ محمد على – كما يقول الرافعى – وما قام به من جلائل الأعمال فى سبيل انهاض مصر ، دعا الى الاحتفـــال بالعيـــد المتبنى لولايته قائلا : وهذا سنة ١٣١٨ – ٣ فبراير سنة ١٩٠١ – فليفكـــر المفكرون فيما يجب على هذه الأمة عمله اعترافا بفضل محييها واجلالا للوطن نفسه الذى نهض فى عهده نهضته الكبرى ، ووثب بين الأوطان وثبة الأسد القاهر ، فخير ما يحيى الوطنية فى النفوس ويجمع جموع هذا الشعب العظيم الأسيف ذكرى العظمة الأهلية والمجد الوطنى ولمثل هذا فاليعمل العاملون ويتنافس المتنافسون .) .

ويمضى الرافعى فى كتابه – مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية – فى تأييد الفكرة – نوافقه عليها كل الموافقة – ص ١٦٠ – ١٦٦ . وكان ما كان من تعليق الامام محمد عبده .

سنة على ولاية محمد على على أريكة مصر ، نشر حينـــذاك فى مجلة المنار ، بعنوان ــ آثار محمد على فى مصر ــ وأعاد نشره السيد رشيد رضا فى تاريخه للأستاذ الامام ٠

وقد أشرت اليه فى كتابى ــ أحمد لطفى السيد أستاذ الجيل ــ واقتطف الدكتور عثمان أمين ، ابرز ما فيه (يصـــور فيها الناقد الاجتماعى الجرئ ــ ويعنى الشيخ محمد عبده ــ حال مصر قبل مجئ محمد على وبعده ، ويقدم فيها أسطورة أذاعها المنافقون عن مآثر محمد على وأفضاله على المصريين ٠ قال رحمه الله :

(ما الذى صنع محمد على ؟)

لم يستطع أن يحيى ، ولكن استطاع أن يميت ، كان معظم قوة الجيش معه وكان صاحب حيلة بمقتضى الفطرة ، فأخذ يستعين بالجيش وبمن يستميله من الأحزاب على اعـــــدام كل رأس من خصومه ٠٠ حتى اذا سحقت الأحزاب القوية وجه عنايتـــه الى رؤساء البيوت الرفيعة فلم يدع رأسا يستتر فيه ضمير أنا) ٠

ويمضى الدكتور عثمان أمين فى اقتباسه من مقال الأمام حتى يأتى الى ختامه :

(ولا أظن أن أحدا يرتاب بعد عرض تاريخ محمد على ــ على بصيرته ــ أن هذا الرجل كان تاجرا زارعا ، وجنديا باسلا ومستبدا ماهرا ، لكنه كان لمصر قاهرا ، ولحياتها الحقيقية معدما ، وكل

ما نراه الآن فيها مما يسمى حياة فهو من أثر غيره ، متعنا الله بخيره وحمانا شره) (٣) ٠

ومن يمعن النظر فى تاريخ مصـطفى كامل وكفاحه الوطنى والسياسى يرى أنه كان يمضى فى طـريقين وعلى نهجين ، يبدو للنظرة العابرة ألا صلة بينهما ، وان كانت الغاية واحدة ، وهى اعلاء شأن مصر وتحقيق ما تنشده من رفعة واستقلال ، وقد رأى فى نهجه السياسى أن يستغل اعلان بريطانيا أن احتلالها مصر موقوت باقرار النظام والأمن ، وبقيت تعترف بتبعية مصر للدولة العثمانية ، فأخذ يطالبها بالوفاء بعهودها مسـتعينا بفرنسا فى حملتها على الاحتلال البريطانى لمصـر ، ورأى من تأييد الخديو عباس حلمى الثانى كل تأييد وعون ٠

ولكن الخـديو عباس الذى أيقظ مصر من غفوتها وبعث فى الشبـاب أملا جديدا بتصديه للاحتلال ومقارعته كرومر واصطفائه للنابهين قد أدركته شيخوخة مبكرة ، فوهن عزمه ، وأخذ يستسلم لكرومر ، ووهنت عـلاقته بالحركة الوطنية ، وزعيمهـا مصطفى كامل فأخذ يبتعد عنه ، فما كان الخديو عباس بالنسبة له الا عونا له فى كفاحه السياسى ، وكان الخديو يدرك ذلك ويعيه ، ويعرف ـ كما قال عنه فى مذكراته[٤] أنه لاينتمى الا لذاته ، ويعنى أن انتماءه لمصر يفوق كل ماعداه من اتجاهات نسبت اليه ، فما كان

---

(٣) **دكتور عثمان أمين** : رائد الفكر المصرى الامام محمد عبده : ص ١٤٣ ـ ١٤٧ ـ بعنوان ـ اسطورة محمد على ٠

(٤) **مذكرات الخديو عباس حلمى الثانى** : جريدة المصرى فى ١٨ مايو ١٩٥١ ولم يكمل المصرى نشرها ٠

الخديو وما كانت الدولة العثمانية ، بل وفرنسا الا وسائل سياسية تعينه على تحقيق بغيته فى تحقيق استقلال مصر واعلاء شأنها وان تكون ــ مصر للمصريين ــ وقد خاب أملهفى كل منها ، ولكنه يبقى كعهده شامخ الرأس لا يلين • ولا يستسلم وبقيت مصر للمصريين غايته ومبتغاه ، فلا ترى من خطب مصطفى كامل وأحاديثه وكتاباته طوال حياته غير ــ مصر ــ فهى أغنيته وهى نبض حياته : فهى : (بلادى ، بلادى لك حبى وفؤادى ، لك حياتى ووجودى ، لك دمى ونفسى ، لك عقلى ولسانى ، لك لبى وجنانى ، فأنت ، أنت الحياة ولا حياة الا بك يامصر) •

ويقول : (ان لم أولد مصريا لوددت أن أكون مصريا) •

(ان مصر جديرة بأن تحب ، بكل قوة ، بكل عاطفة بكل جارحة ، بكل نفس ، بكل حياة) •

ويتساءل : (هل يستطيع مصرى أن يتهم فى حب مصر ؟ مهما أحبها فلا يبلغ الدرجة التى يدعو اليها جمالها وجلالها وتاريخها ، والعظمة اللائقة بها ، ألا أيها اللائمون ، انظروها وتأملوها وطوفوها ، وقرأوا صحف ماضيها ، واسألوا الزائرين لها من أطراف الأرض ، هل خلق الله وطنا أعلى مقاما ، وأسمى شأنا ، وأجمل طبيعة وأجل أثارا ، وأغنى تربة ، وأصفى سماء • وأعذب ماءا وأدعى للحب والشغف من هذا الوطن العزيز ؟ أسألوا العالم كله يجيبكم بصوت واحد : ان مصر جنة الدنيا، وأن شعبا يسكنها ويتوارثها لأكرم الشعوب اذا أعزها واكبرها ، جناية عليها وعلى نفسه اذا تسامح فى حقها وسلم أزمتها للأجنبى) •

(وقد يرى السفهاء والطائشون أن الانتساب لشعب

مستعبد كالشعب المصرى ، مما لا يليق بانسان ولكن اى شرف يطمع الحر فيه أكبر من العمل لاحياء الأمة التى سبقت الأمم كافة فى العلم والمدنية والأدب ؟ أى رفعة يسعى الشريف اليهـــا أسمى من أنه من شعب كان أستاذا لشعوب البشرية ومربى العالم كله ؟)

(ان من يتسامح فى حقوق بلاده ولو مرة واحدة يبقى أبد الدهر مزعزع العقيدة سقيم الوجدان) ·

(الدعوة للاســـــتقلال وبث الروح الوطنية هما المؤديان الى تحقيق آمال الأمة المصرية ، فليكن معتقد المصريين جميعا ، أن نجاة مصر لا تكون الا بهمـــم المصريين ، وان ارتقاءنا موكول الى عزائمنا ، فلنطلب النهوض من أنفســـنا ، ولنعمل له بالهمة والصـــدق والاتحاد) ·

وآخر ما كان من حب مصطفى كامل لمصر والمصريين ، ما كان منه فى حادث دنشواى وكأنما أراد الله الا يختم حياته الا بنصر عظيم ، فما أن صدر العفو عن منكوبى دنشواى فى ٨ يناير سنة ١٩٠٨ ، حتى وقع صريع المرض بعد ذلك بشهر ، ينتظر الموت ــ كما يقول الدكتور هيكل ــ فى ثبات وصبر والأمة من حوله يخفق قلبها فرقا على هذا الابن البار الذى أذكى ضرام الوطنية فى شبيبتها ، فلما كان يوم ١٠ فبراير طبق الموت جفنى الزعيم الشاب ومايزال فى مقتبل عمره ولما يبلغ الخامسة والثلاثين ·

ففى الثالث عشر من شهر يونية وقعت حادثة دنشواى التى كان مقدرا لها أن تهز مصر كلها كما لم يهزها حادث من قبل، والتى هدمت كل ما حاول اللورد كرومر أن يبنيه من جسور طوال ثلاث

وعشرين سنة بينه وبين الشعب بعامة والفلاحين أصحاب الجلاليب الزرقاء بخاصة ، وقد كان مقدراً لهذا الحادث أن ينزل اللورد كرومر من فوق عرشه ، وان يرتفع بمصطفى كامل الى الذروة التى لا تعلوها ذروة ٠

ويتلخص هذا الحادث فى أن خمسة من ضباط الجيش الانجليزى نزلوا لصيد الحمام بأجران دنشواى (واعترضهم الأهالى ، وحدث تصادم انتهى بجرح أربعة من المصريين بينهم امرأة وباصابة بعض الضباط الانجليز فر من جرائها أحدهم فأصابته ضربة شمس مات متأثرا بها ، وعلى أثر هذا الحادث عقدت المحكمة المخصوصة التى شكلت بدكريتو سنة ١٨٩٥ لتنظر فى هذه القضية وحكمت على أربعة من الأهالى بالاعدام ، وثمانية بالجلد ، وآخرين بالأشغال الشاقة ، ونفذ هذا الحكم بطريقة همجية لا عهد للانسانية بها منذ عصورها المظلمة ، فقد نصبت المشانق التى أرسلت الى قرية دنشواى قبل صدور حكم المحكمة أمام منازل الأهالى مباشرة ، ونصبت الى جانبها آلات الجلد ، وغداة صدور الحكم نفذ على صورة يقشعر من هولها البدن ، فكان كل محكوم عليه بالاعدام يعلق فى المشنقة ويبقى معلقا أمام أنظار أهله وأبنائه الى أن يجلدوا اثنين من المحكوم عليهم باللجلد ، وكان هؤلاء يجلدون بكرابيج ذات ثمانية ألسن ، معقود طرف كل لسان منها بقطعة من الرصاص ٠ ومن حول المشانق والمجالد وفوق أسطح المنازل وقف الناس من أهل هؤلاء التعساء وذويهم يشهدون جلودهم تشوى بالكرابيج ، وجثثهم فارقتها أرواحها معلقة فى المشانق ومستشار الداخلية الانجليزى واقف يحافظ على النظام لهذا المشهد الذى أبدعته انجلترا فى مطلع القرن العشرين ، ما أشدها وحشية وما أتعسها حضارة ! هنا يجب أن يرتفع الصوت عاليا دفاعا عن الرحمة وعن الانسانية ، وعن العدالة وعن كل المعانى التى جاهدت الانسانية أجيالا وقرونا لتثبيتها

فى النفوس وأى صوت أرفع من صوت مصطفى كامل ، وأى أسلوب وجدانى كأسلوبه وهذه الدعاية السياسية التى فشلت بازاء قوة انجلترا فى أوربا وفى مصر لابد أن تنجح اذا استغلت لكشف هذا الظلم وللاستفادة منه لتحريك النفوس ، وقد نجح مصطفى كامل فى هذا أكبر نجاح) ٠

والحق أنه لم يرتكب فى التاريخ الحديث فظاظة تعدل فظاظة تنفيذ حكم دنشواى ، ولم تثر حادثة من الحوادث الشعور القومى فى مصر ما أثارته هذه الحادثة ٠ ولقد صدق مصطفى كامل اذ قال : ان عشرات السنين كانت أقصر من أن تحيى شعور الشعب كما أحياه هذا الحادث ، لذلك ظل يكتب ويخطب فى مصر وفى انجلترا بيانا لبشاعة هذا الظلم الذى بلغ من بشاعته أن اضطر لورد كرومر الى اعتزال منصبه فى مصر ٠

وكان حماس الزعيم مصطفى كامل للدفاع عن منكوبى دنشواى حماسا لمصر وللمثل العليا التى يدين بها ، وكان كفاحه امتداد لكفاح مصر فى ثورتها ضد الاستبداد العلوى الذى أورثها اياه عاهلها الأكبر الذى لم (يدع رأسا يستتر فيه ضمير أنا) كما وصفه الأمام محمد عبده ، منذ تزعمه عمر مكرم ، ثم أحمد عرابى ، وأخيرا مصطفى كامل حتى كانت ثورة ١٩١٩ بزعامة سعد زغلول الحصاد الأكبر لكفاح طويل ، وضع بذرته على أسنة الرماح أحمد عرابى ، لتكون النهاية على يد جيش مصر العظيم فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ٠٠ حين ساده أبناء مصر بعيدا عن عملاء الانجليز ٠

١٠/١ ــ مصر الخـالدة

كان للشــعب دوره البارز فى الحركة العرابية ، وما كانت الثورة العرابية الا تعبيرا عن روح مصر الخالد فى كفاح المصريين ضد الغاصب والمستبد ، وهم ضد الغاصب أكثر عنفا وأشد اصرارا منهم ضد المستبد ، فالغاصب غاز مغير ، كما كان نابليون ، ومن قبل السلطان سليم العثمانى قبل أن تصبح الدولة العثمانية دولة الخلافة والاسلام ، وكان من تنكيله بالمصريين ما يعد أكبر سوأة فى تاريخه ، كما كان من مقاومة طومان باى له ما يعد مفخرة لحاكم مصرى ، وكان من خيانة الطامعين فى الحكم لطومان باى ما كان من خيانة سلطان باشا وأنداده للزعيم أحمد عرابى ٠

(وتجمع كتب التاريخ ــ كما يقول أحمد حسين فى موسوعته التاريخية الفريدة(١) على أن السلطان سليم أخذ بشجاعة طومان باى وعزته وكرامته وهو يصاوله فى الحديث فقال له : والله ما كان قصدى اذيتك ونويت الرجوع من حلب ولو أطعتنى من الأول وجعلت السكة بأسمى ماجئت لك ، ولا دست أرضك فأجاب طومان باى :

---

(١) المصدر السابق : ص ٨١٠ ٠

ان الأنفس التى تربت فى العز لا تقبل الذل ، هل لو أرسلت لك أنا خطابا وأمرتك أن تكون تحت أمرى ، هل كنت ترضى بذلك وهل سمعت أن الأسد يخضع للذئب ؟ لا أنتم أفرس منا ولا أشجع ، وليس فى عسكرك من يقايسنى فى حومة الميدان ، وليس أضر عليك من هذين الشيطانين الخائنين ـ وأشار الى خاير بك ، والغزالى ، فأنهما لو كان بهما خير لكان لنا) .

(وكاد السلطان يقتنع بالابقاء على حياة طومان باى ، ولكن الخائنين خاير بك والغزالى أقنعا السلطان سليم ، أن وجود طومان باى على ظهر الحياة من شأنه أن يضيع كل تعبه وسفره ، وهلاك زهرة عساكره وأمواله ، فأنه لايكاد يغادر أرض مصر حتى يخرج طومان باى ولو كان تحت الأرض ، ليفسد عساكر السلطان عليه فاذا أراد السلطان أن تطيعه كل الدول ، وأن تمهد البلاد فعليه أن يعجل بهلاك طومان باى) .

(ونزل السلطان سليم عند مشورة الخائنين وقضى باعدام طومان باى) ولنا أن نتساءل : أليس هذا ما حدث مع عرابى ، حين انقلب عليه محمد سلطان باشا وأتخذ جانب الانجليز والخديو توفيق، وأتخذه الانجليز (أداة الرشوة لرؤساء القبائل البدوية الضاربة فى شرق الدلتا وأفساد طائفة من العمد والأعيان والضباط لينضموا الى الانجليز ويخذلوه قوة الدفاع .. فكانت ـ كما يقول الرافعى ـ صفحة محزنة من تاريخ مصر القومى)(٢) .

وكانت نهاية طومان باى صورة رائعة لأنفة مصرى وكبريائه ، ففى (يوم الاثنين ١١ ربيع الأول الموافق ٢٣ أبريل أخرج طومان باى من سجنه فى امبابة واقتيد الى حيث يعدم عند باب زويلة ، فكان رافع الرأس يسلم

---

(٢) الثورة العرابية : ص ٥٥٠ .

على الناس طوال الطريق ، حتى اذا وصل الى حيث يشنق طلب طومان باى من الجمهور المحيط به أن يقرأوا الفاتحة على روحه ثلاث مرات ، وقرأ هو بنفسه الفاتحة حتى اذا فرغ منها التفت الى الجلاد وقال له : شوف شغلك) .

(وكأن الأقدار أبت حتى آخر لحظة أن لاتزهق هذه الروح القوية فى يسر وبساطة ، فاذا بالحبل ينقطع مرتين ، ولم يمت طومان باى الا فى المرة الثالثة ، وظلت جثته معلقة بعد ذلك على باب زويلة ثلاثة أيام) .

(يقول ابن أياس : فلما أن شنق وطلعت روحه صرخت عليه الناس صرخة عظيمة ، وكثر عليه الحزن والأسف ، فأنه كان شابا حسن الشكل ، كريم الخلق ، سنه نحو أربعة وأربعين سنة ، وكان بطلا شجاعا تصدى لقتال ابن عثمان وثبت وقت الحرب بنفسه وكسرهم ثلاث مرات ، ووقعت منه فى الحرب أمور لم تقع من الأبطال العناترة ، وقد أبطل لما تسلطن من المظالم أشياء كثيرة مما كان يعمل فى أيام الغورى ، ولما طلب منه أن يفرض الضرائب على الناس ليملأ الخزائن ، وصف ذلك بالظلم ورفض أن يمس أموال الرعية) .

ويصف الدكتور بايارد دودج فى كتابه ــ الأزهر فى عيده الألفى(٣) وهو من عشاق الأزهر ، وفيلسوف الاسلام الكبير ــ أبو حامد الغزالى ــ يقول(٤) :

---

(٣) Bayard Dodge Al-Azhar Amillevieum of Muslim Learning.

(٤) قام المؤلف بترجمة كتاب دكتور بايارد دووج عن الأزهر

: عندما دخل الجيش العثمانى مدينة القاهرة قتل عشرة آلاف من المصريين ، وأحرق العديد من البيوت ، وقطع رؤوس أربعة آلاف من المماليك ، وألقى بأجسادهم الى النيل ، وعلق رؤوسهم فى جزيرة الروضة حتى يراها الناس جميعا .. وقد سطوا على القلعة وبيوت الأمراء والسلاطين والمساجد والزوايا والأربطة من النفائس والذخائر والكتب حتى أعمدة الرخام وكل ما ركب فيها ، ونقل الى الأستانة المئات من العلماء والمقدمين والقضاة وكل من له نفوذ أو امرة فى مصر) .

ويندد ابن أياس بالسلطان سليم ، ويستهجن كل تصرفاته ابان اقامته بالقاهرة ، ويقارن بينه وبين ماكان عليه سلاطين مصر من عادات ومكرمات ، فهبط به الى الحضيض بالقياس الى أعمالهم وتصرفاتهم كاشفا بذلك عن لوعته واحساسه بالحرج العميق وقوميته المصرية الأصيلة . لقد صارت مصر نيابة بعد أن كان سلطان مصر أعظم السلاطين فى سائر البلاد قاطبة لأنه خادم الحرمين الشريفين وحائز ملك مصر الذى افتخر به فرعون اللعين ، حيث قال : أليس لى ملك مصر ، وقد تباهى بملك مصر على سائر ممالك الدنيا ولكن ابن عثمان هتك حريم مصر ، وما خرج منها حتى غنم أموالها وقتل أبطالها ، ويتم أطفالها ، وأسر رجالها ، وبدد أموالها ، وأظهر أهوالها ، فلا حول ولا قوة الا بالله)(٥) .

---

(٥) احمد حسين : المصدر السابق ص ٨١٧ .

واذا كان للتاريخ أن يعيد دورته ، لنرى صورة طومان باى ـ كما أجملها ابن أياس فى صورة ـ البطل محمد عبيد ـ بطل (واقعة قصر النيل التى تعد أولى وقائع الثورة العرابيـــة ـ كما سبق القول ـ والذى صمد على رأس قواته (وأوقف زحفهم وقاتلهم قتالا شديدا مات فيه معظم رجاله ، فتقدم واستقبل الموت راضيا مرضيا ، وذهب شهيد وفائه وبطولته)(٦) ٠

ويقول عنه ـ أحمد حسين فى موسوعته ـ وأدعوه ابن أياس العصر الحديث :

(أما الذين ثبتوا وأنقذوا الشرف العسكرى المصرى فالايان سودانيان بقيادة الأميرالاى محمد عبيد بطـل واقعة قصر النيل ـ فقد حاربوا تحت لواء قائدهم حتى استشهد واستشهد معظمهم الى جوراه) ٠

واذا كانت الخيانة قد هزمت طومان باى ، فان الخيانة هى التى هزمت عرابى واذا كان ثمة أرهاصة ببطولة مصر وأبنائها ، ينبض بها قلب مصر ووجدان أبنائها ، وعراقتهم على مدى التاريخ فاننا نراها فى أولئك الاغـــلام من أبنائها ٠ ممن تعـلو كرامتهم وأعزازهم لمصر الخالدة فوق كل اعتبار آخر ، لا فى ميدان الحرب وحدها بل فى كافة الميادين التى يذكر فيها اسم مصر ٠٠

ولم يكن الشعب بعيدا عن الأحداث ، فقد كانت القاهرة تنتظر أنباء المعركة والعامة والغلمان يضجون ويصيحون بالدعاء والتكبير والناس جميعا فى انتظار أخبار الموقعة الفاصلة ، وأصبح دعاء ـ الله ينصرك ياعرابى ـ على كل لسان يهتف به الأطفال قبل الكبار ٠

---

(٦) محمود الخفيف : الزعيم عرابى المفترى عليه ٠

ومن طبيعة المصريين ألا يثوروا بحاكم وأن يرموا به ، منذ كان فجر التاريخ فى مصر وكان الملك المؤله ، فاذا آمنوا به ساروا وراءه واذا برموا به وقفوا يرقبونه وتركوه لشأنه حتى يواجه قدره مادام قد رأى أن يحمل المسئولية عنهم ، لهذا كان ايمانهم بطومان باى ، دون ايمانهم بالسلطان الغورى • وكان ايمانهم بعرابى دون ايمانهم بسلطان باشا ، وكان اكبارهم لمصطفى كامل دون اكبارهم لغيره ممن عاصروه ، وكان من اكبارهم له ما يصوره قاسم أمين، ولم يكن من شيعته ، فيقول بعد شهرين من وفاته :

(١١ فبراير سنة ١٩٠٨ يوم الاحتفال بجنـــازة مصطفى كامل هى المرة الثانية التى رأيت فيها قلب مصر يخفق ، المرة الأولى يوم تنفيذ حكم دنشواى ••

(رأيت عند كل شخص تقابلت معه قلبا مجروحا وزورا مخنوقا ودهشـــة عصبية بادية فى الأيدى وفى الأصوات ، كان الحزن على جميع الوجوه ، حزن ساكن مستسلم للقوة مختلط بشىء من الدهشة والذهول •• ترى الناس يتكلمون بصوت خافت ، وعبارات متقطعة ، وهيئة بائسة ، منظرهم يشبه منظر قوم مجتمعين فى دار ميت كأنما كانت أرواح المشنوقين تطوف فى كل مكان من المدينة • ولكن هذا الآخاء فى الشعور بقى مكتوما فى النفوس لم يجد سبيلا يخرج منه فلم يبرز بروزا واضحا حتى يراه كل انسان) •

(أما فى يوم الاحتفال بجنازة صاحب ــ اللواء ــ فقد ظهر ذلك الشعور ساطعا فى قوة جماله وانفجر بفرقعة هائلة سمع دويها فى العاصمة ووصل دويها الى جميع انحاء القطر) •

(هذا الاحساس الجديد ، هذا المولود الحديث الذى خرج من أحشاء الأمة ، من دمها وأعصابها • هو الأمل الذى يبتسم فى وجوهنا البائسة ، هو الشعاع الذى يرســـل حرارته الى قلوبنا الجـــامدة الباردة ، هو المستقبل) •

ويعلق الدكتور هيكل على ما قاله قاسم أمين ، فيقول :

(لذلك كان جزاء وفاقا أن تحزن مصر على شاعر الوطنية العظيم مصطفى كامل ، وكان حقا أن يرى قاسم أمين فى وحدة هذا الشعور بفقد الزعيم الشاب الذى كرس حياته ليتغنى باسم مصر وليعلن أنه وهبها حياته وحدة فى الأمل الكبير بمستقبل زاهر)(٧) •

وقد سبقت ثورة الشعب ، وغضـــبته الجائحة ثورة عرابى ليكون ناطقا باسم الشعب ، حين رأى الشعب ينطق بما يجول فى خاطره فاندفع يحمل اللواء ليعبر عن حلم حياته بأن تكون ـ مصر للمصريين ـ •

---

(٧) الدكتور هيكل : تراجم : مصطفى كامل باشا ص ١٢٩ ـ ١٣٢ •

١١/١ ـ الجيش والشعب

ونرى أن اسماعيل هو البناء الحقيقى لتلك الطبقة من الأعيان المصريين • أو البورجوازية الناشئة بالمفهوم الغربى ، بعد أن وضع بذرتها سعيد باصدار اللائحة السعيدية واباحة حق التمليك للمصريين ولكن سعيدا كان يعنى ما يقصد حين عمل على اشراك المصريين فى المناصب الادارية ، أما اسماعيل فما كان يفكر فى مثل تلك السنة الحميدة بقدر ما كان يفكر فى جاهه ومظهره وسلطانه ، فلم يكن يرمى حين أنشأ مجلس شورى النواب الى اشراك المصريين ، أو تطبيق الحكم الدستورى فى مصر ، ولم يفكر فى أن مثل هذا العمل قد يؤدى الى اظهار طبقة ظلت بعيدة عن المشاركة فى شئون البلاد ، أو يقودها الى التقدم والبروز فى ميدان الحياة العامة ، فان هؤلاء العمد والمشايخ ونظار الأقسام الذين تكون منهم مجلس شورى النواب ، قد أصبحوا النواة الحقيقية لطبقة الأعيان المصريين ، وواتتهم الفرص بعد ذلك لتنمية ثرواتهم وامتلاك الأراضى الواسعة وقيام الاقطاع المصرى بمساوئه التى شارك فيها الاقطاع التركى القديم وغدا ندا له ، ففى الوقت الذى حلت فيه الكوارث بالفلاح وأثقلته الضرائب وازداد فقرا على فقر ، كان الأعيان يقتنون الأطيان والضياع واستصلحوا أطيانهم القديمة وزادت ثرواتهم

بما أنشأته الحكومة من أعمال العمران ، فزاد دخلهم من أطيانهم وأملاكهم ، واتسعت عليهم الدنيا ، وراعت الحكومة جانبهم ، وفى كثير من المواطن كانوا يكسبون رعايتهم اذ يصـــلونهم بالهدايا والرشاوى وما الى ذلك ، وكان الأعيان من الأسر الكبيرة يحتفظون بعصبيتهم العائلية ومراكزهم الاجتماعية ، فازدادت منزلتهموعظم جاههم ، وراعى الخديو جانبهم ·· وكاد مجلس شورى النواب أن يكون مقصورا على طبقتهم ، وكان لبعضهم فيه مناقشات تدل على حظ من العلم والذكاء الفطرى(١) ·

وقامت بذلك طبقة اقطاعية من المصريين الى جانب السواد الأعظم من الشعب الذى ازدادت حالته فى أواخر عهد اسماعيل سوءا على سوء ·

(وهكذا شهدت الأيام الأخيرة من عصر اسماعيل ظهور طبقة من الأعيان المصريين كان لها أبعد الأثر فى اتجاهات الثورة العرابية كما لعبت الدور الأول فى سياسة البلاد بعد ذلك ، وهى التى ظفرت للبلاد بدستور عام ١٨٧٩ مقررا مبدأ المسئولية الوزارية ، وأقرار الميزانية والقوانين العامة ، وانتخاب ممثلين عن السودان ، وان لم يصدر المرسوم الخديوى باعلانه ، الا أنه جاء نتيجة الاتفاق بين الحكومة وممثلى الأمة ، ولم يكن هناك ما يحول دون صدوره لولا التدخل الأجنبى وعزل اســـماعيل ومجـــافاة توفيق للنظـــام الدستورى(٢) مما أدى الى قيام الثورة العـــرابية ممثلة لارادة الشعب ، اذ أن هذه الطبقة لم تسكت على اتجاه توفيق الاستبدادى

---

(١) الرافعى عبد الرحمن : عصر اسماعيل الجزء الثانى ص ٢٣٢ ــ انظر أيضا ــ أحمد لطفى السيد ، أستاذ الجيل للمؤلف ص ٣٦ ــ ٣٧ ·
(٢) المؤلف : المصدر السابق ص ٣٧ ــ ٣٨ ·

وانفراده بالحكم ، فضمت اليها عددا من الناقمين على سياسة رياض فى معارضته للنظام الدستورى ، وانحيازه للنفوذ الأوربى على رأسهم الباشوات الأربعة : شريف باشا ، واسماعيل راغب باشا ، وعمر لطفى باشا ، وسلطان باشا وكونت هيئة عرفت بالحزب الوطنى • أو ـ جمعية حلوان(٣) ـ أخذت تجتمع سرا للعمل على مقاومة رياض واسقاط وزارته وتعددت اجتماعاتها فى دار سلطان باشا وضمت اليها عددا من ضباط الجيش منهم أحمد عرابى وعبد العال حلمى ، وعلى فهمى وبعض المديرين منهم سليمان باشا أباظة ، وحسن باشاالشريعى ، فكانت تلك الهيئة من العوامل التى أدت الى وقوع الثورة العرابية ، فمما لاشك فيه أن نقمة هذه الهيئة على وزارة رياض ، قد قوى ثقة عرابى فى نفسه وقدرته على تزعم حركة السخط بين الضباط المصريين على سياسة عثمان رفقى فى الجيش ، وكانت سياسة عثمان رفقى هى ـ القشة التى قصمت ظهر البعير •

وتسنم عرابى ذروة الأحداث التى أدت الى استقالة رياض وتأليف وزارة شريف باشا الثالثة وغدا شخصية مرموقة يلتف حولها الشعب ويؤيدها الأعيان والنابهون من رجال الحزب الوطنى، وخاصة بعد أن تضمنت مطالبهم قيام حكم نيابى • وكان شريف باشا مترددا فى قبول الوزارة خوفا من تدخل الجيش فى السياسة ولم يقبلها الا بعد أن عاهده العرابيون على الثقة به والابتعاد عن السياسة ، وضمن رجال الحزب الوطنى تعهد الجيش بالابتعاد عن السياسة ، فهم (متكفلون بالجيوش المصرية الذين هم فى الحقيقة

---

(٣) لم يكن الحزب الوطنى حزبا بالمعنى المعروف ، وأن دعاه أصحابه بذلك ، ويميل بعض المؤرخين الى تسميته ـ جمعية حلوان ـ نسبة الى المكان الذى اتخذوه مركزا لاجتماعاتهم •

أبناؤهم وأخـــوانهم)([4]) وذلك فى عريضـــتين وقع عليهم
وخمسمائة من عمد البلاد وكبار الأهلين : الأولى تضمن تعهد ال
بالابتعاد عن السياسة ، والثانية فى تأييد الحكم النيابى ،
العريضتين الى شريف باشا وفد من محمد باشا سلطان ، وس
باشا أباظة ، وحسن باشا الشريعى ، وأحمد بك المنشاوى ، و
بك الشمسى ، والشيخ على الليثى ، وعبد السلام المويلحى ، وال
الصباحى ، والشيخ أحمد محمود ، وابراهيم أفندى الوكيل

وصدرت العريضتان بتلك الديباجة التى تسفر عما بلغته
الطبقة الناشئة من مكانة اجتماعية وحيوية بالغة . وتطلع الى
كيانها السياسى والاجتماعى ·

أما الأولى ، فهى ـ كما يقول عرابى فى مذكراته ـ وقد أور
باسم ـ تقرير ـ بينما أوردها الرافعى باسم ـ عريضة ـ وان
النص واحدا([5]) ، كما يلى :

(نحن الواضعون أسماءنا أدناه علماء ومش
وأعيان وعمد مصر واســـكندرية والثغور والوجه
البحرى والقبلى ، لاعتقادنا التام بحسن صفات و
أعضاء مجلس النظار الذين صـــار انتخابهم بمع
دولتكم بالحكومة المصرية ، واظهارا لصداقتنا الت
ولخلوص نية الجيش نحن ضامنون ومتكفلون بصد
وصحة التعهدات التى من مقتضاها تمام الانقياد لأو
دولتلو شريف باشا ، قد التمسنا أن يستلم ادارة أشغ

---

(٤) الوقائع المصرية : عدد ١٩ سبتمبر ١٨٨١ ·

(٥) عرابى : مذكرات جا ص ٨٢ ـ والرافعى . الثورة العرابية ص ١٤٣ ·

رياسة مجلس النظار الذين صار انتخابهم بمعرفة دولته بالحكومة المصرية ، والعرض عنهم للحضرة الخديوية واظهارا لصداقتنا التامة ولخلوص نية الجيش نحن ضامنون صدق وصحة التعهدات التى من مقتضاها تمام الانقياد لأوامر دولتلو شريف باشا) .

أما الثانى ـ كما أورده عرابى فى مذكراته ـ وعليه ١٦٠٠ توقيع فهو ، يتضمن طلب تأليف المجلس النيابى وفقا للارادة الخديوية وهذه صورته :

(لما كان لا ينتظم نظام العالم ، ولا يقوم قوام الهيئة الاجتماعية الا بالعدل والحرية حتى يكون كل انسان آمنا على نفسه وماله حرا فى أفكاره وأعماله مما فيه سعادته وحسن حاله ، وهذا لا يتأتى الا بايجاد حكومة شورية عادلة لا تشوبها شوائب الاستبداد ولا تتطرق اليها طوارق الفساد ، اتخذت الممالك المتمدنة العادلة مجالس ملية من نبهاء أممها ينوبون عنها فى حفظ حقوقها تجاه هيئة حكوماتها ويكون الواسطة الحقيقية فى تنفيذ ما تصدره الحكومات من الأحكام العادلة ، وعلى هذه القواعد ولأجل هذه المقاصد كان قد اتخذ لحكومتنا مجلس نواب فى العهد السابق وبما أن مقاصد خديوينا المعظم جميعها خيرية ونياته سليمة فطلبا لحفظ بلادنا من بوائق الدهر تجاسرنا بعرض هذا راجين من المراحم الداورية صدور الأمر الكريم بتشكيل مجلس نواب لأمتنا المصرية يكون له ما لمجالس الأمم الأوربية المتمدنة من الحقوق الشرعية ازاء هيئة الحكومة ، وبذلك تكون الحضرة الفخيمة الخديوية قد

خولتنا نعمة لاتعادلها نعم ، وتصير حكومتها العادلة انموذجا شريفا يبرهن على حسن نتائج العدل والحرية أمام العالم ، وأننا على يقين من قبول التماسنا هذا وفقا لارادة ولى النعم أدام الله اجلاله) .

وفى الرابع من أكتوبر سنة ١٨٨١ رفع شريف باشا الى الخديو تقريرا بأجابة مطلب الأمة فى صدد انشاء مجلس النواب ، ضمنه مزايا النظام الدستورى وضرورة اقراره فى مصر ، وطلب تمهيدا لتأليف المجلس النيابى الجديد اجراء انتخابات عامة طبقا للائحة مجلس شورى النواب القديم ، على أن تعرض الوزارة على المجلس المنتخب مشروع اللائحة الأساسية التى تكفل نهوضه الى مستوى المجالس النيابية الصحيحة ، أو بعبارة أخرى دعا الى مجلس شورى النواب على أن تكون (جمعية تأسيسية ، لتضع الدستور الجديد[٦] .

ومن الطبيعى ألا يكون الخديو توفيق ـ كما يذكر أحمد باشا شفيق فى كتابه ـ مذكراتى فى نصف قرن ـ مرتاحا لوجود مجلس النواب ـ وذلك فى تعليقه على افتتاح مجلس النواب ـ لأنه لازال متشائما من الحالة وقليل الثقة بالمجلس لأن نفوذ العرابيين كان فيه كثيرا ..

(وفى السادس والعشرين من ديسمبر تم افتتاح مجلس النواب الجديد ، وكانت الانتخابات المؤدية له قد تمت فى حرية وبعيدة عن أى ضغط سواء من جانب الحكومة أو العرابيين ، وكان يوم افتتاحه

---

(٦) الرافعى عبد الرحمن : الزعيم أحمد عرابى ص ٧٥ كتاب الهلال العدد ١٠ .

يوما عظيما ، ومهرجانا مشهودا ارتجت له الأمة ، فقد كان انعقاد المجلس مطلبا عزيزا من مطالب الأمة ٠٠)(٧) ٠

ويشير عرابى فى مذكراته الى ما كان ، فيقول :

(وفى عصر يوم الاثنين الواقع فى ١١ صفر سنة ١٢٩٩ و ٢ يناير سنة ١٨٨٢ توجه محمد شريف باشا رئيس مجلس النظار الى مجلس النواب لتقديم اللائحة الأساسية التى أعدها له مع سائر النظار ، فقدمها وخطب فى ذلك خطابا أثر فى أذهان النواب وقد جاءت هذه اللائحة مشتملة على أحكام حرة وحدود مطلقة يكون بمقتضاها للنواب حق النظر فى القوانين والمصروفات العمومية ٠٠٠ الخ)(٨) ٠

ويذكر الرافعى أن (افتتاح مجلس النواب كان يوما مشهودا من أيام مصر التاريخية ، استقبلته الأمة مغتبطة بما نالته من تقرير حريتها السياسية بانشاء مجلس يمثلها ويشرف على شئونها وأقدارها ٠

وقد كان هذا المجلس حقا رمزا لهذه الحرية ٠٠ ولولا دسائس الانجليز ومكايدهم لكان فاتحة عصر جديد لنهضة مصر وتقدمها(٩)

ويمضى الرافعى فى وصف ما كان من افتتاح مجلس النواب ، فيقول :

(أعدت قاعة اجتماع المجلس بديوان وزارة الأشغال ـ قاعة اجتماع مجلس الشيوخ الآن ـ وحدد يوم الاثنين ٢٦ ديسمبر سنة

---

(٧) أحمد حسين : المصدر السابق ص ١٠٧٦ ٠
(٨) الجزء الأول ص ١٠٧ ٠
(٩) الزعيم أحمد عرابى : ص ٧٧ ٠

١٨٨١ لافتتاحه ـ فلم تكد تشـــرق شمس ذلك اليوم حتى ازدحم الديوان والشوارع المفضية اليه بالجماهير ، واصطفت أورطة من الآلاى الأول المشاة ـ آلاى الحرس ـ على جانبى الطريق من باب الديوان الى ســـــلم القاعة بقيادة البكباشى محمد عبيد ومعها موسيقاها العسكرية تصدح بألحان الفرح والسرور والابتهاج ٠٠)

(وحضر النواب وأخذوا مجالســـهم ووجوههم تتهلل غبطة وسرورا ٠٠ وفى نحو الساعة العاشرة صباحا تحرك الركب الخديوى من سراى الاسماعيلية فأطلقت المدافع من القلعة ايذانا بتحـــرك الموكب، وكان يصحب الخديو فى عربته شريف باشا رئيس مجلس الوزراء ، وأحمد خيرى باشا المهردار ـ حامل الختم ـ ورئيس الديوان الخديوى ، وطلعت باشا كاتب الديوان الخديوى ٠٠)

(فلما أقبل الركب صدحت الموسيقى بالسلام ، وهتف الجنود بحياة الخــديو منادين النداء المعتاد : ـ أفندمز جوق باشا ـ أى يعيش أفندينا ـ وكان فى انتظاره على سلم المجلس جميع الوزراء ورئيس مجلس النواب ، وبعض أعضائه فتلقوه بالاجلال ٠٠ وقصد الى الغرفة المعدة لاستراحته ، فلبث بها هنيهة قصيرة ، ثم أنهى اليه محمد سلطان باشا رئيس المجلس أن المجلس قد استعد وكمل اجتماع الأعضاء ، فسار الخديو ودخــل قاعة الاجتماع فى نحو الساعة الحادية عشــرة ، وحياه الأعضـــاء ٠٠ فتلقوه بجميل الاعزاز والاجلال) ٠

(وأخذ مجلسه يحف به كبار رجال الدولة ، وافتتح المجلس بتلاوة خطاب خطبة العرش وقد تلاها بنفسه) ٠

ويأتى الرافعى على نص الخطبة ـ لمن يريد الرجوع اليها ٠٠ (ولما انتهى الخـــديو من تلاوة خطبة العرش هتف الجميع له ،

وأطلقت المدافع من القلعة مؤذنة بانتهاء الخطاب مبشرة باجتماع مجلس النواب .. ثم برح الخديو مكان الاجتماع وصدحت الموسيقى بنغمات التحية له ، وعاد الى سرايه فى موكب حافل) .

ويرى الرافعى أن (خطبة الخديو توفيق من الوثائق الهامة فى تاريخ مصر الدستورى ، لأنها أول خطبة لولى الأمر فى افتتاح أول مجلس نيابى كامل السلطة فى تاريخ مصر الحديث ، وهى فى مجموعها سديدة المعانى واضحة الأسلوب متضمنة اعلان الخديو انضمامه الى الأمة فى اقرار النظام الدستورى ، وقد ألقاها بنفسه دون أن يستنيب عنه رئيس مجلس الوزراء كما هو العرف البرلمانى ، فكان فى القائه اياها تثبيتا وتوكيدا لما احتوت عليه من الآراء والمعانى) .

ولكن ، هل كان توفيق صادقا فيما ذهب اليه من تأييده للنظام الدستورى ؟ هذا ما ينفيه أحمد شفيق باشا فى كتابه ـ مذكراتى فى نصف قرن ـ ويجيب قائلا : (ولم أكن لأظن ذلك ، لأنه لازال متشائما من الحالة وقليل الثقة بالمجلس لأن نفوذ العرابيين فيه كان كثيرا) .

وهل كان الرافعى قويما فى استقراء الأحداث ومعرفة ما وراءها فى حكمه على اتجاهات توفيق وتأييده للنظام الدستورى وان كان صادقا فى روايتها مصدقا لما جاء فيها ، حتى أخلفت الأحداث ظنه فيما ذهب اليه .

١/١٢ ـ بين عهدين

كانت وزارة شريف باشا ، على عهد توفيق ـ فاصلا بين عهدين :

عهد اجتمع فيه الشعب على غاية وأمل ، وعهد انفصمت فيه العرى وتهرأت الوحدة ، وذهب كل فريق ينشد غايته ومبتغاه بما يستهديه من أطماعه وذاتيته وأثرته ومصالحه الخاصة ·

وكانت البداية حين انقسم المجلس على نفسه حول تقرير الميزانية ، حين رأى الرقيبان الأوربيان (عدم تخويل مجلس النواب حق تقرير الميزانية فهذا الحق ولو كان مقصورا على المصالح التى لم تخصص ايراداتها للدين العام فانه يضر بالضمانات المقررة للدائنين ، لأن من نتائجه المحتومة احلال مجلس النواب محل مجلس الوزراء فى ادارة شئون البلاد ، ولما كان الرقيبان لايملكان سوى التنبيه فى تقاريرهما الى ما يلاحظانه من التصرفات الحكومية الضارة فان هذا الحق الذى له نتائجه العملية أمام وزراء يملك الخديو تغييرهم يصبح لا قيمة له أمام مجلس نواب غير مسئول ، وهذه

الحالة تزداد خطورتها لما هو معروف عن مجلس النواب من عدم الخبرة ومن ميوله العدائية نحو العنصر الأوربى فى الحكومة)(١)

وقد رأى شريف باشا درءا للأزمة ، ألا يتخذ مجلس النواب قرارا حول تقـــرير الميزانية ، وأن يفوت على الدولتين المتحفزتين للتدخل سعيهما الخبيث ٠٠ لاسيما (وأن النص الخاص بالميزانية ـ كما يقول الرافعى ـ فى ذاته مستعجلا ، لأن ميزانية سنة ١٨٨٢ كان قد صدر المرسوم باعتمادها فى ٢٢ ديسمبر سنة ١٨٨١ ، أى قبل انعقاد مجلس النواب ، فالبحث فى أمر الميزانية لا تبدو أهميته العملية الا فى ختام سنة ١٨٨٢ حيث توضع ميزانية سنة ١٨٨٣، فأرجـــاء البت فى هذا النص لم يكن له من الخطـر ما يدعو الى التصادم بين المجلس والوزارة ، وقد نصح مستر بلنت الزعماء العرابيين بالاعتدال فى موقفهم من هذه الأزمة وبأن لا يقطعوا برأى فى نص الميزانية قبل أن تفاوض الوزارة حكومتى فرنسا وانجلترا ، وأيده الشيخ محمد عبده فى نصيحته ، وروى عنه فى هذا الصدد ، قوله : (وقد لبثنا عدة قرون فى أنتظار حريتنا فلا يشق علينا أن ننتظر الآن بضعة أشهر) ولكن نصيحة الاثنين ذهبت عبثا) ٠

ويبدو أن الأطماع والطموح الذاتى قد لعبا دورهما فى هذا الصدد ، فضـــلا عن الحذر ، فعندما تختلط الأمور تغيم الرؤيا ، وتتوارى الحقيقة ، وهو ما يشير اليه أحمد حســـين فى هامش موسوعته بقوله : (وأن الانسان ليأسف أن يرى مثل هذا الاضطراب فى وقائع قريبة)(٢) ٠

---

(١) الرافعى : الثورة العرابية ص ١٩٥ . نقلا عن برقية سنكفكس معتمد فرنسا الى جامبتا ـ انظر أيضا احمد حسين المصدر السابق ص ١٠٧٩ ٠
(٢) هامش صفحة ١٠٨٠ ٠

ولا ريب فى أن طموح البارودى كان له دوره فيما أدى الى استمالة شريف باشـــا ، وكان الحذر والأثرة من جانب عرابى ، كما كان الطمع من جانب سلطان باشا وهو يتحسس طريقه الى غايته ..

(وقد كان تأليف وزارة البارودى انتصارا حاسما للحزب العسكرى الوطنى فالثلاثة الأول ـ محمود سامى البارودى باشا ، واحمد عرابى باشا ، ومحمود فهمى باشا ، هم قادة الحزب العسكرى الوطنى ، وحسن الشريعى أحد أقطاب مجلس النواب المنضمين لهذا الحزب ونستطيع ان نتصور مدى فرحة البلاد بالوزارة الجديدة التى كانت تحمل الطابع العميق للارادة الشعبية ، وبعد أن أصبح عرابى الزعيم الشعبى الذى كان الشعب يطلق عليه وصف ـ الأوحد ـ الوزير الأكبر فيها) .

(وقد اعتبر تأليف الوزارة عيدا قوميا ، وتنافس العسكريون والمدنيون فى التعبير عن مظـــاهر فـــرحتهم وتأييدهم للعهـــد الجديد)([٣]) .

ولكنها كانت نهاية عهد وبداية عهد جديد ، كانت نهاية عهد لم يمض طويلا كانت بدايته فى الثامن من شهر فبراير سنة ١٨٨٢ باجتماع مجلس النواب طبقا لما كان مقررا ، ولم تزد جلساته عن عشرين جلسة (ومع ذلك فان تاريخ هذا المجلس يؤلف فى هذه المرحلة صفحة من أزهى صفحات الحياة النيابية والدستورية فى مصر حيث تعرض النواب لكل ضروب الاصلاح الذى تحتاجه البلاد فى مختلف الميادين سواء فى الادارة أو المالية أو الاقتصاد أو الزراعة

---

(٣) المصدر السابق : ص ١٠٨٠ ، والرافعى : الثورة العرابية ص ٢٠٩

أو الرى والذى وصلوا فيه الى حد اقتراح انشاء خزان أسوان بناء على اقتراح تقدم به أحمد بك نائب اسنا والاقتصاد والمواصلات والتعليم الابتدائى الذى طالبوا بتعميمه على سائر أبناء البلاد بناء على اقتراح تقدم به عبد الســـلام المويلحى ، وتعهد كل نائب أن ينشىء فى بلدته مدرسة على نفقته ونفقة الأهالى) ٠

(وقد لمع من نواب هذا المجلس عبد السلام المويلحى ، وأحمد عبد الغفار ، وعبد المجيد البيطاش وغيرهم) ٠

(ويجمع كل من كتب عن هذه الفترة أن الســـلام والهدوء والاستقرار الذى نعمت به البلاد ابان انعقاد هذا المجلس كان أشبه بالأحلام التى لا يلبث النائم أن يستيقظ منها ليواجه الواقع المر) ٠

(فلم يكد المجلس ينهى دورته ويغلق أبوابه حتى تفجر الموقف، وتوالت الأحداث الجسام التى لم تنته الا باحتلال مصر)(٤) ٠

وكانت نهاية عهد وبداية عهد : أوجس فيه عرابى خيفه مما يدبر له خصومه فقد كان يدرك كراهية توفيق له ، بل وللمصريين عامة شأنه فى ذلك شأن أسرته منذ غرس عاهلها الأكبر فى نفوسهم التوجس من المصريين وخشيتهم ، حتى عابهم بأنهم لا يصلحون الا لحمل الاثقال وسوق الحمير ٠

وكان على عرابى أن يبدأ بالمواجهة ، قبل أن يبدأوا بها ٠٠ (ولم تك الا أيام ــ كما يقص الدكتور هيكل من خبرها(٥) ــ حتى صدرت أوامر الحكومة بالقبض على عشرات الجراكسة ومن بينهم

---

(٤)أحمد حسين : المصدر السابق ص ١٠٨٣ ٠

(٥) تراجم : الخديوى توفيق باشا : ص ٨٩ ٠

عثمان باشا رفقى بتهمة ائتمارهم به وبزملائه وبالنظام الذى اقاموه ومحـــاكمتهم أمام مجلس حربى والحكم عليهم بالنفى الى أقاصى السودان ، وكان عرابى ومن معه مقتنعين بأن الخديو هو المحرض على هذه المؤامرة ، وزادهم اقتناعا رفض الخديو التصديق على حكم المجلس الحربى ، وعلى ذلك اســتعر الخلاف بين الخديو والوزارة ، يصر الوزراء على تنفيذ الحكم ويعترضه رئيس الدولة وأدى ذلك الى تخوف فرنسا وانجلترا على الرعايا الأجانب فى مصر فقرروا ارسال بوارج الى المياه المصــرية للمحافظة على حياتهم ومصالحهم ، وأعلنت فرنسا وانجلترا جميعا حرصهما على تأييد الخديو فى مركزه ، وفى ذلك اشارة الى ما كانتا تتوقعانه من وصول عرابى وأصحابه الى استصدار قرار من النواب بعزله) ٠

ويأخذ الرافعى[٦] على الخديو توفيق أنه (اســـتدعى يوم ٢ مايو السير ادوار مالت قنصل انجلترا ، والمسيو سنكفكس قنصل فرنسا واستشارهما فى الأمر ، فأشـــارا عليه أن لا يقر الحكم ، ورجع فى ذلك الى ـ ما جاء فى الكتاب الأصفر سنة ١٨٨٢ ، وثيقة رقم ٤٢ و ٤٣ ـ وكان من حقه تخفيفه وتعديله من تلقاء نفسه دون مشاورة القناصل ، ولكن ما جبل عليه من التردد والضعف جعله يستشيرهما فيما لا دخل لهما فيه ٠ واستدعى باقى قناصـل الدول العظمى ، وطلب اليهما معونة الدول ، فهاج ذلك سخط الوزراء والعرابيين كافة ، وزاد من سخطهم أنه شرع أيضا فى عرض الحكم على السلطان بحجة أن بعض المحكوم عليهم نالوا منه رتبا عسكرية عالية ، فعد العرابيون بحق أن اقحام الســـلطان فى هذه المسألة الداخلية هو تنازل عن الامتيازات التى نالتها مصر فى استقلالها بشئونها الداخلية ، وقد ساء الوزارة أن الخديو لم يشركهم لا فى

---

(٦) الثورة العرابية : ص ٢١٩ ٠

استشارة قناصل الدول ، ولا فى الرجوع الى الباب العالى فى اقرار الأحكام أو تعديلها ، وكان هذا المسلك فى الواقع خروجا على القاعدة النظامية المعروفة وهى أن الخديو يحكم بواسطة مجلس وزرائه فضلا عن منافاته لمبدأ المسئولية الوزارية) ٠

(وفى ٦ مايو عرض الوزراء على الخديو حسما للخلاف ومنعا لتدخل السلطان أن يصدر أمره بتعديل الحكم ، وأن يستبدل به النفى خارج القطر ، على أن يختار المحكوم عليهم الجهة التى يريدونها ، ولكن الخديو رفض هذا الحل بحجة أنه عرض الخلاف من جديد على قناصل الدول ، فارتأت الدولتان الفرنسية والانجليزية أن يستعمل الخديو حقه فى تعديل الحكم دون انتظار رأى السلطان وهذا ما انتهى اليه ، فقد أصدر ارادة سنية فى ٩ مايو سنة ١٨٨٢ بتعديل الحكم الى النفى من القطر المصرى ، والترخيص للمحكوم عليهم بالتوجه أنى شاءوا خارج القطر مع عدم حرمانهم رتبهم ونياشينهم ، وقد وقع الخديو هذه الارادة بحضور السير ادوار مالت والمسيو سنكفكس ، فقصدوا الى الآستانة حيث نزلوا فى رعاية السلطان ٠

وكان مما أحنق الحكومة على الخديو أنه وقع على هذا التعديل فى حضرة السير ادوارد مالت قنصل انجلترا ، والمسيو سنكفكس قنصل فرنسا لأظهار تضامنهما معه فى هذا الاجراء ، وأنه ضرب عرض الحائط بالحكومة(٧) ٠

وقررت الوزارة دعوة مجلس النواب للانعقاد للنظر فى أمر الخلاف الذى استطال بين الخديو والحكومة ، ولكن الخديو رفض

---

(٧) أحمد حسين : المصدر السابق ص ١٠٨٤ ٠

دعوة مجلس النواب ، ورأت الحكومة الا تلقى الى رفضه بالأ ، ودعت النواب للاجتمـــاع فى القاهرة ولباها أكثرهم وتعـددت اجتماعاتهم (سواء فى بيت رئيسهم ســلطان باشا أو فى بيت البارودى رئيس الحكومة ، وقام النواب بدور الوساطة بين الحكومة والخديو ، وانحاز سلطان باشا رئيس المجلس لأول مرة الى جانب الخديو ضد الحكومة ، واستطاع أن يضم الى جانبه ستة من النواب وكان هذا الانقسام الجديد فى صفوف الوطنيين هو الثغرة التى نفذ منها الانجليز ليضربوا ضربتهم ، كما كشفت عن ذلك الحوادث التالية ، وكما ظهر مسجلا فى كتبهم الرسمية ، التى تضمنت أحاديث سلطان باشا مع ادوارد مالت والتى أعرب فى بعضها عن رغبة النواب فى اسقاط حكومة البارودى وعرابى)(٨) ٠

ويبدو أن نوعا من المتاهة الفكرية قد ألمت بالنواب (فوقفت كثرتهم ترقب تطور الأحداث عن كثب ، وانضـــمت قلة منهم الى الخديو متنكرة لعرابى كأحمد بك عبد الغفار ، والسيد أفندى الفقى من نواب المنوفية ، ومحمد بك الشواربى من نواب القليوبية ، ممن أشار اليهم عرابى فى مذكراته ، وكان على رأس هذه القلة محمد باشا سلطان صاحب الحظوة لدى الانجليز والخديو بعد خيـانته للثورة ٠٠ وبقى فريق على ولائه للثورة كأحمد بك المنشاوى زعيم طنطا الوطنى ، كما دعاه ــ جون نينيه ــ فى كتابه « عرابى‌باشا»٠

(ومن هذا الفريق الذى لفحته الثورة بنيرانها أحمد بك أباظه، وأمين بك الشمسى من نواب الشـرقية ، وأحمد أفندى محمود وابراهيم أفندى الوكيل ، ومحمد أفندى دبوس من نواب البحيرة والشيخ أحمد الصباحى من نواب الغربية ، ومراد أفندى السعودى

---

(٨) المصدر السابق ص ١٠٨٤ ٠

من نواب الجيزة ، ومحمد أفندى جلال من نواب المنيا ، ومهنى أفندى أبو عمر من نواب أسيوط ، وابراهيم باشا الشريعى ، وبدينى بك الشريعى من نواب المنيا على عهد اسماعيل ، وقد تناولتهم الأحكام العسكرية بالتجريد من الرتب والامتيازات والتحفظ عليهم فى بلادهم لمدد مختلفة ، مع دفع تأمين مالى يتراوح بين ألف وخمسة آلاف جنيه ، فى الوقت الذى أنعم فيه الخديو على سلطان باشا بالنيشان المجيدى من الدرجة الأولى وعشرة آلاف جنيه تعويضا له عما أصابه من أضرار)(٩) ٠

ولعل حذر الدولتين الاستعماريتين : انجلترا ، بعد أن ظفرت بابتياع أسهم قناة السويس ، وتطلعها الى السيطرة عليها ، وفرنسا بأطماعها الاستعمارية فى أملاك الدولة العثمانية ،و لم تكن انجلترا حتى ذلك ، لتلقى بالا كبيرا الى مصر ، وكانت صداقة اسماعيل الخديو حينذاك بفرنسا تضفى عليه نوعا من الثقة ، فلما (ألفاها ماتزال مهيضة الجناح من أثر هزيمتها سـنة ١٨٧٠ ٠٠ فكر فى مصادقة انجلترا وانتهز فرصة مرور ولى عهدها بمصـر ، فطلب اليه أن يعين انجليزيا مستشارا للمالية المصرية ، وكان جواب ولى العهد أن ذلك من شأن القنصل الانجليزى فبعث القنصل بخطاب الى حكومته كطلب اسماعيل ، وأهملت انجلترا الخطاب حتى اشترى أسهم القناة ، يومئذ ذكرت الخطاب من جديد فأرسلت الى مصر ببعثة لفحص شئونها المالية ، وعلى رأسها المستر ستيفن كيف(١٠) ٠

وقامت السياسة الانجليزية من بعد على أساس السيطرة على مصر ، واتخذت من الخديو توفيق وسيلة لاحتلال مصر ، ومن ثم السيطرة عليها وحكمها لصالحها،ولم يكن ليكفيها أن تنفرد بحكمها

---

(٩) المؤلف : أحمد لطفى السيد أستاذ الجيل ص ٤٠ ، ٤١ ٠
(١٠) د٠ هيكل : تراجم : الخديو اسماعيل ص ٦٢ ٠

بل كان أول ما تبغيه أن تقضى على بوادر نهضتها وقد أخذت تسفر عن مكنونها بقدوم الأفغانىاليها • وتعلن عن كيانها ، فى نشاطها السـرى عن طريق الجمعيات ، ونشـاطها العلنى عن طـريق الصحف(١١) •

(وهيأت كل هذه القوى مجتمعة لزعامة أحمد عرابى ، وللدور الذى ينتظره ، ولم يكن عرابى بعيدا عن الأحـداث منذ البداية ولا عما يعتمل فى نفوس المصريين من مشاعر متناقضة ، ولكنها تأتلف على السخط مما انتهت اليه الأمور ، فالخاصة من الأعيان والتجار والموظفين يشكون من استبداد الحكومة وانصـرافها عن الدستور ، وقد أشرنا الى ما كان موقف اسماعيل من هذه الطبقة فى أواخر حكمه ، مايشجعها على الوقوف فى وجه الحكومة والتقدم بمطالبها الدستورية والعامة تشكو ضيق العيش ، وقدح الضرائب ووقر السخرة ، ولكنها تستسلم راغمة لمصير لا ترى فيه بارقة أمل ، والضباط يخشون التسريح والأحالة الى التقاعد ، ولكنهم جميعا يتفعلون بالأحداث ، وكانت أحداثا طارئة غير مبيتة تسوقها الظروف التى تبعتها وتبرزها . ويتفاعلون معها بالتحدى والاستجابة للمواقف الطارئة(١٢) ، (١٣) •

وقد وعى عرابى الموقف تماما وتفاعل معه وأدرك أن زعامة الأمة مهيأة له ، وقد أصبح فى الواقع أقوى شخصية فى البلاد فتقدم، وما كان يدور بخلده أن يكتفى بمطالب الجند ـ كما يفترض الدكتور

---

(١١) Jahn Ninet : Arable Pacha P. 37.

(١٢ ، ١٣) المؤلف : على مبارك : أبو التعليم ، ص ١٦٢ سلسلة أعلام العرب ط ٢ •

هيكل بقوله (ان قانون العسكرية كان أهم مطلب للجند ، وربما اكتفوا به لو أن الخديو أجابهم فورا اليه) ..

ومضت الثورة العرابية فى طريقها ، فوصلت بالأحداث الى ذروتها من التحدى ، وبالفكر الى غايته من التحول ، وأصبح الشعب كله من ورائها كتلة صامدة لولا خيانة توفيق وشيعته وطمع بريطانيا فى احتلال مصر ، وقد وجدت الفرصة سانحة أمامها ، وقد أدركت عجز فرنسا عن التصدى لها أو مشاركتها الغنيمة ، بعد هزيمتها فى الحرب السبعينية أمام المانيا ، (ولكنها بدلامن اتخاذها موقف المنافس الجدى لبريطانيا فى المنطقة بعد عام ١٨٧٠ ، وقفت موقف الحاقد ـ المناوىء أحيانا ـ الذى خسر المسابقة)(١٤) .

وفات جورج كيرك أن يشير الى استغلال انجلترا ، ما أصاب فرنسا من مركب النقص ، وقد استغلته انجلترا حين طلبت اليها أن تشاركها حملتها البحرية على ميناء الاسكندرية ، وفى يوم ٩ مايو ١٨٨٢ ، بدأ وصول بوارج الاسطولين اليه ، وفى الخامس والعشرين من مايو ، وجهت الحكومتان مذكرة الى الحكومة المصرية ، نصها :

« ان قنصلى فرنسا وبريطانيا العظمى الموقعين على هذا يحيطان علم عطوفتكم بأنه من حيث أن عاطفة الوطنية حملت سعادة سلطان باشا رئيس مجلس النواب ، وكذا رغبته فى تأمين سلم مصر ورفاهيتها على عرض الشروط الآتية على عطوفتلو محمود سامى باشا رئيس مجلس النظار ، اذ رأى أنها الواسطة الوحيدة لوضع حد لحالة الاضطراب فى مصر ، وهذه الشروط هى :

---

(١٤) جورج كيرك : موجز تاريخ الشرق الأوسط : ترجمة عمر الاسكندرى ومراجعة الدكتور سليم حسن : سلسلة الألف كتاب . ص ١٣١ .

١ ـ ابعاد سعادة عرابى باشا مؤقتا عن مصر مع بقاء رتبته ومرتباته ٠

٢ ـ ارسال كل من على باشا فهمى ، وعبد العال باشا حلمى الى داخل مصر مع بقاء رتبتهما ومرتباتهما ٠

٣ ـ استقالة الوزارة الحالية ٠

والقنصلان يريان هذه الشروط لما فيها من روح الاعتدال يمنع المصائب التى تستهدف لها مصر ، فهما باسم حكومتيهما وبتفويض منهما ينصحان حضرة رئيس مجلس النظار وزملاءه بقبولها ، وعند الاقتضاء يشترطان تنفيذها ، وليس لحكومتى فرنسا وانجلترا غاية من التدخل فى شئون مصر سوى حفظ الحالة الحاضرة المقررة ، وبالتالى ، أن يعيدا للخديو السلطة المختصة به ، اذ بدونها يخشى على هذه الحالة المقررة ، فيما أن توسط الدولتين ليس مبنيا على حب الانتقام والتشفى فيبذلان الجهد فى صـــدور عفو عمومى من الحضرة الخديوية وسيسهران على تنفيذ هذا العفو) ٠

وفى اليوم التالى ـ ٢٦ مايو ـ استقالت وزارة البارودى بعد أن أدت واجبها فى الاحتجاج ضد الانجليز وخذلها الخديو ٠

وكان عرابى قد تسنم القمة من زعامة مصر واجتماع المصريين حوله مما حمل قناصل الدول الأجنبية ، فيماعدا قنصلى انجلترا وفرنسا ، ونزل الخديو على رغبتهم وكلف عرابى بالقيام على وزارة الجهادية ٠

ويروى عرابى ما كان من ذلك ، وهو أقرب الى الحقيقـــة مما رواه الرافعى فى اغفاله لبعض الحقائق ، فيقول :

« وفى صباح يوم الســبت ٢٧ مايو سنة ١٨٨٢ حضر لي رئيس مجلس النواب سلطان باشا ، وحسن

باشا الشريعى ، وسليمان باشا أباظه وسلمونى أمر الخديو برجوعى الى نظارة الجهــادية والبحـرية ، وأخبرونى أنهم لما وفدوا على الخديو (وجدوا جميع القناصل فى حضرته ماعدا قنصلى فرنسا وانجلترا)
وانهم طلبوا من الخديو صدور أمره برجوعى الى نظارة الجهـادية والبحرية لأجل اطمئنــان الجميع ، فكان القناصل مع النواب على رأى واحد ، وحينذاك فرح الضباط والجنود وجميع الوطنيين .. وبعد ذلك توالى اجتماع قنصلى فرنسا وانجلترا الجنرالين بالخديو ليلا ونهارا ، ثم أنى أصدرت منشورا الى قناصل الدول تكفلت لهم فيه بتأييد الأمن والراحة لجميع سكان القطر المصرى وطنيين وأجانب مسلمين وغير مسلمين .. الخ

أما الرافعي فيقص من خبر ذلك اللقاء بقوله :

« وفى غروب ذلك اليوم ـ ٢٧ مايو ـ اجتمــع النواب فى دار محمد سلطان باشا رئيس مجلس النواب، ووفد عليهم كبار العلماء .. فعقدوا اجتماعا حافلا ، ثم جاءهم عرابى وهو فى شدة الغضب ، فأخذ يخطب فيهم متهددا متوعدا كل من يناصر الخديو .

وجاء جمع من كبار الضباط منهم عبد العال حلمى باشا وعلى فهمى باشــا الديب ، ومحمد عبيد بك ، وبصحبتهم نفر غير قليل من صغار الضباط والجند ، فدخلوا مكان الاجتماع بشكل مظاهرة عسكرية يطلبون خلع الخديو علنا ويتهددون من يظهر له الولاء ، وقد

بلغ تهور العرابيين أشد ما يكون ٠٠ اذ ألقى عرابى خطبة ملأها طعنا فى الخديو وفى العائلة الخديوية ، ونادى بخلعه ، وختم خطبته بقـــوله : من كان معنا فليقم ! فحدثت ضجة كبيرة فى المكان ووقف الضباط ٠٠ ولكن معظم النواب والملكيين لم يقوموا ، فهددهم الأميرالاى محمد بك عبيد بالسيف فظلوا جالســـين ، وتبين من ذلك الموقف أن النواب لا يوافقون عرابى على خلع الخديو ٠

ولم يكتف عرابى بذلك ، بل هدد بمحاصرة سراى الاسماعيلية التى كان الخديو مقيما بها ، وأمر باحضار ألاى خليل بك كامل لهذا الغرض ـ وانتهى الاجتماع فى هرج ومرج دون أن يظفر بضم النواب الى صفه ، ولما رأى هو وطلبه ويعقوب سامى أن النواب لايوافقونهم على اعلان خلع الخديو ، اكتفوا بالالحاح فى بقـــاء عرابى وزيرا للحربية ٠ فقبل سلطان باشا أن يقوم بهذه الوساطة لدى الخديو فى ذلك ٠٠ وقابل سلطان الخديو فى ذلك اليوم بسراى الاسماعيلية وتحدث معه مليا فى شأن الخلاف وايجاد طريقة لتسويته ، ثم اجتمع بدار سلطان باشا جمع من النواب والعلماء وضباط الجيش وانتهوا الى الاتفاق على مقابلة الخديو ورجائه ابقـــاء عرابى وزيرا للحربية لكى لا يضطرب حبل النظام ٠٠٠ وبعد اصــــراره على رفض طلبهم عاد فقبل رجاءهم

وأصـــدر أمرا الى عـــرابى باعـادته الى وزارة الحربية)(١٥) ٠

(عاد اذن عرابى الى تقلد وزارة الحربية ورياســـة الجيش والسيطرة على الحكومة ، وظلت النفوس قلقة تترقب ما تتمخض عنه الحوادث ، وبقى عرابى وصـــحبه نافذى الكلمة فى شئون الحكومة كافة) ٠

---

(١٥) الزعيم أحمد عرابى : كتاب الهلال ص ١٠٧ ـ ١٠٨ ٠

١/١٣ ـ الخيـانة والمؤامـرة

أما الخيانة فكانت من جانب الخديو توفيق ، وأما المؤامرة فكانت من جانب الانجليز ، أما توفيق فقد رأينا ما كان من مواقفه العديدة تجاه الحركة الوطنية منذ اطمأن الى ولايته منصب الخديوية، الا أن ما يزرى به ويفصح عن خيانته ما كان منه أثر وقوع فتنة الاسكندرية وانطوائه تحت حماية الانجليز ، وهو ما يعبر عنه الامام محمد عبده بقوله :

« أننا لا نريد خونة وجوههم مصـــرية وقلوبهم انجليزية » ٠

كما يصف توفيق فى حديثه الى مكاتب ـ بول ميل جازيت ـ وهو فى انجلترا ، فيقول :

(ان توفيق باشا أساء الينا اكبر اساءة لأنه مهد لدخولكم بلادنا ، ورجل مثله انضم الى أعدائنا أيام الحرب ، لايمكن أن نشعر نحوه بأدنى احترام ، ومع هذا اذا ندم على ما فرط منه وعمل على الخلاص منكم ربما غفرنا له ذنبه) ٠

وكان حديثه هذا على حياة توفيق وحكمه ·

أما الدكتور هيكل ، فيصفه بأنه :

(صورة مرت فى تاريخ مصر فكان أثرها فيه سلبيا هو اثر العاجز عن أن يقوم لبلاده أو لنفسه بخير) ·

ويصفه ـ الكولونيل ب · ج · الجود فى كتابه مصر[1] ، بقوله :

(وكانت تنقصه قوة الشخصية التى تمكن الحاكم من التغلب على الأنواء السياسية ويخونه العزم أو الحكم السديد فى اللحظة الحاسمة) ·

وكان من اليسير أن يصبح توفيق مطية ذلولا للمؤامرة التى تحمله دون أن يعى الى الخيانة ، وكانت تحكمه ولا ريب عقدتان : حذره من العزل ، وأن تدفع الدولة العثمانية بغريمه حليم باشا مكانه ، (وهو من اعتماده على تأييد فرنسا وانجلترا ـ كما يقول الدكتور هيكل[2] · كان يخشى أن لا يتخطى أمرهما التأييد المعنوى، فاذا فوجئا بالأمر الواقع من عزله لم يقوما بعمل لتثبيته فى عرشه، وهو لم يكن يثق حتى بالجراكسة من وزرائه ، لأنه شعر بالقوة المصرية تنقلب على كل شىء فى البلاد وتبتلعه) ·

(وحين أوفد الباب العالى درويش باشا معتمدا سلطانيا لينظر فى الخلاف بين الخديو ووزرائه ، بل والعرابيين جميعا ، فان هؤلاء قد انتهوا الى ضرورة خلع الخديو وتولية البرنس حليم مكانه ، وكانوا يطمعون فى نجاح هذه السياسة لعلمهم أن تركيا تؤيدها ··

---

(١) نقلة الى اللغة العربية الدكتور راشد البراوى ·

(٢) تراجم : المصدر السابق : الخديوى توفيق باشا ص ٩٢ ·

وفى انتظار حل المشـــاكل وتعيين وزارة جديدة تفاقم الخطب واضطرب حبل الأمن فاضـــطر الخديو الى أن يعين عرابى وحده ناظرا للحربية ليتولى امر الأمن فى البلاد ٠٠) ٠٠

(ولم يشعر الخديو من جانب المعتمد السلطانى بما يدل على استعداد تركيا اذا اقتضت الحال للتدخل المسلح ولتأييده فى مركزه برغم العرابيين ، لذلك قبل الموقف كما هو وعين وزارة اسماعيل راغب باشا على أن يظل عرابى وزيرا للحـــربية ٠ وظل توفيق ووزراؤه فى العاصمة ، وظلت أساطيل الدول فى مياه الاسكندرية وظل الناس يتحدثون فيما تؤول اليه الأمور فى زمن قريب ٠ وكان أعجب المواقف يومئذ موقف تركيا ، فقد اقترحت انجلترا وفرنسا أن ينعقد بالاستانة مؤتمر دولى للنظر فى حالة مصر واقرارها على صورة من الصور ، لكن تركيا رفضت رفضا باتا بدعوى أن الحالة فى مصر عادية ، وان النظام قائم لا خوف عليه ، وفيما الحديث بين الدول فى أمر المؤتمر وانعقاده وقعت فتنة الاسكندرية فى ١١ يونيه سنة ١٨٨٢) ٠

ويرى الرافعى ـ وهى مانراه أقرب الى الواقع أن الدعوة الى عقد مؤتمر دولى للنظر فى المسألة المصرية ، قد جاءت من جانب فرنسا اذ (رأى مسيو دى فرنسينيه أنه يستطيع انقاذ الموقف بدعوة الدول الى عقد مؤتمر دولى ٠٠ فعرض فى ٣٠ مايو سنة ١٨٨٢ على الدول الأوربية الكبرى عقد هذا المؤتمر ٠٠ فلم تتردد انجلترا فى قبول هذه الفكرة ، وبادر اللورد جرانفيل وزير خارجيتها باعلان قبولها اذ كان يعتقد أن السياسة الانجليزية لا يصعب عليها أن تبتدع الحوادث التى تسوغ تدخلها المنفرد فى مصر ٠

وكان الخديو فى أثناء أزمة استقـــالة وزارة البارودى قد أرسل برقية الى السلطان ينبئه فيها عن هياج الضباط ٠٠ (وكان

جوابها على رسالة الخديو وعلى فكرة عقد مؤتمر دولى للنظر فى المسألة المصرية ·· أن عينت فى اليوم الثانى من شهر يونيه سنة ١٨٨٢ مصطفى درويش معتمدا عثمانيا ساميا للحضور الى مصر ·· فقد كان ظنها أن حضور ـ مندوب شاهانى يغنى عن عقد هذا المؤتمر ويكفى لاعادة السلام والوئام فى مصر)([٣]) ·

ويعلق الرافعى على هذا الاجراء بقوله : (أن سياستها كانت قائمة على الجهل وقصر النظر ، فبينما كانت انجلترا تعمل على التدخل الحربى وترسل أسطولها تمهيدا وتأييدا لهذا التدخل ، فان الحكومة التركية توهمت أن مجرد ايفادها مندوبا ساميا يعيد الأمور الى نصابها فى مصر ويحول دون تدخل انجلترا ، وتوهمت أن عدم اشتراكها فى المؤتمر يمنع الدول من أن تتدخل أو تبرم أمرا فى المسألة المصرية) ·

ويمضى الرافعى قائلا : (كان هذا هو الوفد العثمانى الذى جاء مصر فى أثناء الحوادث العـــرابية ، والوفد الأول هو الذى حضر فى شهر أكتوبر سنة ١٨٨١ برياسة على نظامى باشا كما تقدم بيانه ، ويهمنا أن نقرر أن كلا الوفدين لم يحضر بنية خالصة نحو مصر ، بل حضر للمظاهرة وللاعلان عن ســـلطة تركيا فى القطر المصرى ، دون أن يعمل كلاهما أى عمل نافع فى فض الخلاف بين الخديو والجيش أو فى انقاذ مصر من مطامع انجلترا) ·

(جاء الوفد العثمانى الثانى ·· فى الوقت الذى اكتمل فيه عدد البوارج الانجليزية والفرنسية فى مياه الاسكندرية ·· وقد كانت رؤية هذه البوارج كافية لأفهامه أن الموقف جد عصيب وان حضوره بصفته مندوبا عن السلطان لايمكن أن يؤثر فى الموقفشيئا بازاءتلك

---

(٣) الرافعى : الزعيم أحمد عرابى ص ١١١ ـ ١١٢ ·

المدافع الضخمة الفاغرة أفواهها ، وتلك المعدات الحربية التى تنذر بالشر والدمار ، وأن هذا الموقف لا يحله حضور مندوب عثمانى عدته المظاهر الفارغة التى يحاط بها، ولا يهمه قبل كل شىء الا الرشاوى والأموال التى يتطلع اليها) ٠

ولم تلق انجلترا بالا الى الوفد العثمانى ، ومضت فى تحرشها بالسلطات المصرية وبلغ بها التبجح أن أبلغت السفارة التركية فى لندن بأن (الجنود المصرية تجرى التجهيزات والترميمات فىحصون الاسكندرية على نية تهديد الأسطولين الانجليزى والفرنسى ، وأن الباب العـــالى يطلب منعها اذا كانت جـارية ، ثم أردفت ذلك بتلغراف آخر فى اليوم التالى يستعجل الرد) ٠

(وكان هذا البلاغ من وزارة الخارجية البريطانية ـ كما يقول الرافعى[٤] ـ بداية التحرش بالسلطات المصرية ، اذ بنى على مازعمه الأميرال سيمور من أن السلطات المصرية تحصن القلاع المواجهة للاسطول) ٠

ونرى أن انجلترا كانت تدرك تماما مايمكن أن تقوم به تركيا ، كما كانت تدرك أن دور فرنسا لن يتعدى المناورة السياسية ، والدعوة الى مؤتمر دولى للنظر فى المسألة المصرية ، كما رأت ذلكوأشارت به ، واكتفت بما دعته ـ ميثاق النزاهة ـ الصادر ـ عن ـ مؤتمر الأســتانة ، وهى التى دعت اليه وتزعمه المسيو دى فريسينيه ـ وعرضـــه على لورد جرانفيل ، فقبله ، وتعهد خادعا بتنفيذه . ونصـــــه :

(تتعهد الحكومات الموقعة على هذا القرار بالا تتضمن

(٤) المصدر السابق نفس الصفحة ٠

أية تسوية للمسألة المصرية أى احتلال لأراضـيها أو الحصول على امتياز خاص بها أو مكاسب اقتصادية أو امتيازات تجارية لرعاياها لا يخول لغيرها من رعايا الدول الأخرى) ..

واقترح اللورد دفرين اضافة تحفظ على القرار نصه ـ فيما عدا الأحوال القهرية ـ

ودلت هذه الاضافة على نوايا بريطانيا ، وهو ما تسفر عنه رسالة لورد دفرين الى اللورد جرانفيل ، يقول فيها ، أن هذا التعديل فى القرار وأضافة هذا النص ، لم يعد للاتفاق أهمية تذكر .

ومضت بريطانيا فى خديعتها ، حين قرر المؤتمر فى جلسته الأخير تكليف تركيا بارسال قوة عسكرية كافية تتكفل بحفظ النظام والأمن فى مصر .

وأنهى المؤتمر الدولى جلساته يوم ٦ يوليه سنة ١٨٨٢ ، وقد اطمأنت انجلترا الى خطتها ، فما وافى يوم ١١ يوليه ، وقبل أن تقدم تركيا على تنفيذ القرار أو الرد عليه أقدم الأسطول الانجليزى منفردا على ضرب الاسكندرية . وكان اجراما سافرا ، وان كان بجواره اجرام خادع أو مخدوع أما الاجرام الخادع فكان من الخديو توفيق والمخدوع كان فى موقف السلطنة العثمانية من الأزمة ، ولكل منهما أسبابه البعيدة أو القريبة فى مجرى الأحداث التى انتهت باحتلال انجلترا مصر ، وما كان من سياستها البغيضة التى عاقت نهضة مصر وتقدمها . منذ وطئت أرضها أقدام الأفغانى ، حتى انبعثت ضراما ملتهبا فى ثورة ١٩١٩ ، لتكون امتدادا لثورة عرابى فى كلمته الخالدة مصر للمصريين .

وما كان ضرب الأسطول البريطانى للاسـكندرية الا ذريعة لاحتلالها مصر ، ولم تكن سياستها تلك بنت الساعة ، أو وليدة ظرف طارىء انتهبته لاحتلال مصر ، وانما هى سياسة تمتد بجذورها ـ كما يرى المفكر العملاق ـ عباس محمود العقاد ـ الى زمن بعيد (فهى ـ أى المسألة المصرية ـ من جميع الوجوه حلقة من سلسلة الوقائع والمنازعات التى دارت سـجالا بين الشـرق والغـرب من أقدم العصور التاريخية ، وتعددت بواعثها بين عصر وعصر وهى فى جميع البواعث تدور على محورها ـ التقليدى ـ من هذا النزاع الدائم بين الشقين المتنافرين المتناظرين ٠

وقد علت هذه المساجلات حينا بحب الفتح والغلب ، وحينا بدفع الخطر ، واتقاء الغارة ، وأحيانا بالبحث عن الموارد الزراعية والتجارية ، أو بتنازع البقاء بين زحام الشعوب فى حيز محدود) ٠

ولكنها فى حوادثها التى انتهت باحتلال مصر قد تمثلت فى دورين كبيرين : أحدهما لاحق بالآخر ومتوقف عليه : هذان الدوران هما : دور الحروب الصليبية ، ثم درو المسألة الشرقية ، واحتلال مصر لم يكن الا صفحة من صفحات هذا السجل الواسع الذى اشتهر باسم المسألة الشرقية ، وامتد من الشرق الأدنى الى الشرق الأقصى فى حقبة من حقب التاريخ ٠

(بدأت الحروب الصليبية فى القرن الثانى عشر ، واشتهرت باسم الحروب الصليبية لأن الداعين اليها نشروا دعوتهم باسم الدين واستنفروا أمم أوربا للاستيلاء على بيت المقدس وموطن ميلاد السيد المسيح ، ولكنها فى حقيقتها لم تكن دينية بحتة ، ولم تخل من بواعث سياسية واقتصادية لاعلاقة لها بالدين ولا بالأماكن المقدسة) ٠

(ولهذا اتفق كثيرا أن جمهورية جنوا وجمهورية البندقية بذلتا المسعى الحثيث لتحويل زحف الجيوش الصليبية الى القسطنطينية

وهى فى أيدى العواهل المسيحيين ، وساعدتهما كنيسة رومة مرة بعد مرة فى هذا المسعى المتواصل ، لأنها كانت تشـــفق من نفوذ الكنيسة الشرقية وتبادلها التحريم والحـــرمان ، فى عنف ولدد وخصـــومة تهون عندها جميع الخصـــومات · أما الجمهوريتان الايطاليتان فكان همهما الأكبر تأمين المواصلات بين الشرق والغرب والاحتفاظ بطريق البحر الأبيض المتوسط حذرا من تحول التجارة الى البحار الغربية) ·

ويمضى العقاد فى تناوله لتلك الأحداث التى انتهت باحتلال الانجليز مصر وما كان من الخديو توفيق ، فى اعتقاده (أن التدخل الأجنبى موقوت وأن المعاهدات الدولية والمنافسات بين الدول تمنع ضم مصر الى دولة منها ، فلم يحذر الاحتلال البريطانى ووجه الحذر كله الى مقاومة العرابيين(٥) فأصدر أمره فى الحادى عشر من شهر يوليو — منذرا من يقاوم الجيش الانجليزى بشديد العقاب — وجاء فى ذلك الأمر مايلى :

(ليكن معلوما عند السلطات الملكية والعسكرية فى منطقة قناة السويس ، أن أميرال الأسطول الانجليزى ، وقائد الجيوش البريطانية العام انما أتيا الى مصــــر لاعادة الأمن والنظام اليها ، ومن ثم قد سمحنا لهما باحتلال جميع الأمكنة التى يريان فى احتلالها ما يساعد على قمع العصيان ومن يخالف أمرنا هذا ينزل به أشد العقاب) ·

ويقول العقاد : (وعلى حين فجأة ينكشف الستار وتنجلى الغشاوة ويبدأ المحتلون حكمهم فى القاهرة بتهديد مســـند الخديوية الذى

---

(٥) **العقاد** : المصدر السابق ص ١٣٧ و ١٣٨ ·

زعموا أنهم جاءوا لتأييده وتمكينه ، فماهو الا أن اختلف الخديو وقادة الانجليز على طريقة محاكمة العرابيين حتى أبرق اليه اللورد ـ جرانفيل ـ مهددا متوعدا فى أسلوب خشن ولفظ قارص وأبلغ الحكومة المصرية بصـــريح العبارة ، وأنه ليس هذا أوان ظهور الحكومة المصرية بمظهر المعارضة والممانعة ، وان استمرارها على الأباء يعرضها للفشل والخطر ، ولاتكون هذه مقتصرة على الوزارة وحدها بل تتناول مركز الخديو نفسه،واذا لم تقبل الحكومةالمصرية طلب الحكومة الانجليزية فلا يسعها أن تتحمل تبعة مايترتب على رفضها من النتائج السيئة بعد انقضاء ثمانية أيام على تبليغ هذا الانذار) ٠

(تلقى الخديو هذا الانذار من الوزارة البريطـــانية قبل أن ينقضى على جيش الاحتلال شهر واحد فى القاهرة ، ولو تسنى له أن يتراجع فى سياسته لتراجع وأمعن فى التراجع ، ولكن ســـبق السيف العزل ، وبلغ الكتاب أجله وانتهت الحيل بترك الحيلة مع أقطاب الاحتيال والاغتيال) ٠

وكانت مذبحة الاسكندرية قمة المأساة وغاية الخديعة وليس من خلاف بين الرواة حول أحداثها ، وقد نرى فى عرض ـ أحمد حسين(٦) ـ فى موسوعته الأثيرة تحليلا أوفى وعرضا أدق لما حدث، فيقول بعنوان ـ مذبحة الاسكندرية :

(فى ١١ يونيو انفجر الموقف الملتهب فى الاسكندرية ، واشتعلت النيران على صورة هذه المذبحة التى تعتبر بحق نقطة البداية لاحتلال مصر ، وكان عود الثقاب الذى فجر الموقف الملتهب مشاجرة وقعت

---

(٦) المصدر السابق : ص ١٠٩٠ ٠

بين أحد المالطيين من رعايا الانجليز ، وكان قد استأجر حمارا من أحد الوطنيين ، وفى نهاية النهار قدم له قرشا ، فاحتج الوطنى فسبه المصرى فتماسكا فما كان من المالطى الا أن طعن الوطنى بسكين فقتله ، وهرب الى أحد مساكن الانجليزى فى الوقت الذى تجمع فيه رفاق القتيل للامساك بالقاتل الذى لم يلبث أن فر الى أحد المنازل المجاورة ·· وبدأ اليونانيون والمالطيون الساكنون بالقرب من مكان الحادث يطلقون النار على الأهالى من الأبواب والنوافذ بحجة الدفاع عن النفس فسقط كثير من الأهالى ما بين قتيل وجريح فثارت نفوس الأهالى وبادروا بالانتقام فراحوا يقتلون من يعثرون عليه من الأجانب وكان الأوربيون من ناحيتهم يطلقون النار على الأهالى) ·

(ويذكر الأستاذ سليم النقاش ــ كما يقول ــ فى كتابه ــ مصر للمصريين ــ أن البوليس قد لعب فى هذا اليوم دورا محزنا ، واليك نص عبارته ــ وكان كل من العائدين الى المدينة (من الأجانب) يلجأ الى دار الضبطية الكائنة فى الشارع المعروف بأسمها توهما منه أنه اذا بلغ مركز رقابة الأرواح صار فى مأمن من هجمات أولئك الرعاع ، ولكن وأسفاه ، فان ذلك المقام أصبح فى تلك الساعة مقرا للأهوال ، ومعهدا للفظائع فان نفرا من عساكر المستحفظين ــ البوليس ــ كانوا قد أثبتوا فى ساحتها ، وانتشروا على جانبها للوقوع بالمارة ، فكانوا يقبضون على كل أجنبى لجأ الى الضبطية ويفتكون به ويقتلونه ويتركوه للرعاع يسلبون ما عليه من ثياب أو حلى ثم يشوهون وجهه تشويها ويرمون به الى البحر) ·

(كان ممن قتلوا فى هذا اليوم أحد ضباط الأسطول الانجليزى وخادم خاص للاميرال كان قد نزل الى المدينة ليتنزه) ·

(وكان من بين الجرحى فى هذا اليوم قنصـــل انجلترا فى الاسكندرية المستر كوكس وقد كتب لحكومته يصف لها ما حل به ويعجب كيف أنه ظل على قيد الحياة ولم يمت ، وظلت هذه الفوضى فى الاسكندرية ولم تهدأ الا عندما نزل الجيش فى الساعة الخامسة مساء واستطاع أن يفرق الجماهير فى سهولة وأن يعيد الأمن الى نصـــابه) .

(وقد اختلف اختلافا كبيرا فى عدد القتلى والجـــرحى من الجانبين ، فحيث يقدرهم البعض - جون نينيه - بمائتين وثمانية وثلاثين من الجانبين الوطنى والأجنبى فان البعض يرتفع بهم الى ثلثمائة) .

(والحقيقة المؤكدة أن قناصل الدول فى الثغر ألفوا لجنة قدمت تقريرا جاء فيه أن عدد القتلى من الجانبين ٤٩ منهم ٣٨ من الأجانب وأن عـــدد الجرحى ٧١ منهم ٣٦ من الأجانب و ٣٣ من الوطنيين واثنان من الأتراك)

ويتساءل أحمد حسين : من المسئول ؟ .

(واذا كانت الروايات قد اختلفت هذا الاختـــــلاف الـكبير حول عدد القتلى والجرحى فى مسألة مادية بحتة فباستطاعتنا أن نتصور مدى التضارب فى الآراء التى حاولت أن تلصق التهمة بهذا الجانب أو ذاك فقد حاول كل فريق أن يلصق التهمة بالحزب المضاد له ، فقد أسرع الانجليز والخديو بتوجيه الاتهام الى عرابى باشا وحزبه العسكرى فى الوقت الذى ألقى فيه الوطنيون التهمة على الخديو ورجاله باعتبارهم أرادوا بهذا الحادث احراج مركزه واظهاره بمظهر العـــاجز عن حمـــاية الأمن ، ولقد قام من بين الانجـــليز - راندولف تشرشل - بعد أن احتلوا مصر من حاول احراج وزير

خارجية انجلترا ، فأظهر أن لأعمال ممثل انجلترا فى مصر مالت وكوكس دخل فى تدبير هذه المذبحة بالاتفاق مع الخديو فقد كانا يتوقان لعمل سيتخذ ذريعة للتدخل البريطانى · وأعاد الى الأذهان برقية قيل ان الخديو بعث بها الى عمر باشا لطفى قبيل المذبحة ، وجاء فيها :

(لقد ضمن عرابى الأمن العام ونشر ذلك فى الجرائد وقد تحمل مسئولية ذلك امام القناصل فاذا نجح فى ضمانه ، فان الدول سوف تثق به وسوف نفقد بذلك اعتبارنا ، يضاف الى ذلك أن أساطيل الدول فى ميناء الاسكندرية ، وان عقول الناس فى هياج ، وأن الحرب قريبة الوقوع بين الأوربيين وغيرهم ، والآن فأختر لنفسك هل تخدم عرابيا فى ضمانه أم هل تخدمنا ؟) ·

ويخلص احمد حسين بعد مناقشة ما كتب فى هذا الصدد الى :

١ ـ انجلترا هى المسئولة الأولى عن وقوع هذه الفتنة ، فقد كان وجود أساطيلها فى الاسكندرية هو الوقود الذى أدى الى اشتعال النار ·

٢ ـ انه من الثابت أن وزعت أسلحة على الانجليز المقيمين فى الثغر قبل هذا الحادث ·

٣ ـ أن مشعل ثقاب الفتنة المالطى هو أحد الرعايا الانجليز بل قيل أنه شقيق خادم القنصل الانجليزى ، وما كان ليجرؤ على قتل وطنى الا لعلمه بما يدبر فى الخفاء ·

٤ ـ أن السير ادوارد مالت بعث برقيات الى وزير خارجية انجلترا يتنبأ فيها بقرب وقوع متاعب ، وأنه من الخير التعجيل بها ، هذا بالنسبة للجانب الانجليزى ·

وهناك حقيقة خاصة بمسئولية عمر لطفى محافظ الاسكندرية وهو أنه وقف موقفا سلبيا فى هذا اليوم بأجماع الآراء ، وأنه لم يتصل بعرابى باشا منذ وقت مبكر وعندما فكر فى استدعاء الجيش اشترط أن ينزل بغير سلاح ٠

أما الخديو ورجاله فقد كانوا فى منتهى السعادة والغبطة لما حدث ٠٠ ولنا فى ذلك شهادة الشيخ الأمام محمد عبده الذى قال لنا فى مذكراته :

(وفى يوم الحـــادث توجهت الى السراى فرأيت موظفيها فى جدل عظيم مما حدث وكانوا يبالغون فى رواية ما كان ويضحكون من تعهد عرابى بالمحافظة على الأمن العام ومن المعلوم أن موظفى السراى لا يقولون الا ما يسر الخديو ، فاذا كانت الأخبار سارة تكلموا وضحكوا والا تظاهروا بالحزن والكآبة جهدهم) ٠

والحقيقة المؤكدة ــ كما يرى أحمد حسين ــ التى تثبت براءة عرابى باشا وحزبه من حوادث هذا اليوم ٠٠ أنه من غير المعقول وقد ضمن الأمن العام أن يتآمر على نفسه ، على أن الدليل القاطع على هذه البراءة ، أن الانجليز بعد أن دخلوا مصر ، قد استبعدوا هذه التهمة عن عرابى فى محاكمتهم له ، ويبقى أن الانجليز دبروا ، ومحافظ الاسكندرية وحزب الخديو شجعوا وكان الظرف العـــام مهيئا لوقوع مثل هذا الانفجار ٠

ولم يمض يومان حتى سافر الخـــديو ــ ١٣ يونيو ــ الى الاسكندرية للتصييف وللعمل على تهدئة الأجانب ، ولم يكن ينشد فى الواقع غير الاحتماء بالانجليز ، وهو يعلم أنهم قد أعدوا العدة للتدخل ، ولعل عرابى حين سمح للخديو بالسفر ، بل كان فى وداعه

(فركبت ـ كما يقول ـ على يساره من سراى الاسماعيلية الى محطة مصر) لم يكن يحب أن يبدو فى صورة الثائر العاصى ، وانه لا ينشد غير مصلحة مصر ، وأن يكون الخديو الى جانبه فيمـــا ينشده ، وقد رأينا مما سبق كيف كان يخاطب الخديو بكل توقير ولم يستجب للبارودى حين رأى خلع الخديو واعلان الجمهورية ، ولعله لو كان قد خلع الخديو لما وجد من الانجليز ثمة معارضة الا فيما يتصـــل بمصالحهم فلو أنهم ضمنوها لما كان لهم أرب فى خلعه ، وقد احتلوا مصر ولم ينكروا سيادة الدولة العثمانية ، وظلوا يعلنون أن احتلالهم موقوت حتى عام ١٩١٤ ، حين وقعت الواقعة بينهم وبين الدولة العثمانية حين أخذت جانب الألمان فى الحرب العالمية الأولى ٠

وكان من مسالمة عرابى أنه كما أبى الاستجابة الى البارودى وعبد الله النديم باعلان الجمهورية أبى الاستجابة الى مشـــورتهم ـ كما قيل ـ بردم قناة السويس ٠ وكان أول ما قام به فى وزارة اسماعيل راغب باشا ، وكان عرابى هو القوة الحقيقية فى الوزارة أن رأى (تشكيل لجنة مختلطة من المصريين والأجانب لتجرى تحقيقا واسع النطاق فى حوادث ١١ يونيه ومعرفة أسبابهـــا والمسئولين عنها تمهيدا لتوقيع العقوبات[٧] الزاجرة على كل من يثبت اشتراكه فيهـــا) ٠ ٠

ولكن انجلترا أبت التعاون مع وزارة راغب باشا ، وأوعزت الى السير أوكلن كلفن بالامتناع عن حضور جلسات مجلس الوزراء، لتمضى فى عدوانها الباغى كما تريد ٠

---

(٧) مذكرات : الجزء الأول ص ١٤٧ ٠

١٤/١ ـ العدوان الباغى

وحين أمنت انجلترا انفرادها بالمسألة المصرية بعد موقف تركيا المريب ، وتقاعس فرنسا عن الاسهام فى المعركة وارسل فريسينيه رئيس وزرائها تعليماته الى الأسطول الفرنسى بالانسحاب من مياه الاسكندرية ، ولعله قد تصور أن الأسطول الانجليزى لايستطيع أن ينفرد بالعمل أو بتعبير ادق أن انجلترا لا تنفرد بحل المسألة المصرية دون موافقة الدول الأخرى التى تشارك فى حلها ٠

وكانت البداية حين وجه الأميرال سيمور انذاره بتجريد القلاع والطوابى من أسلحتها ، وكان على عجالة من أمره حين عرف أن أسطول بحر المانش كان قد تلقى الأوامر بالاقلاع الى البحر المتوسط للانضمام الى أسطول سيمور للمعاونة فى ضرب الاسكندرية ، ولما كان الأميرال قائد أسطول المانش أرقى رتبة من سيمور فقد خشى سيمور من اشتراكه معه وبذلك تؤول اليه القيادة العامة للاساطيل وينسب اليه شرف الانتصار المرتقب(١) ٠

---

(١) المؤرخ العسكرى محمد فيصل عبد المنعم · معارك الثورة العرابية هامش صفحة ٧٦ ٠ كتاب التعاون السياسى ٠

واخذ الأميرال سيمور يتلمس الأسباب لعدوانه الغادر الباغى أول أيام شهر يوليو سنة ١٨٨٢ ، للقضاء على عرابى وبالأحرى القضاء على تلك الروح الجديدة التى أخذ يدعو اليها ويبثها فى نفوس المصريين ، فضلا عن النهضة الفكرية والأدبية التى قادها رفاعة الطهطاوى وعلى مبارك ومحمد قدرى باشا ، وأورى شعلتها جمال الدين الأفغانى وعجز الاحتلال البريطانى عن اطفائها حتى قام عليها الامام محمد عبده ليبقى عليها نيرة وضاءة.فكانت دعوة قاسم أمين لتحرير المرأة ودعوة مصطفى كامل ، لمقاومة الاحتلال البريطانى ولتكون مصر أغنيته الخالدة ودعوة لطفى السيد للحياة الدستورية ولتكون مصر للمصريين ومواقف سعد زغلول الخالدة لتبرز جميعا فى ثورة ١٩١٩ ، مما سبق التنويه به ، فاذا كان الاحتلال البريطانى قد عاق تقدم مصر ونهضتها فقد بقيت روح مصر قوية جياشة بالوطنية لا تلين ولا تهين ولا تميد · لتمضى على دعوة عرابى ـ مصر للمصريين ـ خالدة على الزمن ـ حتى خرجت بريطانيا من جولتها بخفى حنين ، وغدت ولاية من ولايات أمريكا حتى عدها البعض الولاية الثالثة والخمسين من ولايات أمريكا فى اطارها الكونفدرالى · وقضى على الامبراطورية التى لا تغيب عنها الشمس ·

فمع ما كان من سلطان انجلترا فى مصر ، (كانت الحركة الوطنية المصرية ـ كما يقول الدكتور هيكل ـ(٢) تنمو وتقوى ، وكانت الثورة النفسية لشعب مصر الوادع الذى لا يقبل مذلة ولا خضوعا قد ملأت النفوس حتى كادت تفيض عنها) ·

وقد شرع الأميرال بوشامب اعتبارا من أول يولية ١٨٨٢ ـ كما أشرنا ـ يتلمس الأسباب والذرائع التى تدعوه لبدء القتال،

---

(٢) المصدر السابق ص ١٢١ ·

وتحطيم تلك الروح المصرية الجديدة المتطلعة الى الحرية والاستقلال، والتى مثلها الزعيم أحمد عرابى ٠٠ وكان صبر بريطانيا ـ حكومة وشعبا ـ قد نفذ تماما ٠٠ فطوال عام ونصف كان كل انسان يرى أن شيئا ما يجب عمله بسرعة للقضاء على عرابى باشا ٠٠ » على حد رواية لورد كرومر فى كتابه عن مصر ٠

« ففى يوم ٥ يوليه أنعقد مجلس الوزراء المصرى الذى حمل فيه عرابى باشا حملة شعواء على سلطان تركيا ٠٠ وقبل ذلك وفى يوم ٣ يوليه ٠٠ كان اللورد الستر ـ الأميرال بوشامب سيمور ـ قد كلف بالعمل على وقف أعمال التحصينات المصرية ، فان لم تتوقف فان عليه تدميرها واسكات البطاريات اذا أطلقت النيران »(٣) ٠

ويمضى كرومر فى روايته قائلا :

(٠٠ ولما كان الرأى العام البريطانى والحكومة البريطانية قد اتفقت وجهة نظرهما قبل ذلك على الكف عن الخطط السياسية التى تشبه نسيج العنكبوت ، والتى كانت تقف دائما عقبة فى طريق أى عمل مثمر ومكنت عرابى باشا من تحدى أوربا ٠٠ فان الفرصة قد سنحت لنا من تلقاء نفسها للقضاء عليه ٠٠ ففى تاريخ سابق هو ٢٣ يونية ١٨٨٢ وصل الى علم الأميرالية البريطانية بأن بطاريات السواحل المصرية يتم تجهيزها فى الاسكندرية لاستخدامها ضد الأسطول البريطانى ، وأن السلطان العثمانى قد أمر بوقف هذه الأعمال فنفذ المصريون أوامره لبعض الوقت ، ثم استأنفوها بعد شهر واحد الى جانب العمل على حشد حامية الاسكندرية وقيام عرابى باشا بتحريض زملائه على اثارة شعور الجماهير ٠٠)

---

(٣) Modern Egypt.

وكان ما كتبه لورد كرومر قد مضى عليه زمن ، ولم يكن يقصد، كنهج غيره من الاستعماريين الانجليز ممن عرضوا لها ، غير تبرير سوء ما قاموا به لاسيما وقد قام من أحرار الانجليز من تصـــدى للدفاع عن عرابى ، وأعابة الانجليز ممن أخذوا جانبه ودافعوا عنه ، وقد لا يكون ذلك حبـــا فى عرابى بقدر ما كان حبا فى الدفاع عن الشرف البريطانى الذى يدعونه ، كما يدعون أنهم حراس الحضارة وسدانتها فى العالم سندا لسيادتهم الاستعمارية فى امبراطوريتهم التى لا تغيب عنها الشمس ٠

وواتت الانجليز الفرصة بانسحاب الأسطول الفرنسى من الميناء بناء على تعليمات حكومته ، وأخذت تعد لقصف قلاع الاســـكندرية وكانت مسرحية تثير العديد من السخرية ومن قبيل ذلك تلك البرقية التى بعث بها الأميرال ســـــيمور (فى يوم ١١ يوليه ١٨٨٢ الى الأميرالية البريطانية من الاسكندرية ، يقول فيها :

(لقد شوهدت مراكب مشحونة بالمواد المفرقعة على مسافة قريبة من الجسر ـ يقصد قناة السويس ـ وفى هذا الموقع معسكر كبير للبدو ، ومعسكر الزقازيق تلقى أوامره بحشد ٣٠ ألف رجل مزودين بالفئوس والأجولة ـ مما يعنى أن النية معقودة على سد قناة السويس) ٠٠

ويقول عرابى :(أن النبى يزوره كل ليلة ، ويأمل أن تقع الأساطيل المتحدة فى فخ ينصـــبه وذلك بأن يغرق مراكب محملة بالأحجار فى القناة)(٤) ٠

---

(٤) المؤرخ العسكرى محمد فيصل عبد المنعم : معارك الثورة العرابية ص ٧٨ ٠ نشر كتاب التعاون السياسى ٠ مؤسسة دار التعاون للطباعـة والنشر ٠ والكتاب تفصيل واف لمعـــارك الثورة العـــرابية من النـــاحية العسكرية ٠

وتتوالى الرسائل بين الأميرال سيمور والأميرالية البريطانية لا نرى فيها اذا صحت الا أنه لا يقدم على أمر دون استشارة حكومته عن طريق مجلس الأميرالية البريطانية ، وان كان ذلك اصرار بريطانيا على نواياها فى احتلال مصر ، ولم يكن موقف عرابى أو دعوته ـ مصر للمصريين ـ الا ستارا تستر به نواياها ، وان كان من نواياها سواء كان عرابى أم لم يكن غير القضاء على نهضة مصر ـ كما يثبت العقاد ـ حتى لا يمتد أثرها الى مستعمراتها فى الشرق البعيد ، وهو مايراه مستر بلنت ، بقوله :

(أن وزارتى الحربية والبحرية فى انجلترا عقدتا النية منذ أوائل سنة ١٨٨٢ على مهاجمة مصر من ناحية قناة السويس ، وشاهد بنفسه الاستعدادات الحربية فى انجلترا فى شهر يونية سنة ١٨٨٢ ، وكان يعتقد أن الغرض منها تقوية مركز انجلترا فى مؤتمر الاستانة ولكن تبين له فيما بعد أن الغرض منها مهاجمة مصر)(٥) .

وهو مابدا سافرا فى تدبيرها مذبحة الاسكندرية ، ويؤكده ـ المسيو جون نينيه ـ فى لقائه بالمستشرق الانجليزى بالمر حين كلفته وزارة الحربية البريطانية بالمجىء الى مصر وارتياد صحراء سيناء لرشوة القبائل البدوية بين قناة السويس وغزة قبل نشوب الحرب ، وقابله جون نينيه فى الاسكندرية عرضا ، فقال له بالمر : أنصحك بمغادرة القطر المصرى حالا لأن الاسكندرية ستضرب بالقنابل عما قريب وستكون عرضة لأن يقتلك الأهلون(٦) .

---

(٥) بلنت : التاريخ السرى للاحتلال ص ٢٦٦ . والرافعى : الثورة العرابية ص ٣٣٨ .

(٦) جون نينيه ـ عرابى باشا ص ١٤٥ ، والرافعى المصدر السابق ص ٣٤٠ .

ويقول جون نينيه : أن الأستاذ بالمر قام بمهمته ولكن البدو قتلوه هو وصحبه ، وحوكم قتلتهم عقب الاحتلال وحكم عليهمبالاعدام ويرى الرافعى : (ان كل هذه الشواهد والنيات تدل على سبق اصرار انجلترا على ضرب الاسكندرية واحتلالها مهما كانت الأحوال أو اختلفت الأسباب وبالتالى ـ كما أضيف ـ احتلال مصر) .

وبدأ التحرش برسالة الأميرال سيمور فى ٦ يوليه الى طلبة باشا عصمت قومندان موقع الاسكندرية يأمره بالكف عن أعمال التحصين الجارية فى الحصون ، وأيقن العارفون بحقائق الأمور أن الحرب واقعة لا محالة ، وأوعز قنصلا انجلترا وفرنسا الى رعاياهما بالرحيل عن المدينة ، فتسابقوا الى هجرها ونزلوا الى السفن الراسية بالميناء ، وبلغ عدد الراحلين عنها نحو ٩٩٪ من عددهم الأصلى ـ كما يذكر جون نينيه فى كتابه ـ عرابى باشا ـ وقدرهم بمائه واثنين وستين ألفا . كما هجرها كثير من ثراة المدينة الى داخل القطر ، الا أن أكثر المواطنين بقوا بها .

وامعانا فى التحرش أرسل الأميرال سيمور فى العاشر من يولية انذاره الأخير ، يطلب اليه (تسليم البطاريات المنصوبة فى الحصون القائمة بشبه جزيرة رأس التين وعلى ساحل ميناء الاسكندرية الجنوبى ، والا ضرب الحصون صبيحة الغد ، وهو ما يؤكده اللورد دوفرين سفير انجلترا فى الآستانة الى وزارة الخارجية العثمانية فى العاشر من يولية يبلغها بأنه ـ اذا لم تسلم له الحصون مؤقتا يُجردها من سلاحها فانه سيبدأ بالضرب خلال أربع وعشرين ساعة ـ .

(وفى الساعة السابعة من صباح يوم الثلاثاء ١١ يولية عام ١٨٨٢ ـ كما يقول المؤرخ العسكرى ـ محمد فيصل عبد المنعم

ـ أعطى الأميرال سيمور اشارة بدء القتال ويعلق على ذلك بقوله :
(دخل التاريخ بوصفه أحد مجرمى الحرب غير مبال بحقوق الشعوب أو سيادة الدول أو استقلالها ـ وقد بدأت البوارج الانجليزية فى ضرب الحصون حسب الخطة الموضوعة من قبل ، فضـــربت أولا حصون الفنار ورأس التين والاستبالية ·· وقد قاومت الحصون المصرية ، رغم الحالة التى كانت عليها مقاومة فاقت كل ما كان يتوقعه الانجليز ، وأبدى جنود المدفعية المصرية مهارة فى اطلاق القذائف أذهلت البريطانيين مما دفع بالبوارج الى القاء مراسيها لأنها وجدت أن ضربها غير محكم وهى تتحرك ، وبذلك حققت المسافة المضبوطة التى تفصلها عن الحصون ، وأخذ ضربها يزداد أثره تبعا لذلك) ·

ولقيت مقاومة المصريين من اكبار وتقدير المحايدين من شهودها بقدر ما لقى العدوان البريطانى من نقد وتحقير ·

وقد تفانى المواطنون فى الدفاع عن المدينة رغم أن الحـــرب كانت حرب مدافع وحصون ، (وعرف ــ كما يذكر جون نينيه ــ أن الأميرال سيمور الذى تعهد بأن لا يضرب الا القلاع قد تناسى عهده ونشر الموت والخراب فى كل أنحاء المدينة ورأيت الحرائق شبت فى عدة جهات دون أن يستطيع أحد أخمادها)(٨) ·

ويذكر الامام محمـد عبده فى هذا الصدد(٩) : قال ــ فكل الرجال والنساء تحت مطر الكلل ونيران المدافع ينقلون الذخـــائر

---

(٧) المصدر السابق ص ٩٨ ·

(٨) الرافعى : المصدر السابق ص ٣٦٧ نقلا عن جون نينيه ــ عرابى باشا ص ١٧٥ وما بعدها ·

(٩) المصدر السابق نقلا عن مذكرات الشيخ محمد عبده ص ٢٥٠ تاريخ الأستاذ الأمام ·

ويقدمونها الى بعض بقايا الطوبجية الذين كانوا يضربونها ، وكانوا يغذون بلعن الأميرال سيمور ومن أرسله ـ وقال عرابى فى ذلك :

(وفى أثناء القتال تطوع كثير من الرجال والنساء فى خدمة المجاهدين ومساعدتهم فى تقديم الذخائر وأعطائهم الماء وحمل الجرحى منهم وتضميد جراحهم ونقلهم الى المستشفيات)(١٠) ٠

وقال محمود فهمى باشا فى كتابه البحر الزاخر :

(ورأيت فى ذلك الوقت بعينى ما حصل من غيرة الأهالى بجهة رأس التين وأم كبيبة وطوابى باب العرب وهمتهم فى مساعدة عساكر الطوبجية من جلبهم المهمات والذخائر وقراطيس البارود والمقذوفات ونساؤهم وأولادهم وبناتهم والبعض من الأهالى صار يعمر المدافع ويضربها على الأسطول) ٠

وقد قتل من المصريين خلال هذا العدوان الجائر ـ وأقول الخسيس ـ حوالى ألفين ، ولم تزد خسائر الانجليز عن خمسة من القتلى وتسعة عشر جريحا ، وفى حديث عرابى ـ لجون نينيه ـ أن عدد القتلى سبعمائة والجرحى خمسمائة ، وان كان يقدرهم فى مذكراته ـ كما يقول ـ بمائة رجل وامرأتان من المتطوعات اللواتى كن يضمدن جراح الجرحى ٠

ويشهد الكثيرون ومن بينهم بعض الانجليز ببسالة المصريين ، فيقول الماجور ـ تلوك Tullock ـ من رجال المخابرات

---

(١٠) مذكرات : الجزء الأول ص ١٧٨ ٠

الانجليز على ظهر البارجة (انفسيبل) فى كتابه ــ ذكريات أربعين عاما فى الخدمة :

(لقد كان من العجب حقا أن أرى هؤلاء الجنود رغم شدة الضرب واقفين فى أماكنهم ، صامدين أمام مدافعهم ، وقد رأيت أكثر من مرة قذيفة من قذائفنا ، تصيب مزغل المدفع حيث تمتـــد ماسورته ، فأقول فى نفسى ، لقد قضى على هذا المدفع وأصبح حطاما ، الا أننى لا ألبث أن أرى ماسورة المدفع تبرز من مزغلها ليطلق قذائفه فى اللحظة المواتية وبسرعة فائقة ولم أتمالك نفسى فوثبت الى حافة البارجة صائحا · لقد أجدت استخدام مدفعك ايها الجندى المصرى ·

وتجمع الآراء حتى من جانب الأعداء على بســـالة المقاومة المصرية سواء من جانب القوات المحاربة أو المواطنين رجالا ونساء ، كما تجمع على نذالة العدوان ، هذا العدوان الذى يصفه ــ محمود الخفيف ــ بقوله(١١) :

(هذا هو العدوان الذى لا نجد فى تاريخ الحروب أقبح منه ، أو أشد منه فجورا ، والذى سوف تنطوى العصور ويظل فى تاريخ الانسانية من أبلغ الأمثلة على ما يفعل الأقوياء بالضعفاء ، وفى تاريخ الاستعمار المثل الرائع على ركوب أية وسيلة الى الغاية فى غير مبالاة بما يسمى الشرف أو الحق أو العدالة ··)

(هذا العدوان الغادر الشنيع هو اطلاق المدافع

---

(١١) أحمد عرابى الزعيم المفترى عليه ــ كتاب الهلال الجزء الثانى ص ــ ١٧٨ ·

من الأسطول الانجليزى على مدينة الاسكندرية فى اليوم الحادى عشر من شهر يوليو سنة ١٨٨٢) ٠

وانه لتاريخ خليق بأبناء هذا الوادى وبنى الشرق جميعا أن يذكروه ، كلما تحدث متحدث عن الضمير والشرف البريطانى وعن الحضارة الأوربية بوجه عام فى هذا الشرق المسكين ٠

(وانه لعدوان خليق بأن يخجل منه ساسة الانجليز اذا نسوا أطماعهم فترة ، وفكروا فيما ينطوى عليه من غدر وقحة) ٠

الا ان البسالة وحدها لا تجدى ما أعوزها السلاح وتجهيزات القتال ، وقبل كل شىء الاعداد للمعركة قبل وقوعها مما يقتضى سلامة البناء العسكرى وقياداته العليا ، وأسلحته الضاربة ٠

ولم يكن ثمة تفكير قطعا فى مواجهة عسكرية خارجية ، فكل ما كان خلاف داخلى بين حاكم ومحكوم ، أو بتعبير أدق ، بين طبقة حاكمة غالبة جائرة وطبقة محكومة مغلوبة على أمرها ، فاذا أحست بكيانها وقدرتها على المواجهة قامت تطالب بحقوقها فاذا قلنا أن الثورة العرابية بدأت فى صورة حركة عسكرية تنشد المساواة بين العسكريين المصريين وقد أصبح لهم كيانهم فى الجيش ، والعسكريين من الجركس والأرناؤود ، فأن غباء الحاكم ـ الخديو توفيق ، وغباء قادة الجيش وعلى رأسهم ناظر الجهادية عثمان رفقى ، وخيانة رياض ، كان كل هذا الشـــرارة الأولى التى أوقدتها ، ثم وجدت وقودها فيما عصف بالمصريين من سفه اسماعيل وغباء توفيق ، الى جانب الوعى السياسى والفكرى ، فيما كانت الصحف تنشـــره ، والمحافل الفكرية والأدبية تردده ، مماسبق تناوله والاشارة اليه ،

لتجد فى عرابى الحمية والحماس والشجاعة والمقدرة ، التى ألفت قلوب الضباط المصريين حوله ، ووجد فيه الشعب ما يعبر عن أمانيه وينفس عن ضيقه ، لتغدو الحركة العرابية ثورة شعب وأمل أمة ، ولولا التدخل الأجنبى والمؤامرة الدولية وأطماع انجلترا وفســـاد الحكم العثمانى ، لحققت مصر أمانيها ، وهو مايشير اليه الرافعى ـ مما سبق ذكره ـ بقوله : (ولو لم يظهر عرابى ٠٠ لكان محتملا ألا تظهر الثورة العرابية ، أو لظهرت فى زمن آخر ٠٠) وهو مايعنى أن مصر كانت تغلى بالثورة ، وما كان ينقصها غير القيادة التى تعبر عن أمانيها ٠

ومع ما قيل من أن الثورة العرابية قد فشلت ، فأننا لانراها فشلت وانما تأخر بها الزمن لتبدو فى جلالها وفى قوتها فى ثورة ١٩١٩ ، ليقودهاسعد زغلول تلميذ الثورة العـــرابية والناشىء فى رحابها ، وكان الأمام محمد عبده قد بقى يزكى أوارها بعد عرابى ٠

وكان الوفاء لعرابى وإكباره مما شغل الأفغانى والأمام محمد عبده ، وكانا قد التقيا فى باريس وأصدرا جريدة ـ العروة الوثقى ـ لسانا ناطقا لجمعية العروة الوثقى التى ألفاها معا ، تجدد النداء بالجامعة الاسلامية ، وتندد بالاستعمار الأوربى ومساوئه فى الشرق الاسلامى ٠

ولم ينس الزعيمان الكبيران ـ الأفغانى ومحمد عبده ، عرابى وثورته ، ورأيا فى ثورة المهدى فى السودان امتدادا لثورة عرابى فى مصر ، وكانا من المتعاطفين معها وكان لهما دورهما فى اقناع حكومة لندن باخلاء السودان ، وفكرا فى الاتصال بالمهدى (ليأخذ أسيرا انجليزا كبيرا يفادى به عرابى)[١٢] ٠ كما فكر الأفغانى

---

(١٢) **محمد صبيح** : محمد عبده ـ كتاب الشهر دار احياء الكتب العربية ص ١٢٥ ٠

بأن (يوفد ثقة خبيرا لينظم حكومة الخرطوم ويقودها حتى تتمكن من فتح مصر ٠٠ ومن غير محمد عبده يندب لهذا العمل ؟)

(وسافر محمد عبده ، وتمكن من الدخول الى مصر متنكرا ومتأهبا للرحيل الى السودان) ٠

(ويقول محمد عبده فى احدى رسائله : فتلقيت من الأمر الجديد أن أكون على مقربة من الضوضاء ومسمع من النداء ٠ ولعل الله ينهض بالقول همما أو يكشف بالبيان جهالات ٠٠ وهذا ما اندفع بى الى بلاد أستعين الله فيها على تجديد عهوده ، والتوقيف عند حدوده عسى أن يتواصل المتقاطعون ويتناصر المتخاذلون وما توفيقى الا بالله) ٠

وقد ذكر رشيد رضا فى موسوعته التاريخية الفريدة (أن جمال الدين الأفغانى كان يريد اللحاق بمحمد عبده الى الخرطوم اذا نجحت مساعيه ٠٠ ولكن القدر لم يكن يدبر أمره على هوى الشيخين ، فقد حدث حادث مفاجىء وقلب الخطط كلها ، وهو وفاة محمد أحمد المهدى وتولية التعايشى مكانه ٠٠ هنا أدرك محمد عبده أن مشاريعه انهارت كلها ، اذ أنه لايستطيع مطلقا أن يتعامل مع التعايشى ، أو يصوغ سياسته على يديه ، وكان صادقا فى حسه فقد انهارت ثورة السودان ، بعد ذهاب صـــاحبها وتولية الأمر من لا يصلحه فقرر العودة الى بيروت) ٠

ويقص ابراهيم باشا فوزى فى كتابه ـ الممتع كما يصـــفه الأستاذ صبيح ـ (السودان بين يدى غردون وكتشنر) خبر تلك (التعليمات المشددة التى ألقاها المهدى على قواد جيشه لكى يأسروا غردون حيا ، وصرح لهم بقصده ، وهو مفاداة عرابى ، ولكن قواده لم ينفذوا أمره فقتلوا هذا الانجليزى الكبير ، ولما بلغ الخبر الى المهدى غضب غضبا شديدا لأن جزءا هاما من سياسته قد هدم) ٠

١/١٥ ـ بين ثـورتين

لم يهزم عرابى وانما خســـر معركة بقى أوارها يلفح نفوس المصريين بالموجدة على الاحتلال البريطانى ومقته من ناحية ، والنقمة البالغة على الأسرة العلوية الحاكمة من ناحية أخرى ، ولم يلق عرابى انصافا فيما كتب عنه منذ قام بثورته حتى عودته من المنفى ، ولم يسلم بعد عودته من المنفى من الافتراء والادعاء الباطل · وكان حرصه على كتابة مذكراته ، وهى كل ما بقى له من حرية القول فى حديثه الى التاريخ ، وهو ما يعبر عنه بقوله :

(أما بعد ، فأنى قد اطلعت على كثير من الجرائد والتواريخ العربية والافرنجية الموضوعة فى النهضـــة المصرية المشهورة بالثورة العرابية فلم أجد فيها مايقرب من الحقيقة أو يشفى غليل روادها من أبناء الأمة ·

لذلك رأيت أن أكتب للناس كتابا يهتدون به الى تلك الحقيقة المرموقة تمحيصـــا للتاريخ من درن الأهواء الفاسدة ، والمفتريات الباطلة ، وسميته « كشف الستار عن سر الأسرار» فى النهضة المشهورة بالثورة العرابية

فى عامى ١٢٩٨ و ١٢٩٩ الهجرينين و ١٨٨١و١٨٨٢ الميلاديتين ـ قياما بالواجب على لأبناء وطنى الأعزاء وتصحيحا للتاريخ وخدمة عامة للانســـانية وبنيها ، وصدرته بنسبى وبتاريخ حياتى ليعلم أنى عربى شريف الأرومة ، مصـــرى الموطن والنشأة والتربية ، وهاك نشأتى ونسبى الشريف المتصل بسيد الأولين والآخرين صلى الله عليه وآله وسلم) ٠

أحمد عرابى المصرى

ويشاء القدر ألا تظهر طبعته الا على يد خليفته على اريكة الثورة المصرية الرئيس اللواء محمد نجيب ، ليقول :

(تصفحت هذه المذكرات التى كتبها القائد المصرى البطل احمد عرابى ـ ليبين للناس حقيقة النهضة المصرية المشـــهورة بالثورة العرابية تمحيصا للتاريخ من درن الاهواء الفاسدة والمفتريات الباطلة) ٠

(ما أن سرت فى قراءتها قليلا ، حتى استوقفتنى أهمية البيانات الخطيرة الدقيقة التى فصلها وســجلها فاعدت ما قرأت مثنى وثلاث ورباع ، شاعرا فى كل مرة من هــذه المرات بلذة الاستذكار ، ولذة الوقوف على تلك المفاخر المصرية الوطنية الحقة من بطولة وشهامة وتضحية وأيثار) ٠

(وهكذا كان شأنى حتى أتيت على آخر هذه المذكرات القيمة التى جمعت فأوعت وألقت الضوء على حقائق تلك الحقبة الخطيرة من تاريخنا الحديث فأظهرتها فى

صدق واخلاص ويقين ، وكان فيها لذلك هدى للمهتدين وعبرة للمعتبرين) ٠

(وانى اذ أترحم على الزعيم البطل صاحب هذه المذكرات ،مشيدا بما أفاد به التاريخ المصرى بالكشف عن أسرار لم تكن معروفة فيه ، وبمواقفه هو وصحبه الذين رفعوا رأس الكرامة الوطنية ، لأرجو أن تتجدد بها دائما ذكرى ذلك الجهاد الوطنى المجيد لينتفع بها الجيل الحاضـــر والأجيال المقبلة ولتتأكد فى نفوس المواطنين جميعا تلك المثل العليا التى ضربها عرابى فى حركته الوطنية التاريخية العظيمة للرجـــولة الحقة والشـــهامة الموروثة وأباء الظلم والضـــيم والاعتزاز بمصريته وقوميته مما جعله منارا يهتدى به ، ورائدا يقتفى أثره ويتمثل فيه قول الشاعر العربى القديم :

اذا ما الملك سام الناس خسفا

أبينا أن نقــر الظلم فينا) ٠

(ان عرابى زعيم تلك الثورة أو النهضة المصرية ، يمثل بسيرته وأعماله التى تفصلها هذه المذكرات مرحلة مجيدة من أهم المراحل التى مرت بها بلادنا فى العصر الحديث فهو وطنى كامل الوطنية ، وهو مناضل لاتنقصه الجرأة ولا الشـــجاعة ، ثم هو الى هذا وذاك جندى باسل يعرف حق بلاده عليه ، ويعرف متى وكيف يؤدى واجبه كاملا غير منقوص ، لكى يرفع لواء الـــكرامة والوطنية ، ولكـــى يدفع عن الوطن وأهليه عـــادية المستعمرين ومن يلوذ بهم من الطغاة ٠٠ المستبدين ومن النفعيين الفاسدين) ٠

ولعلنا نجد من أوجه الشـــبه بين البطلين عرابى ، ونجيب مايكشف عما ينشده البطل من التزود بالمعرفة والعلم فى ســـبيل الحقيقة الكبرى التى يرى فيها السبيل الى الصراط المستقيم ، فقد مضى عرابى فى التزود من المعـرفة ما يقود خطـاه ، حتى أن – حضرة محمد سعيد باشا كثيرا ما كان يشركنى معه فى ترتيب المنـاورات الحربية وينيبنى عنه فى تلقينها الى أكابر الضـــباط بحضرته .. ولشدة اعجابه بى أهدانى – تاريخ نابليون بونابرت باللغة العربية طبع بيروت(١) .

وما كان محمد سعيد باشا ليهديه هذا الكتاب ، أو ينيبه فى شرح المناورات الحربية لكبار الضـــباط الا لأن يعرف اقباله على المعرفة والتزود منها بمايريد ، وهو ماكان من محمد نجيب حين قبل على الدراسة المدنية والعسكرية ليحصل على أعلا مؤهلاتها الدراسية وزادها العلمى .

وقد سميت الثـــورة التى أعقبها الاحتلال البريطانى – كما يقول العقاد(٢) عملاق الفكر – كما دعوته فى كتابى عنه – (باسم – الثورة العرابية – نسبة الى زعيمها – أحمد عرابى بطل الحرية والدستور فى عصره – وهى تسمية صادقة وتسمية مطابقة ، لأن زعامة عرابى ، لتلك الثورة كانت من مشـــيئة القدر التى لا محيد عنها ، فلا حيلة فيها – لعرابى – نفسه ولا أحد من أشياعه وأتباعه ، وينظر المتأمل فى تاريخها فيحتار فى اختيار اسم آخر يقترن بهـ ويقوم بأعبائها ، فكأنما كانت قرعة ألقاها القدر فوقعت على عرابى دون غيره ، وسيقت اليه كما سيق اليها من فعل الحوادث وفعل الزمن وفعل المصادفات التى تتوافى على قدر واتفاق) .

---

(١) مذكرات : الجزء الأول ص ١٥ كتاب الهلال .

(٢) ضرب الاسكندرية فى ١١ يوليو ص ١٢٣ بعنوان – احمد عرابى .

(لم يكن فى الجيش المصرى من هو أقدر من عرابى ، ولا أعرف منه بمطالبه ، وأحق منه بعرضها والدفاع عنها ، وكانت حالة الجيش فى ذلك العصر حالة الأمة المصرية فى جملتها) ٠

ويصف العقاد يوم ضرب الاسكندرية فى ١١ يوليو عام ١٨٨٢، فيقول : (وكان من أحلك الأيام التى مرت على مدينة الاسكندرية ، بل على الأمة المصرية كلها ، فهو اليوم الذى أطلق الأسطول الانجليزى قذائفه على تلك المدينة الهادئة الوادعة، فكان العابر للطريق بها بعد ذلك اليوم الحالك السواد يمر بأحيائها المختلفة العامرة ، فلا يقع نظره الا على الاطلال والأنقاض ، ولا تقع عينه على بيت قائم بين عشرات البيوت المتداعية أو التى هدمتها طلقات المدافع البريطانية الغاشمة بلا هوادة أو رحمة)(٣) ٠

ويصفه عرابى بقوله :

(صبت نار المدافع على القلاع والحصون والترسانة وسراى رأس التين ، وبالجملة على جميع أرجاء المدينة صباح الثلاثاء الواقع فى ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ ولم تجاوبها مدافع القلاع الا بعد أن أطلق الأسطول نحو عشرين طلقة من مدافعه ، ثم استمر القتال بين الأساطيل الانجليزية وقلاع الاسكندرية بعد ذلك الى منتصف النهار ومن ثم أخذت نيران الاستحكامات فى التناقص والاضمحلال حتى تم تدميرها قبيل الغروب ٠

وحيث كانت استحكامات الاسكندرية قديمة كما هو معلوم وجميعها مبنية بالأحجار من مدة ٦٧ سنة أو ٧٠ سنة وقد باغتنا الانجليز بالعدوان على غير استعداد منا

---

(٣) المصدر السابق : ص ٢ ٠

ولا تأهب ، فقد كان تأثير شـــظايا الأحجار المتناثرة وضررها أكثر من تأثير مقذوفات العدو نفسها) .

اما الأمام الشيخ محمد عبده فيروى ما حدث بقوله(٤) :

(نحو مائة وخمسين ألفا من السكان مجردين من كل شيء أخذوا فى الحركةلغير قصد ولا لمأوى ، الموت والفزع ملء نفوسهم على شطوط المحمودية الى دمنهور وجسر السكة الحديد من دمنهور الى القاهرة .

كان المهاجرون يكونون خطوطا سوداء تارة عريضة وأخرى دقيقة متحركة فى كل جهة أشبه بسلسلة انسانية طويلة ، هنا ينزلون ، هناك يمشون ببطء ، لا وقاية ولا عيش ، على طرفى تضاد مع سماء صافية وأرض خضرة نضرة .

أما الهاربون فكانوا كالأعاصير أو الماء انكســـر سده فاندلق يتصل بعضهم ببعض متزاحمين متراكمين فى حالة عقلية أشبه بالجنون ، سائقين أمامهم ، أو حاملين على ظهورهم ما خف حمله من أمتعتهم : حيوان، أثاث ضئيل ، ثياب رثة ، حتى بعض المفروشات التى لا قيمة لها ، فى هذه الحالة ، حالة شعب طرد من بيته ، كان الحر شديدا ، وغيم من الغبار سد الأفق ، وأظلم الجو ، نساء يبحثن عن أولادهن ، يتشاجرن مع بعضهن البعض ، يتضــــاربن فى أخلاط لايمكن التعبير عنها ، عربات بلا عجل استعملت مساكن ، عربات من كل نوع بعضها ساقط فى المحمودية بعضها مقلوب ، بعضها

---

(٤) مذكرات الجزء الأول ص ١٧٢ ـ ١٧٣ .

بخيل وبعضها بغير خيل ، روائح شى اللحم ، صياح على المارة الخبز الخبز) ٠

ولم يلق سيمور بالا الى اشارات التسليم ، وحين اشـــتعلت النيران فى المدينة ، عجل ســـيمور باحتلالها ، ويقول عرابى فى مذكراته(٥) :

(وقع الرعب والفزع فى قلوب العساكر ودب فيهم دبيب الفشل ، واستولى عليهم الخذلان فتشتت أكثرهم لهول ما رأوا من تخريب الطوابى ، ولما رأيت ذلك وعلمت أنه لا يقدر على جمع الجيش بعد تفرقه وخـــذلانه الا القليل من القواد الموفقين ، حاولت أن أوفق الى جمع شتاتهم فخرجت بمن أمكن جمعهم فى الغروب الى جهة حجر النواتية وهناك ضـرب النفير نوبة جمع فتوارد بعض المنتشرين فى الفضاء) ٠

(وفى صباح ١٣ يوليو سنة ١٨٨٢ ، توجهت بمن اجتمع عندى من العساكر الى عزبة خورشيد ثم الى كفر الدوار واتخذناها مركزا حربيا ٠٠ وجعلنا الخط الأول من الاستحكامات عنـــد عزبة خورشيـــد خلف الملاحة) ٠

ولم يكن الخديو ينتظر أكثر من انسحاب عرابى والجيش من الاسكندرية لكى ينحاز نهائيا الى جانب الانجليز ، وكان بناء على تعليمات الانجليز قبل الضرب قد انتقل الى قصر المنتزه ، فلما توقف الضرب اتصل بالأميرال سيمور وأعلنه عن رغبته فى العودة الى قصر رأس التين ليكون تحت حمايته ، فأظهر الأميرال سيمور ترحيبه بذلك ، وتوجه فى الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم ١٣ يوليو الى

---

(٥) الجزء الأول ص ١٨١ ٠

قصر رأس التين وبصحبته درويش باشا ، ومجلس الوزراء وعلى رأسه اسماعيل باشا راغب وبقية رجال الحاشية ، فكان فى استقباله الأميرال سيمور وبعض الضباط ، وهكذا انقسمت البلاد منذ هذه اللحظة الى معسكرين ، معسكر الخديو ومن انضـــم اليه يؤازر الاحتلال الانجليز ويسانده ، ومعسكر عرابى ومن خلفه الســـواد الأعظم من الشعب يواجه الاحتلال ويحاربه ، ولكن الانقسام كان هو العنصر الحاسم فيما انتهى اليه الموقف من هزيمة منكرة(٦) .

وأخذ عرابى على توفيق انحيازه للانجليز ، فأعلن خيانته ، وكان توفيق قد أعلن عزله ، وخشى عرابى أن يؤثر ذلك على معنويات المواطنين ، فكتب الى يعقوب باشا سامى وكيل وزارة الحـــربية بالقاهرة فى السابع عشر من يوليو سنة ١٨٨٢ ، غرة رمضان سنة ١٢٤٩ ـ اتهم فيه الخديو علنا بخيانته للبلاد وانه سبب البلايا التى نزلت بها ، ودعاه الى عقد جمعيـــة عمومية من الذوات والأعيان والعلماء يعرض عليها الموقف ، ويطلب منها اصدار قرار فى شأن الخديو وفيما يجب عمله لصالح الأمة ، وصلاحية مثل هذا الوالى عليها ، وختم كتابه بالمثابرة على التجهيزات الحربية ، وأن تحرر منه بذلك الى جميع حكام البلاد(٧) .

وأرسل اليه تلغرافا فى نفس اليوم بأن بعض المراكب الانجليزية ذهبت الى سد أبو قير وبصحبتها ضابط من طرف الخديو يدلهم على المواقع مما يدل على انحيازه الى جانبهم ، وأرسل تلغرافا آخر الى محافظ القاهرة مفاده ان النظار محجوزون لدى الخديو(٨) .

---

(٦) **أحمد حسين** : المصدر السابق ص ١١٠٠ .
(٧) **الرافعى** : الثورة العرابية ص ٣٩٣ .
(٨) **الرافعى** : المصدر السابق ص ٣٩٤ نقلا عن الوقائع المصرية عدد ٢٠ يولية ١٨٨٢ .

وبينما بقى عرابى فى قيادته للجيش بكفر الدوار حيث اتخذ مواقعه لمواجهة الانجليز كان يعقوب باشا سامى يدير شئون الدولة بقدرة وكفاءة وايمان والشعب من ورائه فى القاهرة والأقاليميؤيد عرابى ، وبمعنى أدق يدافع عن مصر أمام الغاصب الذى يحكم مصر كرها كما حكمها أجداده والطامع الذى يرنو الى امتلاك مصر سرة الشرق وحامية اديان السماء ٠٠

ويقول الرافعى : (انه قرر دعوة العلماء والأعيان والرؤساء الروحانيين والوجهاء وكبار موظفى الحكومة بديوان الداخلية فى هيئة جمعية عمومية ــ أو مجلس العموم ــ كما اسموها ــ لاتخاذ مايلزم من القرارات نيابة عن الأمة ٠٠ وأخذ هذا المجلس يتولى سلطة الحكم ، وظل كذلك خلال الحرب ، وقد سميناه ــ مجلس ادارة الحكومة ــ لانطباق هذه التسمية على عمله واختصاصه ،ويسمى فى الوقائع المصرية ــ المجلس العرفى ــ وسنجرى على هذه التسمية فى سياق الحديث) ٠

(وفى مساء يوم الاثنين ١٧ يوليه سنة ١٨٨٢ ــ غرة رمضان سنة ١٢٩٩ ــ اجتمع المدعوون الى حضور الجمعية العمومية بوزارة الداخلية وبلغ عددهم أربعمائة عضـــو ، منهم الأمراء الموجودون بالعاصمة وشيخ الاسلام وقاضى قضاة مصر ، ومفتى الديار المصرية وكبار العلماء والرؤســـاء الروحانيون والنواب ووكلاء الدواوين والمديرون والقضاة والتجار والأعيان ٠٠ وعرضت عليهم الرسائل التى تبودلت بين الخديو وعرابى ٠٠ وفى ٢٠ يوليه سنة ١٨٨٢ ــ ٤ رمضان سنة ١٢٩٩ هـ ــ أصـــدر الخديو أمرا بعزل عرابى من وزارة الحربية ٠٠ وفى ٢٢ يولية سنة ١٨٢٢ ــ ٦ رمضان ســـنة ١٢٩٩ ــ اجتمعت الجمعيـــــة للمرة الثانية والأخيرة وكان عدد الحاضرين ، أكثر عددا ــ اذ حضرها نحو خمسمائة من الأعضاء

منهم ثلاثة من الأمراء ، وشيخ الأزهر وقاضى قضاة مصر ومفتيها ونقيب الاشـراف ، وبطريرك الأقباط الأرثوذكس ، وحاخام اليهود والنواب والقضاة والمفتشون ، ومديرو المديريات وكبار الأعيان وكثير من العمد ومشايخ البلاد ٠٠ وتليت الأوامر الصادرة من الخديو والمنشورات التى أصدرها عرابى ، وتولى هذه التلاوة الشيخ محمد عبده ٠٠ وتليت فتوى شرعية من الشيخ محمد عليش والشيخ حسن العدوى والشـيخ محمد أبو العـلا الخلفاوى بمروق الخديو عن الدين لانحيازه الى الجيش المحارب لبلاده ٠٠٠ الخ(٩) ٠

ويقول الرافعى : (ولم يؤثر قرار الخديو بعزل عرابى فى الأمة ولا حفلت به ، بل أيدت عرابى وانضمت الى جانبه لأنها اعتبرت بحق أن بقاء الخديو فى الاسـكندرية بعد احتلال الانجليز اياها مناصرة لهم وتواطؤا معهم ، فلا غرو أن عدت عرابى وجيشـه المدافعين عن كيان البلاد ضد عدوان الانجليز ومناصريهم ، وهو شعور صادق نبيل يدل على أن الأمة فى فطرتها تكره المعتدين على كيان مصر ومن شيمتها أنها تتعلق بالاستقلال وتمجده وتؤيد حماته المدافعين عنه ، ومن هنا نفهم كيف فقد الخديو عطف الأمة ومحبتها وكيف نال عرابى ثقتها وتأييدها ما بقى على عهده فى الدفاع عنها ، وقد أطلق على عرابى فى ذلك الحين لقب ــ حامى حمى الديار المصرية) ٠

(وقد استمر القتال بين الانجليز والجيش المصرى فصمد هذا على قلة استعداده أكثر من شهر فى كفر الدوار ، وجاء المدد الى الجيش الانجليزى غير مرة من قبرص ومالطة وجبل طارق ، وعلم

---

(٩) أورد الرافعى أسماء الحضور وهم جلة أعيان البلاد وحكام المديريات وقد نشرت الوقائع المصرية فى عددها الصادر فى ٢١ يوليه نص محضر الجلسة وأسماء الموقعين عليه ٠

الانجليز أن ـ النزهة ـ التى تخيلوها ، حـــرب عوان لا يأمنون عقباها ، فاستعانوا بالرشوة والخيانة وأشاعوا فى مصر منشورا من الباب العالى يرمى العرابيين بالعصـــيان والمروق من طاعة السلطان)(١٠) .

ومما جاء على لسان الشيخ رشيد رضا فى كتابه عن الأستاذ الأمام الشيخ محمد عبده ، أن الأستاذ الأمام سأل أحد الاميرالايات الذين فى معية الخديو : مامصير الاسكندرية لو ضربها الانجليز ؟! فأجاب الخديو وهو يهز كتفيه ـ ستين سنة ـ فقال الضابط : لكن السكان سيحرقونها ، فأرجو أن تتوسط لدى الأمير ، فالوقت لايزال يسمح بذلك .. استدع ـ ذو الفقار ـ وأعطه الأوامر بالمحافظة على المدينة فعنده من الرجال الكفاية .

فأجاب الخديو : فلتحرق المدينة جميعها ولا يبقى فيها طوبة على طوبة .. حرب بحرب كل ذلك يقع على رأس ـ عرابى وعلى رؤوس أولاد الكلب الفلاحين .. وسيذوق الأوربيون الملاعين عاقبة هروبهم مثل الأرانب .. !

الا أن ـ الفرد بلنت ـ فى كتابه ـ التاريخ السرى لاحتلال بريطانيا مصر يشير الى موقف الخديو توفيق ، نقلا عن لورد تشارلز برسفورد وكان قائدا للبارجة ـ كندور ـ التى شاركت فى ضـــرب الاسكندرية وعين حاكما للاسكندرية بعد القتال ، فيقول : أن الخديو توفيق لم يظفر منه بغير الاحتقار ، بينما ظفر عرابى بعطفه وتقديره الى جانب أولئك الفلاحين الذين قاموا بدورهم الحربى المجيد الى جانب عرابى رغم خيانة أميرهم توفيق(١١) . ولانرى فى التاريخ

---

(١٠) العقاد ـ المصدر السابق ص ١٦٢ .

(١١) The Secret History of the English Occuation P. 266.

رجلا لقى من أكبار قاهريه ـ أو بتعبير أدق ـ محاربيه من ناحية ، ومناصريه ممن أخذوا على الانجـــليز حربهم له سواء كانوا من الانجليز أو غير الانجليز ، ولا نعجب أن يتطوع منهم للدفاع عنه اثناء محاكمته ، وأن يعارضوا جميعا طلب الخديو توفيق باعدامه وأن يتبرعوا بأموالهم من أجـــل الدفاع عن عرابى من الانجـليز أنفســــــهم .

وقد ترك الانجليز لتوفيق اجراءات محاكمة العرابيين وعلى رأسهم الزعيم عرابى ، ولكنهم حالوا بينه وبين البطش بهم واعدامهم كما كان يبغى ، وان كانوا قد أيدوا نفيه بعيدا عن مصر ، فلمصلحتهم لا لمصـــلحة توفيق ، ليتفردوا به ، (ولعله ـ كما يقول الدكتور ميكل(١٢) فى سيرته ـ لم يخطر بباله أن انتصار انجلترا فى التل الكبير ، ودخول الجيوش الانجليزية الى عاصمة ملكه قد قدر له أن يكون معناه القضاء على سلطته ، بنقلها من يده الى يد هؤلاء الذين تبتوه على عرشه ، ولعله لم يخطر بباله أن عوده الى مقر سلطانه محاطا بالأمير وبالقائد وبقنصل انجلترا سينتهى لاريب الى أن تكون الحوادث العرابية آخر ماخبأ القدر لتوفيق من نشاط ، ولئن كان عرابى سيحاكم وسينفى الى سيلان فان ولى عرش مصر لن يكون أعظم من عرابى سلطانا برغم مقامه فى قصوره وسط عاصمة ملكه . وقد رأت حكومة جلاله الملكة عقب انتصارها على الثوار ، أن يكون مصير الثوار بيدها لا بيد حكومة الخديو .. واذا كان الخـــديو وأنصاره يرون طبيعيا أن يقضى على عرابى وكل من معه بالاعدام فان انجلترا تنظر للأمر نظرة أخـــرى .. ولذلك أبلغ القنصــــل الانجليزى الخديو أن لايتصرف فى أمر الثائرين قبل حضور اللورد دوفرين الى مصر .. وكان أول ما طلبه اللورد دوفرين الافراج عن

---

(١٢) المصدر السابق : ص ٩٦ .

المئات الذين اكتظت بهم السجون باعتبارهم ثائرين عدا خمسة هم : عرابى ، وطلبه ، ومحمود سامى ، ومحمود فهمى وعلى فهمى ٠٠ وجاء محاميان انجليزيان هما مستر نابير ومستر برودلى ٠٠ وبعد صدور الحكم بالاعدام استبدله الخديو عملا بنصيحة قنصل انجلترا ـ ونصيحته عند توفيق أمر محترم ـ بالنفى المؤبد) ٠

ولم تكن ثمة معركة فى التل الكبير لنقول أن عرابى هزم فيها ، ولم يلق عرابى بالا لمن أشار عليه بردم قناة السويس ، وكان أول من أشار عليه بذلك صفيه وصديقه محمود سامى البارودى ، وما عابه فيه الرافعى فى كتابه ـ الثورة العرابية ، وما أخذه عليه أيضا ـ جون نينيه ـ أصدق المتشيعين له فى كتابه عنه ٠

وكان عباس محمود العقاد(١٣) أصدقهم حسا وادراكا للواقع فى تحليله لموقف عرابى من ردم قناة السويس ، فما أن يشير الى أسباب هزيمة عرابى : فيقول :

(لا حاجة الى الاسهاب فى سرد أسـباب الهزيمة التى منيت بها الجيوش المصرية فى التل الكبير ، فليس من العسير أن نفهم كيف ينهزم جيش يحيط به الجواسيس وينقلون أخباره الى الأعداء ويتسابق الى خذلانه أقرب الناس اليه) ٠

وينقد العقاد ماذهب اليه المؤرخون اذ ـ (علقوا بعض أسـباب الهزيمة على موقف الجيش من قناة السويس ، وحسب كثير منهم أن ردم القناة كان خليقا

---

(١٣) المصدر السابق : ص ١٦٣ ٠

أن يعطل حركات الانجليز فى الجبهة الشرقية ، وهو كلام يلقى على عواهنه ، لأن عرابيا لم يكتف بما أخذه ـ دلسبس ـ على نفســـه من العهود المؤكدة ، وأمر بارسال قوة الى القناة لمواجهة الحال بما تقتضيه) ٠

ويستشهد العقاد فى ذلك بما قاله الأستاذ الأمام فى تعليقاته على الثورة العرابية :

قال الأستاذ الأمام :

(وقبل أن يتحرك عسكرى الى ناحية القنال كان الجيش الانجليزى قد احتله وذلك لتأخـــر الجيش ١٥ ساعة فى مخـــابرة ـ دلسبس ـ ويظهر أنه كان فى الحاضرين خونة حملوا الاخبار ٠٠)

(أما وجهة نظر عرابى فهى تقديره أن الانجليز يعملون منفردين بين الدول ، وان ردم القناة يجنح بالدول الى تأييدهم ٠٠)

ويمضى العقاد فى رؤياه ، ليقرر :

(ان الهزيمة كانت ـ ضربة لازب ـ بين عوامل الخذلان التى أحاطت بالجيش المصرى فى حالته تلك ، وهى حالة النقص فى العدد والعدة على الرغم من تكرار المطالبة بزيادته وتسليحه ، ولو كان فى مصر عدد كاف من الجنود المدربين لأمكن رصد ـ المخافر ـ اللازمة منهم لحماية قناة السويس من غير حاجة الى ردمها ، وتسليم المحتلين بذلك حجة يسوغون بها هجومهم ، ويمثلونه للدول فى صورة ـ المهمة الدولية ـ ويأتون بالشهود من مصر وغيرها على سبق المصريين الى العمل الذى أوجب الهجوم لحماية القناة فى حينها) ٠

وكان من أســـباب الهزيمة ، أن كثرة ممن وقفوا الى جانب عرابى يساندونه كما رأيناهم فى اجتماع الجمعية العمومية الأخير (وقفت ترقب الأحداث عن كثب ، وانضمت قلة منهم الى الخديو متنكرة لعرابى كأحمد بك عبد الغفار والسيد أفندى الفقى من نواب المنوفية ، ومحمد بك الشواربى من نواب القليوبية ممن أشار اليهم عرابى فى مذكراته · وكان على رأس هذه القلة محمد باشا سلطان صاحب الحظوة لدى الانجليزى والخديو بعد خيانته للثورة ·

وبقى فريق على ولائه للثورة كأحمد باشا المنشاوى زعيم طنطا الوطنى كما دعاه ــ جون نينيه ــ فى كتابه ــ عرابى باشا ·

(ومن هذا الفريق الذى لفحته الثورة بنيرانها أحمد بكأباظه وأمين بك الشمسى من نواب الشـــرقية ، وأحمد أفندى محمود ، وابراهيم أفندى الوكيل ، ومحمد أفندى دبوس من نواب البحيرة ، والشيخ أحمد الصباحى من نواب الغربية ومراد أفندى السعودى من نواب الجيزة ، ومحمد أفندى جـــلال من نواب المنيا ، ومهنى أفندى أبو عمر من نواب أسيوط ، وابراهيم باشا الشريعى وبدينى بك الشريعى من نواب المنيا على عهد اسماعيل ، وقد تناولتهم الاحكام العسكرية بالتجريد من الرتب والامتيازات ، والتحفظ عليهم فى بلادهم لمدد مختلفة مع دفع تأمين مالى يتراوح بين ألف وخمسة آلاف جنيه، فى الوقت الذى أنعم فيه الخديو على سلطان باشا بالنيشان المجيدى من الدرجة الأولى وعشرة آلاف جنيه تعويضا له عما أصابه من أضرار)(١٤) ·

(وكان سلطان باشا حفيا بالاحتلال البريطانى فقدم الهدايا

---

(١٤) المؤلف : أحمد لطفى السيد : أستاذ الجيل ــ أعلام العرب ٣٩ ــ الطبعة الأولى ص ٣٤ ــ ٤١ ·

الى ـ قواده ـ شكرا لهم على انقـــاذ البـــلاد من غوائل الفئـــة العاصية(١٥) على حد تعبيرهم ، وتلقى الشـــكر على هداياه التى قدمها بأسمه واسم من شاركه فيها خطابا من الجنرال ولسلى خصه فيه بالذكر ، كما خص به محمد بك الشواربى ـ باشا ـ ومحمود بك سلمان (باشا) ـ وأحمد بك السيوفى (باشا) على خطابهم الذى قدموا به هداياهم)(١٦) ٠

(والغريب اننا لانجد من أعضاء مجلس شورى النواب ، أو حتى المجلس الأخير ممن اشتركوا فى الجمعية العمومية التى دعا اليها عرابى ، غير مصطفى أفندى علام من نواب القليوبية ، ومحمد أفندى دبوس من نواب البحيرة ، والشيخ الصباحى من نواب الغربية، وبدينى أفندى الشريعى من نواب المنيا فى المجلس السابق مما يدل على مزيد من الحذر ان لم يدل على الفتور والتقاعس وايثار السلامة وقد نالهم جميعا مانال العرابيين من سوء الجزاء) ٠

وكانت هزيمة عرابى ـ كما يقول العقاد ـ ضربة لازب ـ لا لعجز القيادة ـ كما يرى الرافعى ـ فلم يكن الرافعى غير راوية لا يملك من الثقافة العسكرية مايمكنه من الحكم على مجرى العمليات العســـكرية ، بل نراه يقع فيما نسبه الانجليز الى عرابى ، وهو مايرويه ـ أحمد شفيق باشا ، بقوله :

وتفيد التفاصــــيل التى وردت على السراى فى صباح اليوم التالى ، أن الانجليز علموا فى مساء ١٢

---

(١٥) الوقائع المصرية عدد ٢٨ سبتمبر ١٨٨٢ ، والمؤلف ـ المصـــدر السابق ص ٤١ ٠

(١٦) انظر الرافعى : الثورة العرابية ص ٣٩٤ ، والمؤلف المصـــدر السابق ص ٤٢ ٠

سبتمبر بواسطة عيونهم ، أن العرابيين منصرفون الى اقامة الأذكار فرأوا بعد طول الانتظار أن الفرصة سانحة لمداهمتهم تحت جنح الظلام ، فتربصوا حتى منتصف الليل ثم زحفوا لقتالهم بأحد عشر ألفا من البيادة وألفين من السوارى ، وستين مدفعا ، وكان في مقدمة جيشهم بعض ضباط أركان حرب من المصريين ، وكذا جماعة من عرب الهنادى ٠٠)

(وبدأ الزحف من القصاصين فسار الانجليز دون أن يشعر بهم محمود باشا سامى البارودى قائد فرقة الصالحية فلم يلقوا مقاومة من جانبه ولا من جانب مقدمة العرابيين التى يقودها على بك يوسف خنفس ، وكان عرابى كلفه أن يوافيه بالأخبار يوما فيوما عن حركات الانجليز ، فبعث اليه فى ١٢ سبتمبر يقول ، ان السكون سائد فى معسكرات العدو ، فاغتر عرابى بذلك وأصدر أمره الى الجيش بالتزام الراحة ، فصرف الجنود ليلتهم فى الأذكار تحت اشراف الشيخ عبد الجواد الذى كان مشهورا بالورع والتقوى) ٠

ومع ما فى هذه القصة من سذاجة ، نرى الرافعى يهتم بروايتها ، فاذا كان شفيق باشا ، قد جاء على ذكرها ، فانه لايعرض لمناقشتها ولم يكن غير راوية لما كان ، فلا يعلق عليها ، وان أهمت تلك الرواية الخديو ولعله قد صدقها ، وبنى عليها ما يحلم به من هزيمة عرابى ، ولا تعدو أن تكون من قبيل الرياء أو الملق أو القربى من الخديو من اللائذين به وأولهم سلطن باشا ، ولا نرى فى رواية الرافعى لها الا نوعا من السذاجة أو مشايعة الخديو ، ولم يكن ممن يذكرون عرابى بخير فيما يراه ، فلا ينكر عليه موقفه ، وان

اقتنص له ما يعيبه وينفى عنه ما يزكيه ، الا ما كان من واقع مسلم به ٠

وما كان للرافعى أن يقع فى مثل هذا الخطأ ، فيسلم بتلك الخرافة ، لو عرف انه حتى لو كان العساكر قد شغلوا بالذكر ، أو بغيره من وسائل التسلية فان ذلك لا يغنى عن الحراسة والمراقبة من ـ النوبتجيات ـ المكلفة بذلك فضلا عن نوبات الجمع ، والصحيان يعلنها البروجى ـ ليسمعها الجميع وتيقظ النائم من غفوته ، ثم أن مثل هذه الخرافات مما يشيع على لسان الأوربيين عن المسلمين والاسلام ٠

١٦/١ ـ الافتراء والحقيقة

لم يلق بطل من الافتراء مالقى عرابى ، ولعل هذا مما حمله على كتابة مذكراته ـ كما يقول :

(فانى قد اطلعت على كثير من الجرائد والتواريخ العربية والأفرنجية الموضوعة فى النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية فلم أجد فيها مايقرب من الحقيقة ، او يشفى غليل روادها من ابناء الأمة · لذلك رأيت أن أكتب للناس كتابا يهتدون به الى تلك الحقيقة المرموقة تمحيصا للتاريخ من درن الأهواء الفاسدة والمفتريات الباطلة ، وسميته ـ كشف الستار عن سر الأسرار فى النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية فى عامى ١٢٩٨ و ١٢٩٩ الهجريتين وفى ١٨٨١ و ١٨٨٢ الميلاديتين ـ قياما بالواجب لأبناء وطنى الأعزاء ، وتصحيحا للتاريخ ، وخدمة عامة للانسانية وبنيها ، وصدرته بنسبى وبتاريخ حياتى ليعلم أنى عربى شريف الأرومة ، مصرى الموطن والنشأة والتربية وهاك نشأتى ونسبى الشريف المتصل بسيد الأولين والآخرين صلى الله عليه وآله وسلم) ·

ومع ما كتب عنه من المنصفين امثال بلنت وبرودلى فانهناك من الاسرار ـ كما يقول ـ (لا يعرفها أحد من الناس غيرى ، فأحببت

أن أظهرها للناس قبل موتى قياما بالواجب على لأبناء وطنى المحبوبين ولقد تحملت مدة ولاية اسماعيل الجائرة بكل صبر وثبات تحت ضغط الظلم والاستبداد ، ومكثت برتبة القائمقام مدة تسع عشرة سنة أنظر الى صغار الضباط الذين كانوا تحت ادارتى فى عهدى سعيد باشا واسماعيل باشا وهم يترقون دونى ، فترقى بعضهم الى رتبة الأميرالاى وبعضهم الى رتبة أمير اللواء ، وبعضهم الى رتبة الفريق ، لا بعلم علموه من دونى ، ولا بفهم خارق للعادة ولا بشجاعة أبرزها فى ميادين القتـــال ، ولكن لكونهم من مماليك أو أبنـــاء مماليـــك العـــائلة الخـــديوية ، فاصـــطفاهم الخديو بالرتب والنياشين والجوارى الحسان والأراضى الواسعة الخصبة والبيوت الرحبة وحباهم بالأموال الكثيرة والحلى الثمينة من دم المصريين المساكين وعرق جبينهم ٠٠ ؟!) ٠

فاذا جئنا الى معركة التل الكبير ومانسب اليه فيها مما أشرنا اليه من قبل ، وما قيل من أنه لم يرض بردم القناة ـ كما أشير عليه بذلك وكان على رأس المشيرين محمود سامى البارودى ، فأننا نرى أنه كان على حق فى ذلك ، وهو ما يتفق مع ماذهب اليه عباس محمود العقاد ، كما سبق القول ٠

وكانت معركة التل الكبير يوم الأربعاء الموافق ٢٥ شوال سنة ١٢٩٩ و١٣ سبتمبر سنة ١٨٨٢ ، كنت فى صلاة الفجر ، اذ سمعت ضرب المدافع والبنادق بشدة ، ولم يكن ثمة قتال ـ كما يذكر عرابى ـ (فقد أخذ الرعب من قلوبهم كل مأخذ ، فتفرقوا فرارا ٠٠ فذهبت الى القنطرة التى على الترعة هناك لأمنع العساكر من الفرار ، وصرت أناديهم وأحرضهم على الرجوع والثبات والصبر على قتال العدو وأذكرهم بالشرف الاسلامى والعرض والوطن ولم أغادر كلمة من شأنها تنشيط الأجسام الميتة ، وبث الشجاعة فى قلب كل رعديد

جبان ، فما كان من سميع ولا بصير ، بل ألقوا بأنفسهم فى الترعة وسبحوا الى البر الغربى) ٠

ويمضى عرابى فى روايته ، فيقول : (ذهبت الى بلبيس لجمع المنهزمين هناك ، واتخاذ مركز آخر لمنع العدو من الوصول الى القاهرة ٠٠ فلما وصلت بلبيس وجدت على باشا الروبى سبقنى اليها ، فسألته عما دهاهم فلم يزد على قوله - أنه الخذلان - وكانت على أثرنا فرقة من خيالة العدو فهجموا علينا فأرخينا للخيل أعنتها حتى وصلنا محطة انشاص فوجدنا هناك قطارا فركبناه ، وأسرعنا الى القاهرة ، لاتخاذ الوسائل اللازمة لحفظها من الأعداء قبل وصولهم اليها) ٠

وفى القاهرة ، رأى عرابى ألا جدوى من المقاومة على غير ما ذهب اليه البارودى من (وجوب استمرار الدفاع مع اخلاء القاهرة والانسحاب بالجيش الى الصعيد ثم الى السودان اذا أعجزهم الدفاع ، وأرسل الى عرابى تلغرافا من المنصورة يطلب منه اغراق مديريتى القليوبية والشرقية لتعطيل زحف الجيش الانجليزى ثم الاستيلاء على جميع المراكب فى النيل وشحنها بالذخيرة وتوجيهها الى الصعيد مع الجيش ولكن عرابى رفض العمل بهذا الرأى وأصر على التسليم ، وسجن البارودى بالقاهرة ضمن من سجن من العرابيين)(١) ٠

وكان عرابى على حق فيما ذهب اليه ، فلم يكن يملك القوة العسكرية القادرة على الدفاع ، ولم يشأ أن يعرض القاهرة لما تعرضت له الاسكندرية من دمار وتخريب ٠٠

---

(١) الرافعى : الثورة العرابية ص ٤٦٤ ٠

واذا كانت الهزيمة ـ ضرب لازب ـ كما يقول العقاد ـ لنقص الموارد ومعدات القتال ، والقصور البادى فى القوات المسلحة اذ كان أكثرهم من الخفراء الذين جندهم يعقوب باشا سامى ولم تكن لهم دربة على القتال ، وكان فرارهم من المعركة من أسباب الهزيمة اذ لم يجد عرابى منهم سندا (وألقوا بأنفسهم فى الترعة وسبحوا الى البر الغربى) .

وحين رأى ألا جدوى من المقاومة دفاعا عن القاهرة ، وأن (الانجليز يحاربوننا الآن باسم الخديو لانحيازه اليهم ، ففى امكانه توقيف هذه الحرب وعدم خراب القاهرة وغيرها ، وليصنع بنا بعد ذلك ماهو أهله من الغدر والخيانة .. فلم يجد أرباب المجلس المذكور أفضل من رفع عريضة الى الخديو نعترف فيها بايقاف الحرب ، ونلتمس منه الوساطة لدى الانجليز بعدم دخولهم القاهرة حفاظا لها من الخراب بعد تقديم الطاعة له والخضوع)(٢) .

ويحمل الرافعى ، على موقف عرابى ويعيبه ، ويتخذ من التاريخ شاهدا على بسالة الجيش المصرى فى (رد الانجليز أنفسهم حين حاولوا احتلال مصر سنة ١٨٠٧ اذ هزمهم فى معارك رشيد .. أو البطولة التى عرف بها فى معارك المورة سنة ١٨٢٥ ، وفتح عكا سنة ١٨٢٣ ... الخ) .

(فهذه المفاخر التى يزدان بها تاريخ الجيش المصرى تشهد بأن المعرة التى لحقت سمعته فى معركة ـ التل الكبير ـ انما ترجع الى خيانة الضباط الموالين للخديو ، وجبن الضباط الموالين لعرابى ، وعلى رأسهم عرابى ذاته فيالميته استشهد فى تلك الواقعة اذن لمات بطلا وكان جديرا بأن تمجد الأمة ذكراه) .

---

(٢) عرابى : مذكرات الجزء الثانى ص ٢٨ .

(ولو ان عرابى لم يستشهد فى واقعة التل الكبير وتراجع منها مصرا على الاستمرار فى المقاومة لعد عمله بطولة تذكر له بالخير ، ولكنه نكص على عقبيه ··· لكى ينجو بنفسه اذ سـلم سلاحه والقى بنفسه بين أحضان الانجليز ولو كان مجاهدا حقا لظل يجاهد حتى آخر نسمة من حياته ، ولم تكن هزيمة التل الكبير بمانعة له من الاستمرار فى الجهاد والاعتصام بالمقاومة لو أراد ذلك)(٣) ·

ولم يلق الخديو من نقد الرافعى مالقى عرابى من تحامله ، ولم يكن الرافعى وحده من المتحاملين على عرابى ، فان عرابى لم يلق انصافا طوال حكم الأسرة العلوية ، حتى اذ انتهى حكمها وزالت ولايتها على مصر أخذ المؤرخون ينوهون بها ويذكرون فضل عرابى وجهاده فى أن تكون ــ مصر للمصريين ــ

وان استثنينا منهم قلة كالدكتور هيكل ، والمفكر العمـلاق عباس محمود العقاد فى قوله الحق وانصـاف عرابى ، قبل أن ينصفه مؤرخ آخر ، فى ظل الاحتلال البريطانى ·

ولا ننسى لعرابى أنه أنقذ القاهرة ، بل ومصر من الدمار ، حين أنكر على البارودى رأيه ، ورأى أن (ليس لدينا جيش يقوى على الدفاع ، فلما شاهدنا ذلك علمنا أن الأولى حقن الدماء وحفظ القاهرة من غوائل الحرب والدمار) كما يقول فى مذكراته ·

ولعل الرافعى قد نسى أو تناسى ــ حين أشاد بانتصارات المصريين على عهد محمد على أن محمد على نفسه هو الذى ألقى البذرة الأولى فى انكار حق المصريين فى بلادهم ولم يذكر عنهم الا

---

(٣) الرافعى : المصدر السابق ص ٤٥٦ ــ ٤٥٧ ·

انهم – لا يصلحون الا لحمل الأثقال وسوق الحمر – وهى عبـــارة نقلها عنه المؤرخ الانجليزى – هنرى دودول – فى تاريخه له (محمد على منشىء مصر الحديثة)(٤) –

وان عزاها الى غضب محمد على من الأثرياء الذين كانوا يتحايلون عليه عندما كان يريد ايفاد أبنائهم فى بعثات الى فرنسا ، فيرسلون اليه أبناء خدمهم بدلا منهم – الأمر العالى الصادر فى ١٤ صفر سنة ١٢٧٣ هـ) .

فاذا رأينا فى حديث دودول ، تبريرا لقولة محمد على هذه ، فاننا لا ننكر ما قاله الأمام الشيخ محمد عبده – (هل شعر مصرى بعظمة أسطوله أو بقوة جيشه ، وهل خطر ببال أحد منهم أن يضيف ذلك اليه بأن يقول : هذا جيشى وأســـطولى ، أو جيش بلدى أو أسطوله ؟ كلا لم يكن شىء من ذلك : فقد كان المصـــرى يعد ذلك الجيش وتلك القوة عونا لظالمه ، فهى قوة خصمه .. فما أثر ذلك فى حياة مصر والمصريين الا أسوأ الأثر ، أثر كله شر فى شر ، لذلك لم تلبث تلك القوة أن تهدمت واندثرت) وهو نفس ما جاء على لسان عمر طوسون فى هذا الصدد .

---

(٤) Mohammad Ali : The Founder of Modern Egypt :
(If these fellows will neither underestand the advantages of education nor of commerce, they are only fit to carry loads on their backs, life parters or dankeys).

ولعلنا نتساءل : ماجدوى أن يستشهد عرابى فى المعركة ؟ ـ كما يرى الرافعى ـ أن مأثرة عرابى الخالدة ، دعوته أن تكون ـ مصر للمصريين ـ وقد بقيت هذه العبارة تهز كيان المصريين ، حتى انبعثت قوية فائرة جياشة فى ثورة ١٩١٩ ، وكان سعد زغلول ـ داعيتها ، فى مواجهة الاحتـــلال البريطانى وقد أصبح فى ظل الحماية التى فرضها على مصر بعد الغاء الســـيادة العثمانية ، صاحب السلطان الأعلى على مصر ٠

وقد كان سعد زغلول أحد أبناء الثورة العرابية وتنسم فى شبابه عبقها الفواح ، وناله بعض ما نال العرابيين من وقدتهـــا اللاسعة وكان لثورة عرابى صداها البعيد فى أنحاء العالم الاسلامى، وفى المســـتعمرات البريطـــانية حتى خشى الانجليز مغبتها فى استعمارهم للهند ، وكان من أثر ذلك حرصهم أن يعلن الســـلطان عصيان عرابى ، وهو ما وقع فيه السلطان العثمانى بغبائه ، اذ يقول فى بعض ماجاء فيه :

(وما أجراه عرابى باشا وتجاسر عليه من اجراء تلك الحركات مغاير للرضى العالى ، فبغيه وعصـيانه هما نتيجة أفعاله وأعماله ، أما الحضـــرة الخديوية فنفوذها مؤيد وامتيازها مقرر من الدولة العلية)(٥) ٠

وكانت الدولة العثمانية حينذاك تترنح وتعانى أوضار الفساد

---

(٥) الحاج أحمد شفيق باشا : مذكراتى فى نصف قرن الجزء الأول ص ١٨٥ ٠

والرشوة ، وان راحت تنشد من العالم الاسلامى السند والمعونة ، وهو ما يقرره شفيق باشا فى مذكراته بقوله (٦) :

« وقد ذاعت أنباء الثورة العرابية فى كل قطر ، وشغلت أذهان الشرقيين قاطبة ، ولاسيما الشعب الهندى ، حتى علمنا أن السفارة الانجليزية فى الأستانة ، ابتاعت من صاحب جريدة ـ الجوائب ـ التى كانت تصدر يومئذ باللغة العربية ، مليون نسخة من العدد الذى نشرت فيه ترجمة الارادة السلطانية ، التى أعلن فيها عصيان عرابى ، لكى توزعها فى الهند ، وتستعين بالأثر الذى تحدثه على اخماد حركةالتشيع للعرابيين ، وكانت قد اضطربت هناك بشكل ينذر انجلترا بشر العواقب) ٠

ويمضى شفيق باشا فى روايته فيقول : (ومما ساعد على نجاح الانجليز أن الجناب الخديوى عين محمد سلطان باشا رئيس مجلس النواب مندوبا خديويا وبمعيته بعض ياوران سموه لدى الجنرال ولسلى وناط به نشر الدعوة ، وخصوصا بين العرب لمساعدة الجيش الانجليزى الذى يحارب العرابيين باسم الخديو أضف الى ذلك الهبات المالية التى كان الانجليز يغدقونها على العربان ، وخصوصا الذين قيدوا منهم بقلم الاستعلامات الانجليزى)

(ونذكر أن جريدة فرنسية محلية نشرت فيما بعد صورة رمزية فيها يد ضابط انجليزى تلوح بين أصابعها بجنيه من الذهب ، وتحتها يد أحد العربان مبسوطة لالتقاطه ٠٠ ومما يجدر بالذكر فى هذا المقام ، انه لما يئست انجلترا من الحصول على تفويض من الدول

---

(٦) المصدر السابق ص ١٨٥ ٠

التى اشتركت فى مؤتمر الأستانة لقمع الثورة العرابية ، وعجزت عن الاتفاق مع فرنسا أيضا على ذلك ، أعلنت أنها تحارب العرابيين باسم الخديو لردهم الى طاعته ، وأن الجيش الانجليزى الزاحف على مصر ، انما هو جيش خديو مصر ، كما يفهم من التصريحات الواردة فى المنشورات التى أصدرها الخديو والأميرال سيمور والجنرال ولسلى)(٧) ٠

ولا نرى أبلغ من تلك خيانة للخديو توفيق ، والغريب أنه لم يجد من الانجليز بعد ذلك الا شرا واحتقارا ، وكان موقف الانجليز من محاكمة العرابيين على غير ما كان يأمل الخديو ، فقد أعلنت الحكومة المصرية أن مسألة الدفاع عن عرابى وزملائه بواسطة محامين من الانجليز لايمكن الموافقة عليها ، حتى كان انذار اللورد جرانفل الى الحكومة المصرية بأن ـ ليس هذا أوان ظهور الحكومة المصرية بمظهر المعارضة والممانعة ، وان استمرارها على الاباء يعرضها للفشل والخطر ، ولاتكون هذه النتيجة مقتصرة على النظارة وحدها بل تتناول مركز الخديو نفسه ، واذا لم تقبل الحكومة المصرية طلب الحكومة الانجليزية فلا يسعها أن تتحمل تبعة مايترتب على رفضها من النتائج السيئة بعد انقضاء ثمانية أيام على هذا الانذار)(٨) ٠

وبدأت اجراءات المحاكمة ، كما أراد الانجليز ، وكانت الحكومة الخديوية قد ألقت القبض على كل من حامت حوله شبهة الانتماء للعرابيين حتى بلغ عدد المقبوض عليهم نيفا وتسعة وعشرين ألف نفس ، وقد وضعت الحكومة الخديوية يدها على جميع زعماء الثورة العرابية ماعدا ـ السيد عبد الله النديم ـ فقد اختفى عن

---

(٧) المصدر السابق ص ١٨٧ ٠
(٨) المصدر السابق ص ٢٠١ ٠

الأنظار وعدت قصة اختفائه كما كانت قصة كفاحه الى جانب الثورة العرابية أسطورة من الأساطير ٠

ويبدى الرافعى ـ ما يثير الدهشة والريبة ـ لعطف الانجليز على عرابى ومعظم زملائه أثناء محاكمتهم ، واختصوا عرابى بأكبر قسط من العطف والرعاية ، مع ما فى ذلك من تناقض ، فهمالذين كانوا بالأمس يملأون الدنيا ضجيجا بوجوب القضـــاء عليه ٠٠ باعتباره خارجا على الخديو ٠٠ وبعد أن انتهت الحرب بهزيمته وشرع الخديو فى محاكمته اذ بالانجليز يتصـــدون للدفاع عنه وتخليصه من حكم الاعدام ، وقد نجحوا فى ذلك ٠

ولعل الرافعى فى حكمه هذا يبدو عاطفيا أكثر منه واقعيا ، فقد أدرك عرابى أن رســالته لم تكتمل ، وأن كل مايتسنى له من الحفاظ عليها ليصــل بها الى الأجيال اللاحقة ، أن يبقى على قيد الحياة ليصل بها الى الأجيال اللاحقة من أبناء مصر ، ولاشك فى أن ثورته وشعارها ـ مصر للمصريين ـ قد بقيت حية ، لتســفر عن نفسها فى ثورة ١٩١٩ على يد أحد رواده ـ سعد زغلول ـ ومن قبله الامام محمد عبده ، ولطفى السيد ، بل الزعيم مصطفى كامل ، لتكون ـ مصر للمصريين ـ وهو مانوه به عرابى فى مذكراته ، وما حمله على أن يكتب مذكراته ويكون عنوانها ـ كشف الستار عن سر الأسرار فى النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية ٠٠ ومما ينسب الى عرابى ، وهو مما نشك فى صحته ما قيل على لسان عرابى من أنه حين اختار الانجليز جزيرة ـ سيلان ـ منفى له (أنه اغتبط بهذا الاختيار وقال ، أن هذا المنفى يسرنى لأن سيدنا آدم لما هبط من الجنة نزل فيها)(٩) ولم نسمع فيما جاء فى القرآن الكريم وفى الكتب المقدسة مثل هذا القول ٠

---

(٩) الرافعى : المصدر السابق ـ تنفيذ الحكم فى الزعماء السبعة ص ٤٨٩ ٠

وكم نسب الى عرابى من الافتراء والكذب ما يفوق كل ذلك ، ومن قبيل ذلك مايرويه شفيق باشا · وان وصفها بأنها من المضحكات المبكيات ، وان كانت صورة لما نسب الى عرابى من أنه قضى ليلة المعركة ــ كما يروى الرافعى بقوله (وقد فوجىء المصريون بالهجوم اذ كانوا نائمين بعد أن سهروا فى سماع ذكر أرباب الطرق)(١٠) ·

يقول شفيق باشا(١١) :

(ان صديقى المرحوم البمباشى حسن رضـوان قومندان الطوبجية فى استحكامات التل الكبير ، أخبرنى أنه فى مساء ١٢ سبتمبر دخل عليه فى الطابية أحد أرباب الطرق الصوفية وبيده ثلاثة أعلام ، وتقدم الى أحد المدافع فرفع عليه أحدها ،وقال : هذا مدفع السيد البدوى ، ثم انتقل الى مدفع آخر فوضع عليه علما ثانيا ، وقال ــ أنه لسيدى ابراهيم الدسوقى ، ثم الى مدفع ثالث ، وقال : انه مدفع سيدى عبد العال ، قال صديقى ــ ولكن لم يمر على ذلك بضع ساعات حتى صارت هذه المدافع لولسلى !!)

ولنا نتساءل : كيف خلت المعارك الأخرى التى خاضها عرابى فى الجبهة الغربية ، والجبهة من هذه الترهات وقصرت على معركة التل الكبير فحسب ؟!

وكل ما ينسب الى عرابى فى موقعة التل الكبير أنه لم يكن يتوقع هجوما من هذا الجانب ، وحين فوجىء بالهجوم كان يصلى

---

(١٠) الرافعى : المصدر السابق ص ٤٥٠ ·
(١١) المصدر السابق : الجزء الاول ص ١٩٥ ·

الفجر مبكرا وكانت الخيانة والتضليل ، وعجز امكانيات المعركة من المعدات والجند المدربين سبب الهزيمة ٠

أما موقف عرابى فى المحاكمة ، فدليل على نفاذ البصيرة وادراك الواقع ، حين حال الانجليز دون اعدامه ، كما يقول بلنت فى روايته عن محاكمته ٠

وكان من تدخل الانجليز مايعلق عليه أحمد حسين فى موسوعته بقوله(١٢) : (واستفاق الخديو على هذه اللطمة ، ولعله أدرك لأول مرة أنه قد أضاع استقلاله واستقلال بلاده ، وأن ما كان يتخيله من أن الانجليز قد جاءوا ليثبتوا سلطانه ليس الا محض خرافات وأوهام) ٠

وكان ما كان لتبدأ صفحة جديدة لعرابى ورفاقه فى المنفى المختار ٠

(١٢) المصدر السابق ص ١١١٩ ٠

١/١٧ ـ الله ينصرك يا عرابى

وشاء القدر أن يكون منفى الزعيمين عرابى وصحبه وسعد زغلول ورفاقه الى جزر المحيط الهندى من مستعمرات بريطانيا ، العرابيون فى سيلان ، وأقطاب الوفد فى سيشل ، وبقى سعد فى سيشل حتى نقل بعد ثمانية شهور الى جبل طارق مراعاة لصحته · وكأنما كانوا جميعا على ميعاد ، فسعد زغلول صاحب عبارة ـ مصر للمصريين ـ كما كانت عبارة عرابى من قبل ·

واذا قلنا أن ثورة ١٩١٩ كانت امتدادا لثورة عرابى فاننا نصدق القول فى رواية التاريخ · وكان سعد زغلول من الملك فؤاد ، ومن لاذ به من المشايعين للترك من جماعة عدلى يكن ، وعبد الخالق ثروت ماكان عرابى ممن لاذوا بتوفيق وجماعته من الجركس ، ومن لاذ بهم من المصريين ، ومن الفريقين من كانت مصر بغيته رغم أصوله التركية ·

وقد نرى من سياسة سعد زغلول ، ما كان من سياسة عرابى ، فان ماعيب على عرابى ـ كما يرى الرافعى ـ من أنه لم يستمر فى المقاومة (ولم يستشهد فى موقعة التل الكبير وتراجع عنها مصرا على الاستمرار فى المقاومة لعد عمله بطولة تذكر بالخير) وتناسى

الرافعى أنما كان ينشده من عرابى ،سيؤدى الى تخريب مصـــر ـ مما سبقت الاشـــارة اليه ، وكان فى هذا على غير ما ذهب البارودى ، انقاذا لمصر من كارثة مخربة ، وكان فى انقاذ الانجليز له من الاعدام والابقاء على حياته والاكتفاء بنفيه ، ما صان حياته ليقول كلمته للتاريخ ، ولتصبح ثورة ١٩١٩ امتدادا لثورته · وتغدو كلمته ـ مصر للمصريين شعارا لمصر والمصريين من بعد ·

وكان فى سعد زغلول بعض الشبه من عرابى ، فلم تكن (قدرة سعد زغلول على التحدى من قبيل الجمود الذى يقود الى الدمار أو الخسارة ، ولم تكن قابليته للاستجابة من قبيل الاستسلام ، أو السكون الذى يؤدى الى الشلل ، ولكنه كان يعرف متى يتحدى ، ومتى يستجيب ، فهو بين التحدى والاستجابة يستلهم الواقع ويدرك مايمكن أن يسفر عنه هذا الواقع من نتائج قبل أن تظهر ، وكان لديه نوع من الشفافية لم تكن لدى معاصريه ، فبينما تراه فى جـــانب والآخرون فى جانب آخر فانهم يرون مايراه فى النهاية هو الأصح وهو الأسلم ، وتلك موهبة اذا استندت الى الذكاء والقدرة على الادراك ، تفرد صاحبها بين أقرانه بالوعى السليم وقد كان سعد زغلول فى قدرته على التكيف مع ماهو واقع ومايواجه من أحداث ، من غير أن يتخلى عن عقيدته وما يعتبره الصواب أو الحق متفردا بهذه القدرة)(١) ·

ولا نبالغ اذا قلنا ، أن الساحة الدولية ، وما عجت به من صراع وتنافس استعمارى ـ وأعنى بالساحة الدولية ـ الســاحة الأوربية التى غدت ولها السيادة العالمية والتفوق الحضارى ، لم تتغير كثيرا لا فى وسائلها ولا فى مرماها عندما فزعت مصر الى

---

(١) المؤلف : سعد زغلول . الزعامة والزعيم ص ١٧٢ ، ١٧٣ ·

ثورتها عام ١٩١٩ بقيادة سعد زغلول ، عما كانت عليه عندما فزع بها عرابى الى غايتها ومرماها فى ندائه ــ مصر للمصريين ــ فقد بقى النداء أغنية شجية فى صوت مصطفى كامل ، وغدا نشــيدا جياشا على لسان سعد زغلول ·

فاذا كانت القوى الدولية التى تمسك بأعنة السياسة العالمية قد اقتحمتها عناصــر جديدة لها طموحهــا ومطامعها ، فان الدوافع والغايات لم تتغير ، وان انقلبت الموازين فيما بينها مع الغــايات والمطامع التى تنشدها كل دولة ، وتتطلع الى تحقيقها وان أدى الأمر الى امتشاق الحسام ولعلعة المدافع · وهو مايشير اليه ــ برودلى ــ فى كتابه الموسوعى الضخم ــ كيف دافعنا عن عرابى(٢) ــ بقوله :

(كان العقد الأخير من القرن التاسع عشر أشد مامر بالشمال الأفريقى من أى عقد آخر فى تاريخها ، فقد احتلت فرنسا تونس ، وكان ذلك من العوامل التى دفعت انجلترا الى احتلال مصر ، وما كان من صراع دولى حفل به الشــمال الآفريقى ، ولم يعد الاحتــلال البريطانى لمصر موقوتا بل مقيما) ·

وقد اتصلت المراسلات بين برودلى ــ والعرابيين طويلا يأتى برودلى على تفصيلها بنصوصها الانجليزية ·

ولم يكن غريبا ــ كما يقول ــ أن يقف ــ بلنت ــ الى جانب عرابى ، فقد كان جلادستون متعاطفا مع العرابيين ، ويرى المصريين

---

(٢) بدأت فرنسا احتلالها تونس سنة ١٨٨١ عندما عبرت حدود تونس من الغرب وارغمت الباى محمد الصادق على توقيع معاهدة بارو ، فى ١٢ مايو ١٨٨٢ بفرض الحماية الفرنسية عليها : المؤلف ·

على حق فيما ينشدونه لأنفسهم من حياة دستورية سليمة ، ومما يرويه ـ برودلى ـ فى هذا الصدد (أن بلنت ـ وهو صاحب الفضل الأكبر فى الدفاع عن عرابى ـ وكان فخـورا بأن يدعو عـــرابى ـ صديقى ـ ففى جولته مع زوجه فى بواكير حركة عرابى ـ حركة مصر القومية ـ فى بوادى سوريا والجزيرة العربية وخيام البادية ٠

وكان من أثر جولته هذه ـ أن عرف كيف يوقر العرب ويحمل لهم كل تقدير ـ كما يقول ـ فأحب عرابى فقد رأى وزوجه فيه ـ زعيما أمينا لشعب ينشد العدل والحرية والتحرر من الاستعباد ، مما حمله على تبنى قضيته والدفاع عنه ، وكان فخورا بأن يدعوه ـ صديقى عرابى ـ وكان هذا مما لمسه فى جولته تلك فى بوادى الشام وجزيرة العرب ما حرك مشاعر أحرار الانجليز فوقفوا الى جانبه فى دفاعه عن عرابى ، ولم يكن ينشد الا أن تكون محاكمة عرابى محاكمة عادلة ـ ولنفترض أنه أخطأ ، فان من حقه أن نستمع الى دفاعه قبل أن يقضى فى أمره ـ وقبل أن يتبنى ـ بلنت ـ الدفاع عن عرابى ، لا نرى فى موقف عرابى ، الا كل شموخ ، وأباء ، ويكفيه فخرا ما كان من تسليمه وهو يعلم مصـــيره على يد الخديو ـ الخديو الخـائن وجماعته ـ على غير ما ذهب اليه البارود ، انقاذا لمصر من دمار محقق ، ولم يكن ثمة مايشير بعد الى تبنى ـ بلنت ـ قضية الدفاع عنه ، وكان حرصه أن يكتب فى سجنه وصيته للتاريخ ـ وان قيل ـ كما جاء على لسان شفيق باشا ـ ان (برودلى هو الذى أملاها عليه) ـ كما أشار الى أن الحكم (الصادر على عرابى وزملائه وقع وقعا سيئا فى النفوس ، ولم تتمالك جريدة ـ اجبشيان غازيت ـ نفسها وهى لسان حال الانكليز فى مصر من المجاهرة بأن نتيجة محاكمة زعماء العرابيين ، جاءت مخـــالفة لمجرى العدالة ، وقد اعتبرها الناس جميعا ضربة قاضية للرأى العام) ٠

وانكنا لا نجد فيما قاله شفيق باشـــا سندا من الواقع ـ وقد جاء تعليقه فى هامش الصفحة التى دون فيها ما قاله مايلى :

(على أن بعض كبار الانجليز قالوا أن الخـــديو كان راغبا أشد الرغبة فى اعدام عرابى التى كانت محاكمته غاية فى السخف لأن جميع المسائل رتبت سرا معه على أنه اذا اعترف أمام المحكمة بأنه مذنب فان الحكومة البريطانية تتعهد بألا تسلمه للحكومة المصرية وأن تنفيه مع أسرته الى مستعمرة بريطانية)(٣) ٠

وان كان من الانصاف أن نقرر أن شفيق باشا قد أورد ـ وصية عرابى السياسية ـ نافية لما جاء فى تعليقه السابق هذا ٠

وعلى أية حال فان الاجماع وخاصـــة من جانب المؤرخين والكتاب الانجليز ينتصف لعرابى تماما ، ولعل انصافهم لعرابى انصاف للعدالة الانجليزية ، أو بمعنى أدق انصاف للقيم الانجليزية التى يحرص الانجليز على ابرازها صورة للرأى العام الانجليزى وأن خالفت اتجاه الحكومة ، وهو ما يحـــرص عليه الانجليز فى تمجيدهم لبلادهم ٠

وقد جاء كتاب ـ برودلى ـ كيف دافعنا عن عرابى ـ ملحمة رائعة فى ابراز العدالة الانجليزية ، لا تخلو من الطرافة ، فقد صدر الكتاب ، وغلافه بلونه الأزرق الرمادى ـ بديلا لعنوانه الأصلى فى الصفحة الداخلية التالية ، على الصـــورة التالية وكلماته باللون الأحمر :

الله ينصرك ياعرابى

---

(٣) المصدر السابق : الجزء الأول ص ٢٠٤ ٠

والصورة الداخلية التى تلى صفحة العنوان — اسم (أحمد عرابى المصرى) وفى أدنى الصفحة بعد العنوان واسم المؤلف عبارة

(الله ينصرك ياعرابى)

بخط النسخ يبدو انه كتبه بنفسه ·

والكتاب موسوعة فريدة فى تاريخ الثورة العرابية والمجتمع المصرى الى جانب المجتمع العربى الذى تشيع لعرابى على خلاف ما ذهبت اليه الدولة العثمانية والسلطان العثمانى — بادانتـــه واتهامه بالعصيان ·

فاذا جئنا الى عرابى فى مذكراته نراه يقول فى هذا الصدد :
(عين صديقى مستر ولفرد بلنت المســـتر برودلى الأفوكاتو الانجليزى للمحاماة عنا ومعه المســـتر نابيار والمستر أيف افوكاتية ، والمستر سنتليان ، وهو عالم بالعربية والانجليزية استحضر من تونس برفقة المستر برودلى لهذه المهمة وذلك بمقتضى خطاب هذا نصه :

بسم الله العزيز القدير

(الى صاحب السعادة صديقى العزيز الســـيد أحمد عرابى باشا حفظه الله ·

بعد السلام التام والسؤال عن خاطركم الكريم أعلم جنابكم أن حامل هذه الأسطر المستر برودلى وهو من المتشرعين الماهرين ومشهود له بحب الاستقامة والانصاف وقد كان من قبل بتونس وهو يحب العرب ، وقد اخترته ليحضر الى مصر لكى يحامى عنكم وعن بقية الأسرى

أصدقائنا الأعزاء ، وهو (أول متشرع ، ويكون المستر نابيار مساعدا له فاجعلوا كل ثقتكم فيه واطلعوه على جميع الحجج والبراهين التى فى يدكم وسلموه نسخ جميع الرسائل التى تقوى دعواكم حتى يترجمها الى الانجليزية أو يرسلها الى لندن لنترجمها ونرسلها له لئلا يترجمها أناس ذوو أغراض ، فيغيروا معناها الأصلى بقصد تشويه دعواكم والحاق الضرر بكم ، ولا حاجة الى تكرار خلوص حبى لكم ، وانى فى كل حال صديقكم الأمين) .

(ولا يخفى عليكم بأن جميع مصاريف الدعوى والمحامين تكون على ذمتى وذمة بعض أصدقائى من أصحاب الأفكار الحرة والمحبين للعدالة ، فلا يكون عندكم أدنى فكر من هذا الخصوص ، اتكلوا على الله القوى لا يهمل من يتكل عليه ، وادام الله بقاءكم) .

تحريرا فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٨٨٢

المحب المخلص ولفرد بلنت

(وكان قد عمل قائمة اكتتاب بانجلترا بتلك المصاريف الباهظة التى صرفت فى سبيل الدفاع عنا ، دفع منها الجنرال غوردون ٣٠ جنيها ، ولكن أكثر المصاريف كانت من طرف صديقنا المستر ولفرد بلنت الا أن حضور المحامين المذكورين كان بعد تمام الاستنطاق ولم نسأل فى شىء بعد .. وأما المستر نابيار فانه أفوكاتو انجليزى عينه صديقنا المستر ولفرد بلنت للمدافعة عنا بمقتضى خطاب من حضرته بتاريخ ٢٩ سبتمبر سنة ١٨٨٢ ، وهاك نصه :

(الى صديقى العزيز السيد أحمد عرابى باشا صانه المولى وأبقاه :

بعد السلام التام والسؤال عن خاطركم العزيز أعلموا جنابكم. أن المستر نابيار حامل هذه الأسطر هو صديقى ، وهو من عائلة شريفة ومعروف من أكابر الانجليز ، وقد حضر الى مصر لكى يحصل على أدلة وبراهين للمحاماة عنكم ، وعن باقى أسرى الحرب ، وهو متشرع ماهر مشـــهود له بالباع الطويل فيمكنكم أن تثقوا به لأن حضوره الى مصر هو بناء على طلبى ، كى يناضل عنكم فى الشرع وقت المحاكمة ، وكذا عن بقية أصدقائى الذين هم الآن اسراء بأمر الله ، فلا تعتمدوا على كلام أى كان من الذين ربما ينصحونكم أن تتكلموا عن رحمة المجلس العســـكرى ويجتهدون بأن يقنعوكم بأن لا تتعبوا أنفسكم فى جمع الأدلة والحجج اللازمة للمحاماة عنكم ، فان الذين ينصحونكم بمثل هذه النصائح لهم أغراض شـــخصية لا تجهلونها ، وأما أنا فأنصحكم بأن تتجرأوا وتظهروا كل مالديكم من البراهين والأدلة ، ولو أنها لا توافق صالح غيركم ، فتكلموا كل الحق ، وأظهروا ماعندكم من الحجج وتوكلوا على الله ، ثم أنى قد فوضت لصديقى المستر نابيار أمر الاعتناء بعائلتكم المصـــونة ومساعدتها فى كل ما تحتاج اليه من مال وغيره على ذمتى مادامت الأحوال على هذا المنوال ، فلا تتحاشوا من ذكر كل ما تريدون ذكره وطلب كل ما تريدونه ، فأنى مستعد بكل قلبى ورغبتى لأفعله حبا بكم ولو صعب فعله وعظم أدره ، هذا وحضرة السيده ـ أنه ـ قرينتى تسلم عليكم وتسأل عن خاطركم ، محبكم المخلص

ولفرد بلنت

تحريرا فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٨٨٢ ٠

(حاشـــية)

(ولا يخفاكم أن جميع مصاريف الدعوى كلها تكون على ذمتى وذمة بعض أصدقائى بلندن من أصـــحاب الحرية والمحبين للعدل والانصاف)

ويقول عرابى :

(وفى ١٥ ديسمبر سنة ١٨٨٢ أخذت خطابا من البوستة واردا من نيويورك بأمريكا تاريخه ١٥ نوفمبر سنة ١٨٨٢ وهذه ترجمته)

(الى عرابى باشا

سيدى العزيز :

انى حظيت بكتابك الذى يخولنى شرفا عظيما ، فتشجع ياصاحبى واعلم أن - بعد العواصف تشرق الشمس - وان - مصر للمصريين - ثم أنى وقفت على أفعالك الوطنية من الاسكندرية الى مصر ، ورجائى قوى بأنك ستنتصر على الحدثان والمحن المحدقة بك) .

الأكثر اعتبارا لك

جوليا كارتين

ويمضى عرابى ، قائلا :

(انتهى محضر استجوابى ، أما محضر استجواب على باشا فهمى وسائر محاضر استجواب زعماء الثورة العسكريين وهم عبد العال حلمى باشا ومحمود سامى باشا ، ومحمود فهمى باشا ، وطلبه باشا ، ففى كتاب - مصر للمصريين - وجرائد ذلك الحين) .

ومما يشهد به شفيق باشا لعرابى قوله :

(وكان موقف عرابى وهو فى الحبس مملوءا بالوقار لأنه مهما قيل عن شجاعته المادية كان على مبلغ كبير من الشجاعة الأدبية ، وكانت هيأته وسلوكه

كذلك عند مقابلتهما بسـلوك المعتقلين الآخرين يلفتان النظر ، فقد كتب دون أن يتردد تاريخ المسائل السياسية التى[٤] اشترك فيها بأجمعها ، وكانت روايته صريحة مقنعة. ولم تكن صراحته دون ذلك أيضا عندما روى ضروب الاشاعات التى عامله بها أولئك الأوغاد السفلة خدمة الخديو توفيق- خدمة الخديو هما حسين أغا الشماشرجى ، وابراهيم أغا التوتنجى - الأتراك عندما نقلوه من السجن الانجليزى الى السجن المصرى وطول مدة بقائه فى هذا السجن)

ويروى عرابى ما كان من محاكمته ، فيقول[٥] :

(وفى ٣ ديسمبر سنة ١٨٨٢ التأمت المحكمة العسكرية المذكورة فى جلسة علنية بحضور جم غفير من الذوات والأوربيين، وكثير من عقيلات أكابر الأوربيين حتى اكتظت المحكمة على سعتها، ثم دعيت لسماع الحكم فأجبت وقمت فى مقام سماع مؤمنا بالتميز والاحترام ، فقام رؤوف باشا رئيس المحكمة المذكورة ، وتلا على الحضور الأمر القاضى بالاعدام ، ثم جلس دقيقة وقام يتلو أمر الخديو القاضى باستبدال القتل بالنفى المؤبد ، فأشرت بالرضى والقبول مع الشكر) .

وكان كل ماينشده بلنت وتكليفه برودلى ونابيير بالدفاع عن عرابى ، أن ينقذه من القتل ، كما كان ينشد الخديو ويعمل له ، فما أن صدر الحكم - باستبدال القتل بالنفى المؤبد - حتى (قامت السيدات الأوربيات يتسابقن فى نثر الورود والازهار على مهنئات

---

(٤) الجزء الأول ص ٢٠٨ .

(٥) مذكرات : الجزء الثانى ص ١٤٨ - ١٤٩ .

بشفقة وحنان ، لا أزال أشكرهن وأذكر عطفهن على بالثناء الجميل ... وأما السيدة اللادى نابيير ، فانها بعد أن نثرت على كثيرا من الورد والياسمين ، قدمت الى بيدها الكريمة باقة ورد عظيمة فتقبلتها منها شاكرا لها عطفها وحنانها - ونثر الورد رمز على الخلاص من الموت) .

ويمضى عرابى فى مذكراته - فى ذكر ما كان من استجوابه وردوده فيما يهم - (وقد اقتصرنا - كما يقول فى هامش الصفحة - على المهم من هذه المحاكمات ، ومن أرادها كاملة فليرجع الى جرائد ذلك الحين ، أو الى كتاب - مصر للمصريين - ويترك للمنصف من قراء المستقبل الحكم واستنباط الحقيقة) .

والواقع أن عرابى كان حريصا على كلمة التاريخ ، ولا يحب أن تمضى حركته وجهاده ، ويختفى نداؤه - مصر للمصريين - فى لغو الباطل ، وأكاذيب المضللين ، فلم يأت أمرا ادا ، ولم يخرج حتى فى صلته بالخديو توفيق عماله من توقير بوصفه حاكماشرعيا على مصر - هو ما لمسناه من سلوكه حياله فى كل مناسبة ، ولم يكن الخلاف والتنابذ من قبل عرابى بل كان من توفيق ، الذى وصمه التاريخ بالخيانة ليكون جزاؤه من الانجليز بعد احتلالهم مصر التحقير والانكار .

ويمضى التاريخ لينال عرابى توقير التاريخ ، وهو ما كان هدفه وغايته سندا لندائه الخالد - مصر للمصريين - ومن هذا كان حرصه على تدوين مذكراته التى دونها منسوخة بعنوان - كشف الستار عن سر الأسرار .. الخ - كما سبق القول - لتبقى مأثرته حية على مدى التاريخ ، بعد أن رأى الهزيمة تحل به ، ولم يشأ أن تكون النهاية ، فلم يسلم بما ذهب اليه البارودى - كما سبق القول - وسلم دون البارودى - للانجليز - وقد أشار (عليهم

مسيو نينيه بأن يسلموا أنفسهم كأسرى حرب للقائد البريطانى ، فعمل عرابى وطلبه بنصيحته ، وتهيأ الاثنان للذهاب الى العباسية لكي يسلما أنفسهما للجنرال - درورى لو - أما محمود سامى البارودى ، فلم يقبل هــــذه النصيحة ، وقال : (انى ذاهب الى منزلى ، فاذا أرادونى فانهم يعرفون أين يجدوننى ٠٠)(٦)

ولا نرى الا أن عرابى كان ينظر الى المستقبل - كما قلنا - ليكمل رسالته ٠ وكل ما يرمى اليه حينذاك أن يبقى على حيـــاته ليكتب كلمته للأجيال القادمة ، ولتكون وصيته الأخيرة - مصــــر للمصريين - وقد تم له ما أمل ٠

ولا ينسى فى هذا الصدد أن يلقى بكلمته الى التاريخ ، فما أن صدر عليه الحكم حتى (بعث الى جريدة التيمس بوصيته السياسية عملاً بما أشار على به المحاميان اللذان توليا الدفاع عنى وهمـــا المستر برودلى ، والمستر نابيير ، اللذان توليا الدفاع عنى ، ولا أستطيع أن أفيهما حقهما من الشكر لما بذلاه فى قضيتى من الجهد والاخلاص) ٠

يقول فيها :

(لست أشكو اليوم مما انتهى اليه أمرى ، ولا من الحكم الذى صــــدر علىّ فانه يقرر على كل حال براءتى من تهم المذابح والحريق التى لم يكن لى يد فيها ولا تتفق مع مبادئى السياسية والدينية ، وقد صار الأمر كله موكولا الى الحكومة الانجليزية والى مكارم الشعب الانجليزى ، وأنا أغادر مصر مع الثقة التامة فى حسن مصيرها ، لأننى أعتقد أن انجلترا صارت لاتستطيع أن تؤجل

---

(٦) الرافعى - الثورة العرابية ص ٤٦١ ٠

الاصلاحات التى قمنا بالمطالبة بها ، وكافحنا من أجلها ، ولابد أن تبدأ بالغاء المراقبة الثنائية ، ولا تترك حكومة مصر فى أيدى الألوف من الموظفين الأجانب ، وتحرم أبناءها من ادارة شئونها ، ثم تطهر المحاكم الأهلية من أوضارها وتضع القوانين والمشروعات اللازمة لنظام الادارة ، وأهم من وضعها مراقبة تنفيذها ، ثم يشكل مجلس للنواب يكون له حق الاشتراك فى ادارة شئون الأمة المصرية ، ويمنع المرابون من الانتشار فى قرى الفلاحين فاذا أتمت كل هذه الأمور ، وعادت على مصر بالتقدم والعمران وجب على الشعب الانجليزى أن يعترف بأنى كنت محقا بالخروج والعصيان) .

(ولما كنت من أبناء الفلاحين الذين يحبون بلادهم ، فقد بذلت ما فى وسعى وامكانى لاجراء هذه الاصلاحات ، ولكن لسوء حظى لم يتح لى أن تتم على يدى ، وأملى عظيم فى أن الحكومة الانجليزية ستقوم باتمام ما بدأت به فاذا أدت انجلترا هذه المهمة واستخلصت مصر للمصريين وضح للعالم جليا ماهو الغرض الجليل الذى كان عرابى العاصى يسعى اليه) .

(ان جميع المصريين كانوا فى جانبى ، كما أننى وقفت نفسى على خدمة بلادى التى لن أتحول عن حبها الى نهاية حياتى ، فلذلك أرجو ألا تفتأ مصر تذكرنى عندما يتسنى لانجلترا أن تتم العمل الذى حاولت الشروع فيه ، وانى لا أزال أكرر القول بأنى غير حزين لما وصل اليه أمرى ، بل أرانى مغتبطا مسرورا لاعتقادى بأن ما حل بى من سوء العاقبة كان من البواعث لحصول مصر على ماهى أهل له من الحرية ورغد العيش فاذا أتمت انجلترا هذا العمل الجليل كنت على يقين بأنها لابد أن تسمح لى بالعودة الى وطنى المحبوب لما جبلت عليه من حسن الشعور الانسانى وحب الانتصار للعدالة

حتى أرى بعينى رأسى قبل أن ينقضى أجلى نتيجة أعمالها فى خدمة الانسانية) .

(هذا وانى أشكر اليد البيضاء التى أسداها الى المستر جلادستون واللورد جرانفل بحسن وساطتهما فى أمرى ، بحيث أنقذانى من حالة الخطر التى كنت فيها ، كما أنى أشكر اللورد دوفرين والسير ادوارد مالت لما أبدياه من العطف على ، أما صديقى المستر بلنت فأنا عاجز عن ايفائه حقه من الشكر لما بذله لأجلى من جاهه وماله ، وما ساعدنى به فى ساعة الشدة والحاجة التى تحول فيها على أصدقائى المصريون واحدا بعد الآخر) .

(وأنا عاجز أيضا عن ايفاء حق الشكر للمستر - برودلى - فقد أولانى نعمة الخلاص والنجاة بفضل اجتهاده وصدق عزيمته ، وكذلك المستر - نابيير - وبالجملة أشكر للأمة الانجليزية كلها عطفها على ، وأشكر لكم ياسيدى المحرر وكبار محررى الصحف الانجليزية ما تفضلتم به من الاجماع على المطالبة بالعدالة فى محاكمتى) .

(واختم القول بأنى على ثقة بأن حقنا سيظهر جليا فيما تعرضنا له مع مرور الزمن ، وأن انجلترا لا تندم أبدا على ما أبدته من الكرم والانسانية مع رجل كانت قد قصدت فى أول الأمر محاربته) .

(من سجن القاهرة ٤ ديسمبر سنة ١٨٨٢)

أحمد عرابى المصرى

١٨/١ ـ الحقيقة والواقع ـ كلمة التاريخ

كانت ثورة عرابى أشبه بجذوة من اللهب مالبثت أن أطفأتها ريح عاصفة ، حتى دعاها العامة ـ هوجة عرابى ـ والعامة إحيانا فى مصر ـ أصدق احساسا وتعبيرا عن معنى التاريخ من كثير من المؤرخين ٠

وحين أدير تلك العبارة فى عقلى : أتساءل : أهى احساس لاشعورى بما كان أوإنها وصفا حقيقيا لما كان ، وهل كانت حين ألمت بها الخديعة وعجزت عن مواجهة الموقف ، وما أصابها من فرقة حين ذهب البعض يؤيد الخديو الخائن ، والبعض الآخر يقف إلى جوار عرابى علة هذا الوصف ، أو ان ما أصاب الجيش المصرى من الغدر والخيانة ، فلم يصمد طويلا أمام الغزو الانجليزى ، أو أن مجزرة القصاصين التى قتل فيها ألفان من الجنود المصـــريين مقابل سبعة وخمسين جنديا من الانجليز (٩ سبتمبر ١٨٨٢) هو الذى يحـــرك الشـــعور حقيقة ما يخفيــه ، وهل كان للفوضى التى ضربت أطنابها على تحركات الجيش المصرى ، فغدت أشبه بالهياج منها بتحركات لا تجد سندا لها من الجند المدربين وتكتيك المعارك فلم تصمد طويلا وكانت أشبه بجذوة من اللهب أطفأتها ريح

هائجة ولنا أن نتساءل ، أين كان الناس ـ كما كان أهل رشيد ـ حين نزلت عليهم حملة فريزر ، وهو ما أتخذه الرافعى قياسا لحكمه على معركة التل الكبير ، فقضوا عليها قبل أن تأتيهم النجدة من محمد على ـ لقد كان الشعب والحاكم حينذاك فى صف واحد أمام الغزو الانجليزى لرشيد سنة ١٨٠٧ ، أما فى ثورة عرابى فقد كان الشعب والحـــاكم حينذاك على طرفى نقيض ، فكانت الفرقة بين الحاكم وأعوانه وعرابى وأعوانه ، ولم تكن الجذوة التى أوقدها عرابى قد امتدت بعد الى عامة المصريين من الفلاحين ، ولو أنها امتدت اليهم وجاشت بها أفئدتهم وحركتهم لما اســـتطاع الخديو أو الانجليز التصدى لها والقضاء عليها ، كما كان من بعد فى ثورة ١٩١٩ ٠

ونكاد نقول أن الأرض لمتكنقد استوت بعد لترسل حممها ، وكانت ثورة عرابى فورة لم يتهيأ لها رأى عامة الناس بجهد كان دون طاقتهم وقدرتهم ، والهياج ـ أو الهوجة ـ هو الوصف الدقيق لثورة لم تكتمل ، ولم يتهيأ لها الظرف المناسب ، فان كان فيه اساءة لعرابى ، فقد وجدت ترحيبا من السلطة الحاكمة ، فانها من ناحية أخرى دلالة صادقة على حس المصريين ، حين يستوحى المصرى صدقه مما طوته السنون فى أعماقه ومن حنايا اللاشعور فى وجدانه، فيصدق حسه أكثر مما يصدق عقله ، ويكون له من حسه نبراسا لواقعه ووحيا لمشاعره ٠

وهو ما كان ـ كما سبق القول ـ منه فى ثورة ١٩١٩ حين اكتملت لديه الرؤيا ، وانجابت عن ناظريه الغيوم ، فثورة ١٩١٩ هى الامتداد الحقيقى لثورة عرابى ، حين مست أوضار الانجليز مصالح الفلاحين ، تفصل بينهما فترة من اليقظة العارمة تهيأت فيها الأذهان للصحوة الكبرى ٠

ولعل هذا ما حرص عليه عرابى فى نظرته للمستقبل ، حين

نزل على الحكم بنفيه انقاذا لحياته ليكمل رسالته ولم يفارقه الأمل فى عودته الى مصر ، وبقى فى منفاه ومصر فى وجدانه وخاطره وكان من مآثره أن بعث الى أصدقائه بمصـــر من تقاوى الفواكه ـ كالمنجة ، والقشطة ، وبذور البن لزراعتها فى مصر فأرسل الى أحمد باشا المنشاوى ـ تقاوى البن اليمنى تكفى لزراعة عشرين فدانا حتى يعمم انتشاره ، كما ارسلنا ـ كما يقول ـ لهذا الغرض أحسن أنواع ـ المانجة ـ والموز الأحمر والأصفر المضلع أيضا وغيره من الأصناف المتعددة من الفاكهة الزكية الرائحة اللذيذة الطعم التى رجوت انتشارها فى مصر ، وبعثنا اليه أيضا بأنواع الحبهان ، والقرنفل ، والبانليا الطيبة الرائحة ، وأذكر أنه أهدى جدى ثمار المانجة والقشطة ، فزرع أشجارا عديدة منها ، وأذكر أن ثمار المانجة كانت كبيرة الحجم ، ولا أذكر أن ثمار القشطة قد زرعت فى مكان آخر غير ما زرع على مساحة عشرة أفدنة لجدى . وقد رأيتها فى طفولتى ، حتى أتت عليها عوادى الزمن ، وكان عرابى بعد عودته لمصر يزور جدى ويزوره فنحن من أبناء الشرقية وبلدتى ـ اكراش ـ على مقربة من هرية رزنة ، ومن خلال أعيان الشرقية التزاور فى المناسبات أو فى غيرها ، وكانت الزيارات بين الأعيان عادة أثيرة من عادات الريف فى مطلع القرن العشرين ، وقد قضى عليها بعد أن غشيها ماسمى ـ الاصلاح الزراعى ـ

وشاء القدر أن تحظى رغبة عرابى بالعودة الى مصر ، فجاءها عام ١٩٠١ (١٩ سبتمبر) ليرى أن كل شىء قد تغير .

وقبل أن تطأ قدمه أرضها ، كان قد فرغ من كتابة مذكراته هذه ، وقدم للجزء الأول منها ـ كما سبق القول ـ الرئيس اللواء

محمد نجيب ـ أما الجزء الثانى ـ فقد قدم له الأستاذ طاهر الطناحى(١) ، ويقول فى تقديمه :

(وفى هذا الجزء تفصيل واف لمحاكمة زعماء الثورة وقادتها من الضباط والعلماء والأعيان وغيرهم ممن امتلأت بهم السجون المصرية وقد بلغوا ثلاثين الفا ، وقد اقتصرنا فى هذه المحاكمة على محاكمة أحمد عرابى وبعض زملائه وأنصاره من الضباط والعلماء والأعيان ، ولم نضن على القارىء بتفصيل محاكمتهم لأهميتها التاريخية ، ولبيان ما أصاب هؤلاء الوطنيين الأحرار من تعسف وظلم وتنكيل ثم ما اصابهم فى سبيل وطنيتهم النبيلة من أحكام قابلوها بالشجاعة والاطمئنان) .

(وقد كان الخديو توفيق والخونة من رجاله يودون لو نفذ فيهم حكم الاعدام لولا تدخل بعض الدول وثورة الصحافة الأجنبية الحرة التى كانت تؤيد الأحرار المصريين فى مطالبهم العادلة ، فاضطر الى العدول عن هذا الحكم الى النفى المؤبد فى جزيرة سيلان) .

(وقد مكث عرابى وصحبه فى هذه الجزيرة تسعة عشر عاما وبضعة شهور مات منهم فيها من مات ومرض من مرض ، ثم عاد الباقون الى بلادهم فى شيخوخة مضنية ...)

---

(١) صدر الجزء الأول من هذه المذكرات فى سلسلة كتاب الهلال العدد ٢٢ (فبراير ١٩٥٣) وصدر الجزء الثانى ـ العدد ٢٤ ـ (مارس ١٩٥٣) .

(وكانوا محاطين من أهل الجزيرة الذين عرفوا قدرهم بكل اجلال وتكريم واعجاب) ٠

ومما يستحق الاشارة اليه ، ما جاء على لسان عرابى فى ختام مذكراته تلك ــ على غير ما نسب اليه ، على لسان من كتبوا عنه قبل سقوط الحكم الملكى فى مصر ٠ وقد دونها عرابى فى ختام مذكراته ــ كما يقول ــ (وكان الفراغ من كتابى هذا فى ١٩ رجب سنة ١٣٢٩ الموافق ٢٦ يوليو سنة ١٩١٠ ، ويوقعها على الصورة التالية ــ خادم وطنه أحمد العرابى الحسينى المصرى ٠

فيقول : (ومضى على احتلالهم ــ أى الانجليز ــ غير الشرعى ٢٩ عاما ، فما بالهم لا يوفون بوعدهم وينجلون عن البلاد المصرية ، وهى هادئة ساكنة ٠ نعم ان الانكليز(٢) كباقى الأمم لا ينجلون عن بلاد احتلوها برضى أنفسهـــم أبدا ، ولكنهم سينجلون عن كنانة الله رضوا بذلك ام غضبوا ، قريبا أو بعيدا ٠٠ وقد دخل الانكليز مصر بأسباب غير شريفة وخدعوا المصـــريين والدولة العثمانية وأوروبا وحاربوا المصريين بدعوى تأييد الخديو ، ورشوا رجال الدولة العلية ، ولكن الله يدافع عن عباده المؤمنين) ٠

(فعلى الناشئة المصرية أن تجد وتجتهد وتعمل ليلا ونهارا على استرداد مجدها واستقلالها وحريتها المسلوبة منها ومطالبة الانكليز بالجلاء حتى ينكشف عنها هذا البلاء ٠٠ ثم أناشدهم أن يشدوا أواصر الأخاء بين أبناء وطنهم ، ويطهروا قلوبهم من الغل والضغينة ويعملوا يدا واحدة ورجلا واحدا لرفع شأن بلادهم واعزاز كلمة دينهم ، فاذا فعلتم كل ما ذكرت ، وأرهفتم أذانكم للســـمع ،

---

(٢) هكذا كانت تكتب فى تلك الأيام وإلى عهد قريب ٠ المؤلف ٠

وأصختم الى نصائح من حنكته التجارب ، فعرف من تقلب الحدثان الطريقة المثلى والدواء الناجع ، هناك يخرج الله أعداءكم ويولى عليكم خياركم ، والله على كل شىء قدير) .

وقد يبدو هذا نقيضاً لما كان من دفاع الانجليز عنه وانقاذهم له من عسف الخديو توفيق التواق لاعدامه ، ولكن الرد عليه ، كما سبق ذكره ، كان منجانباحرار الانجليز أمثال – بلنت – وهوالذى تبنى قضيته ويسر لها المحامين فى الدفاع عنه ، وفرق بين دعاة الاســـتعمار البريطانى والأحرار من الانجليز ، وقد رأى دعاة الاستعمار فى نفى عرابى أبعادا له عن الساحة المصرية ، كما رأى المدافعون عنه ، انقاذا له من الاعدام ، بل كان من أبناء الأسرة الحاكمة من أخذوا جانبه ، (وكان فرح المصريين الأحرار لانقاذه من مخالب الموت – كما يقول – فرحا عظيما ، خصـــوصا أحرار العائلة الخديوية ، وكتبت صاحبة الدولة ومثال الكمال – انجى هانم حرم المرحوم محمد سعيد باشا والى مصر الأسبق ، الى جانب المستر برودلى المحامى عنا تشكره للدفاع عن قضيتنا بما يأتى :

(جناب المستر برودلى المحامى

بعد اهدائك تسليماتى وتشكراتى لشـــخصك الكريم ، انتهز هذه الفرصة لأن أصرح لكم بأن بلاد مصر تشرفت بمجيئكم اليها وأنا وجميع أهلها مسرورون من أعمالكم لأنكم دافعتم عن مبدأ الانسانية والعدل

ونحن المصريين نبتهل الى الله فى كل أيام حياتنا أن يهنئكم وينجح مقاصدكم ونرجو أن العدل والشفقة يحكمان هذه البلاد)

(هذا وبدفاعكم عن أبناء مصر ـ الذين سعوا لخيرها ، ودافعوا عنها قد جعلتم انجلترا محبوبة عندنا لأن الانجليز عطفوا علينا فى حزننا ومصيبتنا ٠

وانى أشكر جناب المستر بلنت بقلب خالص لطيبته وانعطافه نحونا ، وجميع المصريين مسـرورون من الأخبار التى دلت على أعمالكم ولا يجرؤ أحد على تأييد العكس مع تبلج نور الحقيقة ، وانى لعاجزة حقيقـة عن توضيح تشكراتى) ٠

مصر فى ١٥ ديسمبر سنة ١٨٨٢

(انجى)

أما والدة الخديو ـ كما يقول عرابى ـ (فكانت فى عربتها خارج قصر النيل لتشمت بنا)

والفرق بين الحالتين ، أن عرابى كان أثيرا على سعيد باشا أما الخديو توفيق فكان عدوا له ينشد قتله ٠

وكان الرحيل الى المنفى ليلة الاربعاء (الواقع فى ١٧ صفر سنة ١٣٠٠ والموافق ٢٧ ديسمبر سنة ١٨٨٢ ٠٠ وبعد قيامنا ولينا وجوهنا شطر مصر ننظر الى جمالها وحسن منظرها ، ونودعها بقولنا :

(ياكنانة الله صـبرا على الأذى ، حتى يأتى الله لك بالنصـر) ٠

وفى المنفى ، وقد ألقت الباخرة التى تقلهم مراسيها فى ٩ يناير سنة ١٨٨٣ فى ثغر كولمبو ، وكان استقبالهم حافلا ، حين (خرجنا الى البر صباح الخميس غرة ربيع الأول سنة ١٣٠٠ و ١٠ يناير

سنة ١٨٨٣ ، فوجدنا رصيف الميناء مزدحما أيما ازدحام باخواننا المسلمين من أهل الجزيرة المذكورة وأهل الجاوة والهند والملايو وأعيان طائفتى التمل والشنكليز أهل البلاد من عباد الأوثان على — مذهب البوذا — وكلهم يشيروا الينا بالسلام وزيادة الاحترام) ٠

وترجع تلك الظاهرة من الاستقبال الحافل لعرابى ورفاقه ، الى برم الأهلين بالاستعمار الأوربى ، والانجليزى بنوع أخص لتلك البلاد ، وهو ما حمل السفارة الانجليزية بالأستانة — كما سبق القول ، الى طبع مليون نسخة تعلن عصيان عرابى للارادة السلطانية بالأستانة لتوزيعها على مسلمى الهند ومسلمى الشرق الأقصى للقضاء على حركة التشيع للعرابيين ٠

وفى ٢٠ اكتوبر من نفس السنة (حضر صديقنا المستر بلنت من انجلترا لزيارتنا ، وتهنئتنا على نجاتنا من أيدى خصومنا) وكان استقباله حافلا وكان بصحبته (السيدة الفاضلة — الليدى آنا بلنت — وبمعيتهما القس لويس الصابونجى) ٠

(ولما وصلنا الى البر تكاثرت علينا جموع المحتفلين بقدوم المستر ولفرد سكاون بلنت) ٠

وفى الطريق الى مقر الضيافة (كان الناس مصطفين على جانبى الطريق الموصل الى السراى وهم يحيون المستر بلنت ونحن معه فى المركبة بوجوه باشه وأسارير مبتهجة حتى وصلنا مقر الضيافة — وقد ازدان بالأنوار الكهربائية وأقواس النصر ٠٠ ولما رأى سرور الناس بمقدمه وعظيم احتفائهم به حمد الله على ذلك بقوله — الحمد لله على نعمائه فقد جنينا ثمرة أتعابنا بما شاهدناه من الأحساس الشريف عند عناصر الشعب السيلانى وجميع المسلمين) ٠

وقد منع بلنت فى عودته ـ بعد الاحتفال بتتويج حيدر أباد الدكن بعد بلوغه سن الرشد ـ من دخول مصر بأمر المستر يارنج ـ لورد كرومر فيما بعد ، فذهب الى الآستانة حيث (قوبل بكل احترام بأمر الحضرة السلطانية ثم قفل راجعا الى انجلترا) ..

وشاء القدر لعرابى أن يكون انصافه على يد هؤلاء الأحرار من الانجليز ، وأن يكون ما كتبوه خير مرجع لتاريخ مصر الحديث سواء على يد كارهيه أو محبيه ، ومع ما بذله الرافعى من جهد أثير فى تدوينه لتاريخ مصر الحديث ، الا أن ماكتبه ـ كان كثيرا مايطغى عليه الهوى والأيثار فى انتمائه الى الحزب الوطنى ، وتشيعه له ، ومجاملته للأسرة الحاكمة .

ويشير عرابى الى ما كان من زيارة ـ الدوق أف كنوت ثالث أنجال ملكة الانجليز (وقد تقدم وصوله ـ كما يقول ـ حضور صديقنا السير وليم جريجورى كاتم أسرار الملكة ، فقدمنا الى الدوق عند وصوله الى رصيف الميناء فلاطفنا سموه ودعانا نحن المصريين الى وليمة فى سرادق الحكومة وقد ازدهت السراى بالأنوار والأضواء ، فكان الليل كأنه صحوة النهار ، وجاء صديقنا السير وليم جريجورى المذكور مرة ثانية الى سيلان فى شهر مايو سنة ١٨٨٢ .. وقد أشار علينا أن نحرر عريضة الى الحكومة الانجليزية نطلب اليها العودة الى بلادنا لما رآه من انحلال قوانا بالنسبة لرداءة الطقس ووعدنا بالمساعدة .. الا أن الحكومة المصرية رفضت أجابة طلبنا حيث كان رياض باشا رئيس الحكومة اذ ذاك لسوء الحظ ، وأشارت بارسالنا الى بلاد الكاب أو زيلع .

وكان عرابى ـ كما يقول ـ قد طلب العودة الى مكان قريب واقترح أن تكون قبرص ، وهو يدرك تماما أن الخديو توفيق عدوه

الكاره مازال حيا ، ولم ينل عرابى الأذن بالعودة الى مصر إلا بعد وفاة توفيق بسنوات ، عندما اعتلى الخديو عباس حلمى الثانى أريكة الخديوية خلفا لأبيه توفيق بعد وفاته فى سنة ١٨٩٢ فأصدر عفوه عن عرابى واذن له بالعودة الى مصر فى ١١ يونيه ١٩٠١ أى بعد ولايته بتسع سنوات ٠

وفى المنفى كانت وفاة عبد العال باشا حلمى يوم ١١ مارس ١٨٩١ بكولمبو ودفن بها ، كما أدركت الوفاة محمود باشا فهمى بكندى عاصمة الجزيرة ليلة ١٧ يوليه ١٨٩٤ ودفن بها ، ورخصت الحكومة المصرية لطلبة باشا عصمت بالعودة الى مصر بعد أن ساءت صحته فعاد الى مصر حيث توفى بعد خمسة شهور من عودته ودفن بقرافة الامام الشافعى ، وفى شهر اكتوبر سنة ١٩٠٠ توفى يعقوب باشا سامى ، ودفن بجوار قبر محمود باشا فهمى بكندى ، وكان قد صدر العفو عنه وشاء قدره أن تكون وفاته قبل عودته ، ونال محمود باشا سامى البارودى الأذن بالعودة لعلاج عينيه ، ولم يعد اليه بصره وتوفى فى ١٢ ديسمبر سنة ١٩٠٤ ٠

وكان عرابى وعلى فهمى آخر من نال العفو الخديوى وصدر لهما الأذن بالعودة ، وكانت عودة على باشا فهمى الى القاهرة أول سبتمبر ١٩٠١ وبعد شهر لحق به عرابى أول الشهر التالى — أول اكتوبر ١٩٠١ — وكان آخر العائدين ممن لحق بهم الأبعاد بعد تسعة عشر عاما من مرارة الأبعاد والشوق الى مصر ٠

وشاء القدر لعرابى — كما كان آخر العائدين — أن يكون آخر من لحق بهم الأجل ٠ حيث أمضى السنوات العشر الأخيرة من حياته ليكتب كلمته للتاريخ — فيما دعاه (كشف الستار عن سر الأسرار

فى النهضة المصرية المشــــهورة بالثورة العرابية فى عامى ١٢٩٨ و ١٢٩٩ الهجريتين وفى ١٨٨١ و ١٨٨٢ الميلاديتين) ٠

وكانت وفاته ـ ليلة القدر ـ (٢٧ رمضان سنة ١٣٢٩ ـ ٢٢ سبتمبر سنة ١٩١١ ٠ وكان قد انتهى من كتابة مذكراته ـ كما يقول ـ (وكان الفراغ من كتابى هذا فى ١٨ رجب سنة ١٣٢٩ الموافق ٢٦ يوليو سنة ١٩١٠) أى قبل وفاته بحوالى ثلاثة أشهر ٠ وكانت نهاية حقبة من تاريخ مصر الحافل ٠

دكتور حسين فوزى النجار

الزمالك ـ السبت ٢٤ ذى الحجة ١٣١١

الموافق ٦ يوليو ١٩٩١

الفهـرس

صفحة

رقم الايداع ٣٠٦٢/١٩٩٢

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 — 01 — 3009 — 5

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب